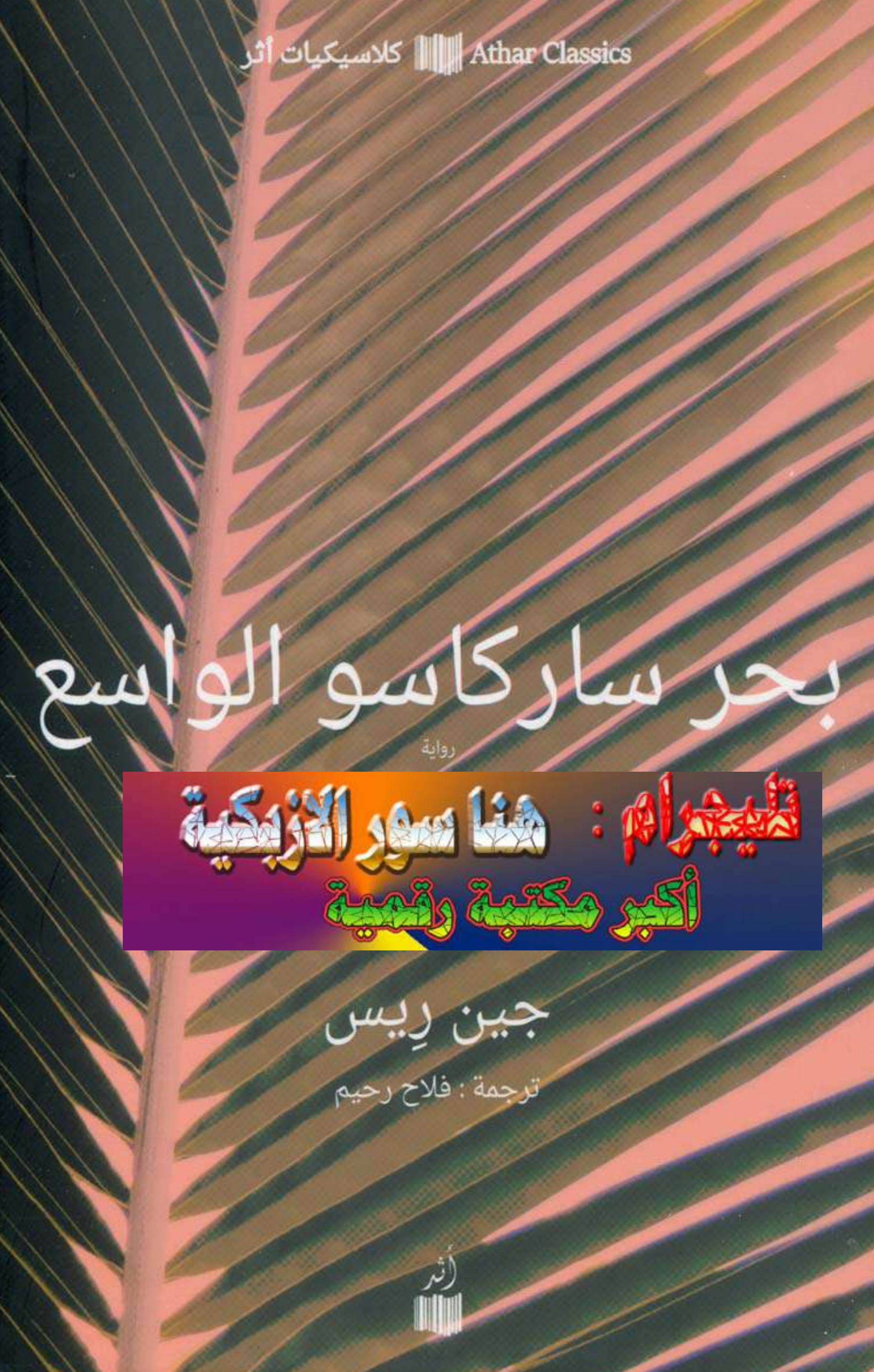

كلاسيكيات أثر
Athar Classics
بحر ساركاسو الواسع
رواية
تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية
جين رِيس
ترجمة : فلاح رحيم
أثر

بحر ساركاسو الواسع

رواية

تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب

جين رِيس

ترجمة: فلاح رحيم





بحر ساركاسو الواسع

بحر ساركاسو الواسع / رواية

جين ريس

ترجمة فلاح رحيم

الطبعة الأولى 1437 / 2016

ردمك **978-9938-88055-7**

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي **Wide Sargasso Sea**

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونيا من: **SHEIL LAND ASSOCIATES** بمقتضى الإتفاق الخطي الموقع بينه وبين دار أثر للنشر والتوزيع.

Copyright ©1966, Jean Rhys

All rights reserved

تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: **00966505774560**

الموقع الإلكتروني: **www.darathar.net**

البريد الإلكتروني: **info@darathar.net**

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية.. بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى.. بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر



مقدمة الترجمة العربية

تقع رواية «بحر ساركاسو الواسع» لجين ريس بين نخبة نادرة من الأعمال الأدبية التي يزيدها التقادم أهمية وعمقاً. أما أهميتها فلا أدلّ عليها من كثرة الدراسات النقدية المخصصة لها ودخولها المعتمد الغربي والعالمي والأكاديمي على نطاق واسع، وأما عمقها فتكشفه حقيقة أن موضوعاتها المتنوعة المدهشة تعود لتفرض حضورها في يومنا هذا إلى الواجهة وأهمها الهجنة الثقافية والسياسية والعاطفية التي تعيشها الإنسانية في حقبة العولمة والتثاقف. لقد عادت الدراسات النسوية وما بعد الكولونيالية وما بعد الحداثية للتعمق في قراءة هذا النص المدهش لتكتشف فيه أعماقاً متجددة على الدوام.

ولدت مؤلفة هذه الرواية جين ريس في الدومينيك عام 1890 لأب طبيب بريطاني ويلزي وأم كريولية (خلاسية) بيضاء، وتوفيت عام 1979. وقد نشأت ريس لهذا السبب في قلب هجنة ثقافية وسياسية معقدة وشهدت أفول نجم الامبراطورية البريطانية وما ترتب على صدور قانون تحرير العبيد عام 1833. كل هذا ينعكس في روايتها «بحر ساركاسو الواسع»، لكن الرواية تمارس أيضاً تناصاً دالاً مع عمل كلاسيكي معروف له مكانته المرموقة في المعتمد الأدبي البريطاني هو رواية تشارلوت برونتي «جين اير» (1847). تلتقط ريس من هذه الرواية شخصية برثا ميسون الكريولية زوجة بطل

رواية برونتي البايروني الساحر روتشستر، التي عاد بها من الكاريبي وسجنها لجنونها في الطابق العلوي مهمشة مزدراة. قررت ريس أن تثأر لهذه الشخصية المحطمة المهملة وتكتب سيرتها من منظور جديد فقدمت لنا عملاً أدبياً ساحراً يقف على أرضه الصلبة الخاصة مستقلاً بفضل منجزه الفريد. لم تمنح ريس برثا ميسون القادمة من المستعمرات صوتاً وحضوراً مركزياً آسراً في روايتها هذه حسب بل أثارت أيضاً أسئلة عميقة بصدد ما عُرف عن رواية برونتي من دفاع عن تحرر المرأة وحقوقها في المجتمع الفكتوري. هنالك مقابل قوة جين اير وحريتها ضعف برثا ميسون وعبوديتها لذات القيم التي حررت المرأة الأولى. وهو ما يجعل هذه الرواية نصاً مضاداً يفضح مناطق خنقها المعتمد السائد.

لن أطيل في تقديم هذه الرواية إذ أن المقدمة التي كتبها فرانسيس وندهام وتتصدر هذه الترجمة توفر مدخلاً جيداً إلى أدب جين ريس ومنجزها. لقد صدرت ترجمتي الأولى لهذه الرواية عام 1987 عن دار المأمون في بغداد وراجعها مشكوراً الأستاذ سمير عبد الرحيم الجلبي، لكن دعوة دار أثر الغراء لإصدار طبعة ثانية لها وفرت لي فرصة إعادة نظر شاملة في الترجمة الأولى، وهو ما قادني بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على صدورها إلى الخروج بنص يكاد يكون جديداً. وأود هنا أن أشكر أخي الأستاذ شريف هاشم الزميلي الذي راجع النص العربي للترجمة الأولى في حينها وعاد ليراجع هذه الترجمة المنقحة الثانية بدقة وحماسة دالتين عليه. وشكر خاص لدار «أثر» الغرّاء على اهتمامها بالترجمة الأولى وإتاحة فرصة مراجعتها ونشرها من جديد.

فلاح رحيم

2016

مقدمة

ولدت جين ريس في روسو بالدومينيك(*) إحدى جزر الوند ورد، وأمضت طفولتها هناك. كان أبوها طبيباً ويلزياً وأمها من الكريول(**)، أي هندية غربية بيضاء. جاءت إنجلترا وهي في السادسة عشرة حيث أمضت سنوات الحرب العالمية الأولى. بعدها تزوجت شاعراً هولندياً وعاشت لعشرة أعوام حياة مضطربة من التجوال في أوربا، خصوصاً في باريس وفيينا. حدث ذلك خلال العشرينات وجوهر حياة الفنانة في أوربا خلال تلك الفترة احتواه كتابها الأول «الضفة اليسرى» (كيب، 1927) الذي وُصف على الغلاف بأنه «تخطيطات ودراسات في حياة باريس البوهيمية الراهنة.» وقد كتب فورد مادوكس فورد مقدمة حماسية لهذا الكتاب علق فيها: «غريزة مخيفة وانفعال فظيع -يكاد يتوهج كالنار- في تحمّل حالة الوقوع ضحية الظلم...» وأضاف «حين قمت مؤخراً بإصدار دورية أدبية وصلتني من السيدة ريس رسائل

---

* الدومينيك واحدة من جزر الهند الغربية، كانت مستعمرة بريطانية وأصبحت منذ عام 1967 إحدى «دول جزر الهند الغربية المتحدة» عاصمتها روسو Roseau.

** الكريول أو الخلاسيون هم مواليد جزر الهند الغربية أو أميركا اللاتينية المنحدرون من أصل أوربي أو أسباني بخاصة. كما يُطلق الاسم على الأشخاص الذين يجري في عروقهم مزيج من الدم الفرنسي (أو الأسباني) والزنجي ويتكلمون بإحدى اللهجات المشتقة عن اللغات الأوربية. إن فهم هذا الموقع الوسطي للكريول بين حضارتين وطبيعتين له أهمية كبيرة في تذوق هذه الرواية.

أثارت ذهولي الشديد ونشرت منها ما وسعني نشره، ما أذهلني على الصعيد التقني... هو الغريزة الفريدة في التعامل مع الشكل التي لا نجدها إلا عند قلة متفردة من كتّاب الإنجليزية، ولا نكاد نجدها لدى أية كاتبة إنجليزية.»
لقد تضمنت تلك المقدمة شيئاً من الاهتمام بالكاتبة (ويعدّ فورد الشخص الذي تكفلها بالرعاية بالمعنى الحرفي للكلمة) إلا أنه يستحق الإكبار لتميزه، في مرحلة مبكرة إلى هذا الحد من عملها، العناصر الأساسية التي عملت (وقد ازدادت كثافتها مع تطور فنها) على وضعها بين أكثر الكتاب نقاءً في زمننا، تلك هي «انفعالها في تقديم حالة الوقوع ضحية للظلم» و«غريزتها الفريدة في التعامل مع الشكل»؛ اتحاد نادر ولكنه ضروري. دون الغريزة يمكن أن يتحول الانفعال بسهولة إلى مبالغة عاطفية أو ضرب من الحسية، ودون الانفعال يمكن أن تقود تلك الغريزة إلى جمال شكلي فحسب، أما اجتماعهما فينتج فناً أصيلاً مصقولاً عميق الأثر.

ربما فوجئ فورد مادوكس فورد إلى حد ما بكتاب محميته اللاحق؛ رواية نُشرت في إنجلترا بعنوان «حالات» (تشاتو أند وندس، 1928) وفي أميركا بعنوان آخر هو «رباعية» (سايمون أند شوستر)، والسيدة ريس تفضل العنوان الأميركي. ربما تكون شخصية فورد نفسه قد أوحت لها بشخصية هـ. جـ. هدلر هاوي الفنون الألماني المتطبع بطباع الإنجليز والمتسم بالفتور. نجد في الرباعية أول تجسيد تقدمه جين ريس لبطلتها؛ روايات ريس الأربع الأولى تتعامل أساساً مع المرأة ذاتها في مراحل حياتها المختلفة، بالرغم من أن اسمها والتفاصيل الصغيرة المتعلقة بظروفها تتغير من مجلد لآخر. ماريا زيلي عملت فتاة كورس في إنجلترا، وهي الآن (في العام 1926) تهيم دون مستقر في مونتبارناس مع بولندي وسيم واهن العزم تزوجت منه. هذا الوجود التائه السلبي ينفجر فجأة عندما يُودَع زوجها السجن، فيتخذها آل هدلر صديقة للعائلة: رجل كهل مع زوجته الإنجليزية القح «المتحررة» مع ميل

إلى التسلط. يتفق هذان الزوجان على أن تصبح ماريا عشيقة للزوج كأمر مفروغ منه. وهو ما يثير اشمئزاز ماريا في البداية، لكنها تتقبله في ما بعد وتقع في حب هدلر بشغف، فتصوّره طوال الوقت بنوع من رعب المنوّمين تنويماً مغناطيسياً. تقدّم لنا القصة وصفاً للأسرة الثلاثية التي يتمخض عنها هذا الترتيب (زوجة متحررة تفيض نشاطاً وعاشق نكد أناني وضحيتهما المذهولة المحايدة القلقة) حتى يخرج الزوج من السجن. ماريا، التي خدّرها البؤس، تسيء معالجة الموقف وتخسر الرجلين كليهما. يكشف لنا تنفيذ كتابة الرباعية بعض الارتباكات التي استؤصلت فيما بعد من أسلوب السيدة ريس، بالرغم من ذلك يستحضر خيالها الحالة بذلك المزيج من المباشرة النابضة والموضوعية الخابية، والذي يُعد من أروع مميزاتها.

تبدأ رواية «بعد هجران السيد ماكنزي» (كيب، 1930) في باريس أيضاً حوالى عام 1928. تعيش جوليا مارتن، بعد أن أحالها عشيق سابق على التقاعد، حياة وحدة تزخر بأحلام اليقظة في فندق رخيص. ذات صباح يصلها الشيك الأسبوعي من محامي السيد ماكنزي مع رسالة تبلغها بأنه سيكون الشيك الأخير. ليس لدى جوليا مال، كما أنها لا تثق في قدرتها على اجتذاب الرجال فتقرر السفر إلى لندن لزيارة عشاقها السابقين طلباً للمال. لكن الزيارة (التي أمضتها في البيوت الداخلية في بيزوتر ونوتنغ هل كيت) لم تكلل بأي نجاح. لقد قوبلت بعدم تفهم يداخله التفضل والسخط والاستنكار الأخلاقي. تبدأ خلال الزيارة علاقة مع شاب يُدعى السيد هورسفيلد سرعان ما تتدهور بشكل ساخر فتعود إلى باريس لتواجه مستقبلاً متوعداً يشرف على هاوية. كتبت ريس هذه الرواية بضمير الشخص الثالث (الغائب) وهي تتميز بالوضوح والمرارة لكنها لا تصل إلى أعماق الشخصية المحورية بالمستوى الذي وصلته الروايتان اللاحقتان، وفيهما تروي البطلتان القصة بأنفسهما.

عادت جين ريس إلى إنجلترا بعد تأليف هذا الكتاب وفيها وضعت كتابها «رحلة في الظلام» (كونستابل، 1934)، وسياق الرواية يكشف أن تاريخها هو العام 1914. آنا مورغان فتاة في التاسعة عشرة تقوم بجولة في المقاطعات ضمن فرقة تمثيل صامت. تلازمها ذكريات طفولتها في جزيرة هندية غربية عن خدم ملونين مفعمين بالحنان وجمال المناطق الاستوائية بوصفها مصاحباً حاداً لمغامراتها في أرض جليدية مريبة. يلتقطها في البحر الجنوبي رجل يُدعى ولتر جيفرز، يغرر بها ويعرض عليها العيش معه. تقع في حبه («حين تغلق الباب وتنزل الستائر يبدو الوقت وكأنه ألف عام برغم أنه ينقضي في غمضة عين»)، ثم تنتقل، مخلوقة مرتعشة حالمة، إلى سكن قرب جوك فارم. لكنها تجد أن بيت عشيقها في غرين ستريت «مظلم بارد، لا أثر فيه لمودة نحوي. إنه يسخر مني، يسخر في سره، كما يفعل الخادم. مَن هذه؟ من أي جهات الأرض التقطها؟» أما السيد جيفرز فيساوره القلق لسلوكها المتسم بالشرود، وتصدمه في بعض الأحيان حدّتها المفاجئة. حين يملّها يتكفل ابن عمه الوسيم فيكتور بنقل ذلك لها في رسالة: «طفلتي العزيزة، أكتب من الريف لأؤكد لك أنك لو دخلت إحدى الحدائق هنا وشممت زهورها فستجدين أن كل هذا الحب الوحشي تافه لا أهمية له ببساطة. على أية حال قد تظنين أني ألقي عليك المواعظ، لهذا سألتزم الصمت... هل تحتفظين بأية رسالة مما بعث لكِ ولتر؟ إن كان لديك فعليك إعادتها». آنا وقد أذهلتها هذه الضربة الأخيرة (برغم أنها ظلت تتوقعها دائماً) تتحول إلى البغاء؛ ويمكن مقارنة هذا القسم من الكتاب الذي يعالج موضوعاً غالباً ما تعرض للتزييف في الأدب القصصي بروايات تشارلس لويس فيليب وبفيلم غودار «المستسلم لأهوائه» Viver Sa Vie. تنتهي القصة بشفاء آنا من آثار عملية إجهاض لتسمع الطبيب بقول «إنها على خير ما يرام، جاهزة لتبدأ كل شيء من جديد في وقت قصير، أنا لا أشك في ذلك.»

في الحلقة التالية والأكثر إثارة من أعمالها «صباح الخير يا منتصف الليل»(*) (كونستابل، 1939) نلتقي ساشا جانسين وهي تعاود زيارة باريس عام 1937 وقد تجاوزت الأربعين وفقدت الثقة في قدرتها على اجتذاب الرجال، تتوقع الإهانات دون أن تكون مسلحة ضدها، وتحاول كما تقول هي أن تشرب حتى الموت. بعض المطاعم يتوجب عدم دخولها بسبب الذكريات التي تستثيرها، والمطاعم الأخرى يسودها جو عدائي يتستر بالتهذيب. وهي عاجزة عن اقتناء قبعة أو صبغ شعرها أو الوفاء بلقاء واعد بالنسبة لها. تلتقي ساشا بشاب يتضح أنه جيكولو(**) غشّه فراء معطفها فظنّها امرأة غنيّة. يشرعان في علاقة معقدة وتتقاطع غاياتهما. ساشا تريد إن تصب على هذا الصبي كل غضبها من الرجال؛ إنها تستمتع بمراقبة قلقه اليائس وهو يحاول إمتاعها، وتخطط لتأخذ بثأرها: «تتبادلين الحديث معهم وتدّعين التعاطف ثم تقولين لهم في اللحظة التي لا يتوقعون فيها العبارة على الإطلاق «اذهب إلى الجحيم». لكن التخلص من الجيكولو ليس بالأمر السهل، فهو يخطط ليثأر لنفسه. وما بدأ بصيغة مناكدات متبادلة تحوّل إلى تعذيب متبادل. هذه الحوادث المتصلة والمعقدة تتم معالجتها برقة شديدة، و ذروتها التي تضع حداً للرواية منجزة ببراعة. توفر قراءتها للقارئ إثارة تفوق الوصف.

تعدّ ساشا تتويجاً لكل بطلات جين ريس المركبات. ورغم تعاستها العدوانية فإن صحبتها طيبة دائماً. تعرف نفسها بدقة وترصد الآخرين

---

* نشرت مجلة «الثقافة الأجنبية» العراقية ترجمة رواية «صباح الخير يا منتصف الليل» في عددها الأول عام 1982، وقد ترجمتها السيدة سميرة المانع ثم نشرت في كتاب مستقل صدر عن الاغتراب الأدبي في لندن عام 2015.

** الجيكولو gigolo رجل يعيش على ما يكسب من مراقصة النساء (المسنّات غالباً) في الحانات ومرافقتهن.

بروح كوميدية باردة. وهي غالباً ما تبدو غير معقولة، بل إن المرء ليشعر في لحظات معينة بالعطف على الرجال حسني النية وهم يجدون التعامل معها صعباً إلى هذا الحد. لكنها ليست حقودة؛ تمتد شفقتها ذاتها لتشمل كل من يعيش المعاناة. بالنسبة لها تسمو المعاناة على مسبباتها. ليست هذه الرواية مجرد دراسة في حياة امرأة وحيدة تتقدم في العمر، هجرها أزواجها وعشاقها فلجأت إلى الخمر، بل هي مأساة عقل متميز وطبيعة كريمة مضت دون أن يقدّرها أحد حق قدرها في عالم تقليدي خال من الخيال. إنها ضحية جهل الرجال بالنساء وعلامة دالة على عدم ثقة النساء بالرجال. تنتمي ساشا إلى نمط عالمي نادراً ما كُتب عنه بشكل جيد، وعلى الكاتب إن يتعامل معه، كما تفعل السيدة ريس، بتفهم وتحكم.

بعد «صباح الخير يا منتصف الليل» اختفت جين ريس ونفدت كتبها الخمسة. ورغم النجاح النقدي الذي لقيته هذه الكتب فإن ميزتها الحقيقية لم تلق ما تستحق من تقدير أبداً. والسبب في ذلك بسيط؛ كانت كتباً تتقدم على عصرها في روحيتها وفي أسلوبها معاً. وما على المرء إلاّ أن يقارن كتب السيدة ريس المبكرة، التي كتبتها خلال العشرينات، بأحد الأعمال المعاصرة لها من كتابات كاثرين مانسفيلد والدوس هكسلي وجان كوكتو وكتّاب آخرين ممن كانوا يلقون الاحتفاء في تلك الفترة، عندئذٍ ستصدمه ضآلة الرابطة التاريخية للنص مع زمنه. سيجد أن الأسلوب هو أسلوب اليوم. وأهم من ذلك أن الروايات التي كتبتها في الثلاثينات أقرب بكثير في الشعور الذي تنطوي عليه إلى الحياة كما نعيشها ونفهمها في الستينات منها إلى الآراء المتواضع عليها في زمنها. السطح الأنيق والمحتوى المشغول بجنون الاضطهاد، الوفاء البري للسيكولوجيا الأنثوية والنكوص الكامن نحو الجمال المفقود؛ كلها تخلق تأثيراً حديثاً بشكل متميز.

القلة التي ظلت تتذكر إعجابها بهذه الكتب من القراء وأولئك الأقل عدداً (مثلي أنا) الذين تعرفوا عليها في وقت لاحق وتمكنوا بصعوبة كبيرة من الحصول على نسخ مستعملة منها شكلّوا لحين من الوقت عصبة صغيرة ولكنها متحمسة. غير أنّ أحداً لم يستطع العثور عليها ولا أبدى ميلاً لإعادة طبع رواياتها. بعدها جاءت المناسبة حين تم تحويل رواية «صباح الخير يا منتصف الليل» إلى دراما أُذيعت من البرنامج الثالث عام 1958، حينها تكللت الجهود للوصول إلى عنوانها في كورنول بالنجاح. كان لديها مجموعة من القصص غير المنشورة كتبتها أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة، فضلاً عن انشغالها بكتابة رواية.

من هذه القصص «رقصة البترونيلا» و«يوم أحرقت الكتب» و«الذئاب لها شكل أجمل» وقد نشرت منذ ذلك التاريخ في لندن ماجازين (التي نشرت لها أيضاً قصة طويلة جديدة بعنوان «دعهم يسمونه الجاز» كتبتها عام 1961) و«خارج الآلة» التي ظهرت في الطبعة السادسة من «حكايات الشتاء» (ماكميلان، 1960) و«بيت متماسك» في مجموعة منتخبة عنوانها «أصوات» (ميكائيل جوزيف، 1963). قصص «تجسستُ على غريب» و«صوت النهر» و«اللوتس والزمن الضائع» نشرت في الأعداد الثامن والتاسع والحادي عشر والثاني عشر من «الفن والأدب».

لقد ظلت جين ريس لسنوات عديدة مسكونة بشخص زوجة السيد روتشستر الأولى؛ الزوجة المجنونة في رواية «جين اير». والرواية الحالية التي أتمتها أخيراً بعد الكثير من المراجعات والرفض المعذب للصياغات الأولى تمثل قصة تلك الزوجة. لكنها ليست كذلك بالمعنى الحرفي: إنها ليست محاكاة لشارلوت برونتي بأي معنى من المعاني بل تقف مستقلة بذاتها تماماً عن «جين اير». مع هذا فإن كتاب برونتي وفر الإلهام الابتدائي لعمل فذ

خيالي يكاد يكون خارقاً في كثافته الحيّة. لقد كانت السيدة ريس على معرفة، اعتماداً على تجربتها الشخصية في الهند الغربية وقراءتها لتاريخ سكانها، بمسألة الوريثات الكريوليات في مطلع القرن التاسع عشر اللواتي لم يكن إرث أزواجهن إلا عبئاً إضافياً عليهن: إنهن نتاج مجتمع فطري، متدهور، مغترب يقابله بالاستنكار العبيد المحررون حديثاً، ويوحّد بين الطرفين إيمان بالخرافات نفسها؛ مجتمع يتداعى وسط المصاعب في جمال محيطاته المدارية الجائرة، ناضج ليقع فريسة للمستغلّين. وقد اختارت جين ريس واحدة من هذه الوريثات لتكون بطلتها الأخيرة: إنها أنطوانيت كوسوي التي تمثل تطوراً منطقياً لماريا وجوليا وآنا وساشا المغتربات أيضاً والمنكشفات للخطر واللواتي يخضن صراعاً دائماً مع الحياة(*).

تقع الرواية في ثلاثة أقسام. الأول ترويه لنا البطلة نفسها، والثاني يروي فيه السيد روتشستر الشاب قصة وصوله إلى الهند الغربية وزواجه وعاقبته المشؤومة. ثم تعود زوجته مرة أخرى لتروي لنا القسم الأخير: لكن المكان الآن هو إنجلترا وهي تكتب من غرفة العلية في ثورنفيلد هول...

تشترك كل كتب ريس حتى الآن في أن مسرحها حضري حديث: مقاهي مونتبارناس، فنادق الضفة اليسرى الرخيصة، البيوت الداخلية في

---

* يضع الناقد سلوين كوجو أستاذ الدراسات الأفروأميركية في جامعة هارفرد رواية «بحر ساركاسو الواسع» في سياق أوسع ويكتب عنها: «أقترح على من يروم الاطلاع على عيون الروايات الكاريبية قراءة «بحر ساكاسو الواسع» لجين ريس. إن هذه الرواية المدهشة الممتعة تروي قصة «أنطوانيت كوسوي» التي ولدت من عائلة كريولية شُردت بعد إعتاق العبيد في جزر الكاريبي البريطانية في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر. وبعدما أجبرت أنطوانيت وعائلتها على أن تصل إلى حالة البؤس والحرمان والسخرية وجدت العائلة نفسها مضطرة للتأقلم هي الأخرى مع تغيير العلاقات الذي يتطلبه النظام الاقتصادي والاجتماعي الجديد. وتقدم هذه الرواية التي تجري أحداثها في الدومينيك وجامايكا رؤية رائقة للمجتمع الكاريبي من خلال وجهة نظر الجنس الأبيض الذي عاش هناك.» (المترجم)

بلومزبري، غرف مؤثثة قرب نوتنغ هل كيت تُستحضر في سياق شعري مطبوع بالمرارة على نحو فريد. ولا تبرز وسطها كنغمة مختلفة إلا بعض الاسترجاعات إلى الماضي في الغرب الهندي ترِد في رواية «رحلة في الظلام» وبعض الحوادث في «الضفة اليسرى»؛ إنها نغمة الأسف على فقدان الحسية البريئة في أرض خضراء مورقة، مخادعة. تعود جين ريس في «بحر ساركاسو الواسع» التي تجري أحداثها في جامايكا ودومينيكا خلال ثلاثينات القرن التاسع عشر إلى البلد الروحي كما إلى حلم بعيد، وتكتشف أنه بالرغم من جماله (وهي تستحضر هذا الجمال بروعة تبقى ماثلة في العقل) ليس سوى كابوس جاثم.

فرانسيس وندهام

القسم الأول

يقولون عندما تأتي المتاعب رصّوا الصفوف، وهكذا فعل البيض. لكننا لم نكن في صفوفهم، فالنساء الجامايكيات لم يعترفن بأُمي أبداً؛ «إنها تشبه نفسها فقط» كما قالت كريستوفين.

أمي هي الزوجة الثانية لأبي، وكانت تصغره كثيراً كما شاع بين الناس. والأسوأ من ذلك كونها فتاة مارتينيكية. عندما أسألها لماذا لا يأتي لزيارتنا إلا عددٌ صغيرٌ من الناس كانت تجيبني بأن الطريق من المدينة الأسبانية إلى ضيعة كوليبري حيث نعيش سيئ جداً وإصلاحه صار الآن أمراً من الماضي. (أبي، الضيوف، الخيول، الشعور بالأمان في الفراش؛ كلها تعود إلى الماضي).

في يوم آخر سمعتها تتكلم إلى السيد لوتريل جارنا وصديقها الوحيد:

- بالطبع، إن لديهم مشاكلهم، فهم مازالوا ينتظرون التعويض الذي وعد به الإنجليز عندما أُقِرّ قانون التحرير، وبعضهم سينتظر لوقت طويل.

كيف عرفتْ أن السيد لوتريل سيكون أول من يملّ الانتظار؟ ذات مساء هادئ أطلق النار على كلبه وخاض الماء إلى البحر ليختفي إلى الأبد. ولم يأت وكيل من إنجلترا ليرعى شؤون ممتلكاته -كانت تسمى استراحة نلسون- وقد قصدها غرباء من المدينة الأسبانية لتبادل اللغو ومناقشة المأساة.

- العيش في استراحة نلسون؟ لا سبيل إلى ذلك ولو من أجل الحب أو المال. إنه مكان مشؤوم.

بقي بيت السيد لوتريل فارغاً؛ مصاريع تصطفق في الريح. وعلى الفور قال عنه السود إنه مسكون وإنهم لن يقتربوا منه. وهكذا لم يقترب منا أحد.

أعتدتُ على حياة الوحدة، لكن أُمي استمرت تخطط وتأمل. ربما كان لزاماً عليها عقد الآمال كلما مرت قرب المرآة.

ما زالت تتجول على الحصان كل صباح غير آبهة بوقوف السود على شكل جماعات هنا وهناك ليسخروا منها، خصوصاً بعد أن أصبحت ملابس ركوبها رثة (يلاحظون الملابس، ويعرفون أمر النقود).

بعدها، وفي وقت مبكر جداً من أحد الأيام، رأيتُ حصانها ممدداً تحت شجرة الياسمين الأحمر. اقتربت منه فوجدت أنه ميّت لا مريض وقد أسودّت عيناه من الذباب. وليّتُ هاربة ولم أنبس بكلمة عن ما رأيت، فكرتُ بأنني إن لزمت الصمت فان الأمر قد يصبح وهماً. ولكن جودفري وجده في وقت لاحق من ذلك اليوم وكان مسمّماً. قالت أمي:

- نحن الآن معزولون ومحاصرون. ما الذي سيؤول إليه حالنا؟

قال جودفري:

- لا أستطيع أن أراقب الحصان ليل نهار. أنا عجوز متداع الآن. عندما ينقضي الزمن الغابر دعوه يذهب، لا فائدة من التشبث به. إن الرب لم يضع فوارق بين السود والبيض، السود والبيض سواسية بالنسبة له. أريحي نفسك ودعي القلق فالصالحون لا يُتركون لوحدهم.

ولكنها لم تستطع. كانت شابة. كيف تكفّ عن المحاولة لاستعادة كل الأشياء التي ذهبت بمثل هذه الضربة المفاجئة ودون سابق إنذار.

قالت بضراوة:

- أنت أعمى عندما تريد أن تكون أعمى. وأصم عندما تريد أن تكون أصم.

وظلت تردد:

- المنافق العجوز. كان يعلم بنواياهم.

قال جودفري:

- الشيطان أمير العالم. لكن هذا العالم لا يدوم طويلاً لإنسان فان.

***

أقنعتْ طبيباً من المدينة الأسبانية بزيارة أخي الصغير بيير الذي كان يمشي مترنحاً ويعجز عن النطق الواضح. لا أدري بماذا أخبرها الطبيب أو ما قالته هي له ولكنه لم يأتِ أبداً مرة أخرى كما أنها تغيرت هي نفسها بعد ذلك. تغيرت فجأة، لا تدريجياً. صارت نحيفة وصامتة ثم رفضت أخيراً أن تغادر البيت رفضاً قاطعاً.

كانت حديقتنا واسعة وجميلة كتلك الحديقة في الإنجيل؛ تنمو فيها شجرة الحياة، لكنها صارت بريّة. لقد غطت ممراتها النباتات النامية وامتزجت فيها رائحة الأزهار الميتة بروائح الحياة الجديدة. وتحت أشجار السرخس الطويلة كسرخس الغابة كان الضوء أخضر. وأزهرت السحلبية فعَلَت بعيداً حتى تعذر الوصول إليها أو أن سبباً ما كان يمنع من لمسها. إحداها بدت على شكل أفعى، والأخرى كالإخطبوط لها مجسات طويلة ورفيعة، بنيّة اللون، عارية من الأوراق تتدلى من جذع ملتو. مرتين في العام تزهر سحلبية الإخطبوط؛ عندها لا تظهر من مجساتها للعيان بوصة واحدة.

كانت إكليلاً جرسي الشكل من الأرجواني والأبيض والبنفسجي الغامق الزاهي مما يسر النظر. لها عطر جذاب نافذ. لم أقترب منها أبداً.

كل ضيعة كوليبري صارت برية مثل الحديقة، تحولت إلى أجمة. انتهت العبودية؛ لماذا يضطر أي شخص إلى العمل؟ ولم أحزن لذلك أبداً. لم أكن أتذكر المكان أيام ازدهاره. اعتادت أمي أن تتمشى جيئة وذهاباً في الممر الصاعد؛ وهو دكة طويلة مرصوفة مسقفة تمتد على طول الدار وتميل صاعدة إلى أجمة من شجر الخيزران. حين تقف أمي قرب الخيزران كانت تستطيع رؤية مشهد البحر بوضوح، لكن وقفتها تلك تتيح لكل عابر سبيل أن يحدّق فيها. كانوا يحدقّون فيها ويضحكون أحياناً. وتبقى هي بعد أن يبتعد الصوت ويصبح واهناً مغمضة العينين مضمومة القبضتين لمدة طويلة. تظهر بين حاجبيها الأسودين تقطيبة عميقة كأنها حُفرت بسكين. كنت أكره هذه التقطيبة وقد لمست جبينها ذات مرة أحاول تخفيفها، لكنها دفعتني جانباً، ليس بخشونة ولكن بهدوء وبرود، دون كلمة واحدة كما لو أنها قررت مرة واحدة وإلى الأبد أنني غير ذات نفع لها. كانت تريد أن تجلس مع بيير أو تتمشى حيث تشاء دون إزعاج، كانت تريد السلم والهدوء. أما أنا فكنت كبيرة بما فيه الكفاية لأهتم بنفسي، كانت تقول لي:

- اوو.. دعيني وحدي، دعيني وحدي.

وبعد أن عرفت أنها تتكلم مع نفسها بصوت عال أصبحت أخاف منها قليلاً.

وهكذا كنت أمضي أغلب وقتي في المطبخ المقام في بناية خارجية معزولة بعض الشيء. كريستوفين اعتادت أن تنام في الغرفة الصغيرة المجاورة لها. حين يأتي المساء كانت تغني لي إذا طاب لها الغناء. لم أكن أفهم أغانيها ذات اللهجة المحلية دائماً -هي أيضاً جاءت من المارتينيك- ولكنها علمتني الأغنية

التي مفادها «الصغار يكبرون، ويتركنا أولئك الأطفال... هل يعودون يوماً؟» وأغنية أخرى عن أزهار شجرة الأرز التي لا تعمّر أكثر من يوم واحد.

كانت الموسيقى مرحة لكن الكلمات حزينة، وصوتها غالباً ما يتهدج وينكسر في النغمة العالية. «وداعاً». ليس وداعاً كما نقولها ولكن بتمديد الألف مداً يكثف المعنى في نهاية المطاف. العاشق وحيد، والفتاة مهجورة، والأطفال لا يعودون مطلقاً. وداعاً.

لم تكن أغانيها تشبه الأغاني الجامايكية، وهي نفسها لم تكن مثل بقية النساء. كانت أكثر سواداً منهن. كان سوادها مزرّقاً ووجهها نحيفاً ذا ملامح مستقيمة. ثوبها أسود ولها أقراط ذهبية ثقيلة ومنديل أصفر مشدود بعناية تبرز عقدتاه العاليتان إلى الأمام. لم تكن أية امرأة زنجية أخرى ترتدي الأسود أو تربط منديلها على الطريقة المارتينيكية. كان لها صوت هادئ وضحكة هادئة (عندما تضحك فعلاً)، وبالرغم من أنها تستطيع أن تتحدث الإنجليزية بطلاقة عندما يحلو لها والفرنسية وكذلك اللهجة المحلية فقد ظلّت حريصة على التحدث كما يتحدثون. أما هم فلم يجدوا ما يثير اهتمامهم فيها، وهي لم تكن لترى ولدها الذي يعمل في المدينة الأسبانية إطلاقاً. كانت لها صديقة واحدة؛ امرأة تدعى مالوت وهي ليست جامايكية.

البنات اللواتي يأتين من جهة الخليج ليساعدنها في أعمال الغسيل والتنظيف كن يرتعبن منها. وسرعان ما اكتشفت أن ذلك هو السبب الوحيد لمجيئهن، فهي لم تكن تدفع لهن شيئاً. مع ذلك كن يجلبن إليها هدايا من الفواكه والخضروات، وبعد الظلام كنت أسمع في أغلب الأحيان أصواتاً خفيضة تأتي من المطبخ.

ذلك ما أثارني ودفعني للسؤال عن كريستوفين. هل هي طاعنة في السن؟ هل عاشت معنا دائماً؟

– كانت هدية الزواج التي قدمها لي أبوك؛ إحدى هداياه. ظن أنني يمكن أن أفرح بفتاة مارتينيكية. لا أدري كم كان عمرها عندما جاءوا بها إلى جامايكا، كانت صغيرة تماماً ولا أعرف عمرها الآن. ثم ما أهمية ذلك؟ لماذا تزعجيني وتضايقيني بكل هذه الأشياء التي حدثت منذ زمن بعيد. كريستوفين بقيت معي لأنها أرادت أن تبقى. ولتثقي بأن لديها أسباباً معقولة جداً تدفعها للبقاء. يمكنني القول إن مصيرنا جميعاً كان الموت الحتمي لو أنها وقفت ضدنا. لو متنا لكان أفضل... نموت ونصبح نسياً منسياً، بدل أن نعيش لنجد أن أحدنا مهجور، مركون جانباً دون عون. من يتذكر الموتى بكلمة طيبة؟

قلت:

– جودفري بقي معنا، وساس أيضاً.

قالت مغضبة:

– لقد بقيا لأنهما أرادا مكاناً ينامان فيه وشيئاً يأكلانه. ذلك الولد ساس! حين قفزت أمه إلى جهة بعيدة وتركته هنا –يا للرعاية الكبيرة!– لم يكن إلا هيكلاً عظمياً ضئيلاً. ها هو ذا ينمو الآن ويصبح فتى كبيراً قوياً ليذهب بعيداً هو الآخر. ولن نراه مرة أخرى. أما جودفري فإنه نذل. يعلم أن هؤلاء السادة الجدد لا يحملون شفقة إزاء كبار السن وهو السبب في بقائه. إنه لا يفعل شيئاً لكنه يأكل ما يكفي زوجاً من الخيل. يتظاهر بالصمم... ليس أصمّ، إنه لا يريد أن يسمع. أي شيطان!

– لماذا لا تطلبين منه أن يبحث عن مكان آخر ليعيش فيه؟

قلت فضحكتْ. قالت:

– لن يذهب. ربما سيحاول عندها أن يجبرنا على مغادرة المكان. لقد

تعلمت أن أترك الكلاب النائمة لشأنها.

فكرتُ «هل تذهب كريستوفين إن طلبتْ منها ذلك؟» ولكني لم أفصح عن هذه الفكرة. أحسست بالخوف من قولها. كان الجو حاراً في تلك الفترة من بعد الظهر. واستطعت أن أرى حبات العرق على شفتها العليا والدوائر القاتمة تحت عينيها. بدأت أروّح عنها بالمروحة لكنها استدارت برأسها جانباً. قالت إنها قد تستريح إن تركتها وحدها.

لكني أعود إليها، تارة متسللة بهدوء لأراقبها نائمة على الأريكة الزرقاء وتارة أختلق أعذاراً لأبقى جوارها وهي تسرّح شعرها؛ ملاءة سوداء ناعمة تغطيني، تخيفني، تبقيني في أمان.

ولكن ليس لوقت طويل. وليس من مزيد.

***

هؤلاء كانوا كل الناس في حياتي؛ أمي وبيير وكريستوفين وجودفري وساس الذي تركنا.

لم أنظر إلى أي زنجي غريب. كانوا يكرهوننا، ينعتوننا بالصراصير البيض. وكما يقول المثل دع الكلاب النائمة وشأنها. ذات يوم تبعتني فتاة صغيرة وهي تغني «اذهبي عنا أيتها الصرصارة البيضاء. اذهبي. اذهبي». أسرعت الخطى، لكنها مشت أسرع مني «أيتها الصرصارة البيضاء. اذهبي. اذهبي. لا أحد يريدك. اذهبي».

حين وصلت البيت بأمان جلست قرب الحائط القديم عند نهاية الحديقة. كانت تغطيه الطحالب الخضر الناعمة كالمخمل ولم أرغب أبداً في الحركة مرة أخرى. سيزداد كل شيء سوءاً لو تحركت. أخيراً وجدتني كريستوفين هناك وقد أوشك الظلام أن يهبط. كنت متشنجة جداً حتى أنها

ساعدتني لأتمكن من النهوض. لم تقل شيئاً ولكني في الصباح التالي رأيت تيا في المطبخ مع أمها مالوت صديقة كريستوفين. وفي الحال أصبحت تيا صديقتي وصرت ألتقي بها كل صباح تقريباً عند منعطف الطريق إلى النهر.

كنا نغادر بركة الاستحمام عند منتصف النهار أحياناً، وفي أحيان أخرى نبقى حتى وقت متأخر بعد الظهر؛ عندها تشعل تيا ناراً (النيران تشتعل دائماً بين يديها، الصخور الحادة لا تؤلم قدميها الحافيتين، لم أرها تبكي أبداً). سلقنا موزاً أخضر في قدر حديدي قديم وأكلناه بأصابعنا التي تبرز من غلاف القرع اليابس، بعد الأكل نامت على الفور. أنا لم أستطع النوم لكني لم أكن يقظة تماماً، كنت أتمدد في الظل وأنظر إلى البركة: عميقة وذات خضرة غامقة تحت الأشجار لكنها تميل إلى اللون البني حين ينزل المطر، وتكون خضرة لاصفة حين تشرق الشمس. الماء رائق جداً إلى حد يسمح لك برؤية القاع عند الأجزاء الضحلة والحصى فيه، أزرق وأبيض وأحمر مخطط. جميل جداً. وسواء عدنا في وقت مبكر أو متأخر فقد كنا نفترق عند منعطف الطريق. لم تسألني أمي يوماً أين كنت أو ماذا فعلت.

كانت كريستوفين قد أعطتني بعض البنسات الجديدة فاحتفظت بها في جيبي. ذات صباح سقطت مني فوضعتها على صخرة. أضاءت في الشمس كالذهب فرمقتها تيا. عيناها صغيرتان، فيهما سواد حالك تستقران في مكان غائر من رأسها.

بعدها راهنتني مقابل ثلاثة بنسات على أنني لا أستطيع أن أؤدي شقلبة كاملة تحت الماء «كما تدّعين».

– طبعاً أستطيع.

قالت:

- لم أرك تفعلينها أبداً. إنه مجرد كلام.

قلت:

- أراهنك مقابل كل ما أملك من نقود.

لكني بعد شقلبة واحدة بقيت مقلوبة في الماء وخرجت مختنقة. ضحكت تيا وقالت إنها تصورتني متّ غرقاً في تلك القفزة ثم التقطتِ النقود.

- ولكني أنجزتها.

قلت حين أصبحت قادرة على الكلام إلا إنها هزت رأسها، فأنا لم أنجزها بشكل جيد فضلاً عن أن البنسات لا تفيد في شراء الكثير. لماذا رمقتها بتلك النظرة؟

- احتفظي بها إذن، أيتها الزنجية الغشّاشة.

قلتُ إذ كنتُ متعبة والماء الذي ابتلعته أصابني بالغثيان:

- أستطيع الحصول على المزيد لو شئت.

قالت إن هذا ليس ما تسمعه. إنها تسمع أننا فقراء جميعاً مثل الزنوج. نأكل سمكاً مملّحاً ولا نقود لدينا لشراء السمك الطازج. وبيتكم قديم يرشح منه الماء وأنتِ تركضين حاملة قرعة يابسة لالتقاط قطرات الماء حين ينزل المطر. هنالك كثير من البيض في جامايكا، بيض حقيقيون يحصلون على نقود ذهبية، وهم لا ينظرون إلينا، لا أحد يراهم يقتربون منا. بيض الزمن الغابر ليسوا سوى زنوج بيض اليوم، والزنجي الأسود خير من الزنجي الأبيض.

دثرت نفسي في منشفتي الممزقة وجلست على صخرة أوليها ظهري وأنا أرتعش من البرد. لكن الشمس لم تبعث الدفء في جسمي. أردت أن أذهب إلى البيت. تلفتُ حولي فوجدت إن تيا قد ذهبت. وبقيت أبحث طويلاً عن

ملابسي قبل أن أصدق أنها أخذتها -ليس الملابس لأنها لم تكن تلبس أياً منها على الإطلاق- ولكن ثوبي المنشى والمكوي الذي كان نظيفاً في ذلك الصباح. كانت قد تركت لي ثوبها فاضطررتُ إلى ارتدائه أخيراً وسرت إلى البيت في الشمس الساطعة أحس بتوعك، وبأني أكرهها. خطّطتُ أن أستدير من خلف الدار إلى المطبخ لكني وقفت وأنا أمرّ قرب الإصطبلات لأحدّق في ثلاثة خيول غريبة، حينها رأتني أمي ونادت عليّ. كانت في الممر الصاعد مع سيدتين شابتين ورجل جنتلمان. ضيوف! سحبت نفسي لأصعد الدرجات بفتور. كنت أتوق إلى الضيوف ذات يوم، ولكن ذلك كان منذ سنين طويلة مضت.

فكرت في أن أشكالهم رائعة الجمال وملابسهم جميلة جداً هي الأخرى حتى أنني أطرقت مصوبة نظري إلى الدرجات الصخرية. عندما ضحكوا كانت ضحكة الجنتلمان أعلى من سواها، عدوتُ إلى الدار، إلى غرفة نومي. هناك وقفت وظهري إلى الباب، أحس بقلبي يملؤني. سمعتهم يتكلمون ثم سمعتهم يغادرون. خرجت من غرفتي فوجدت أمي تجلس على الأريكة الزرقاء. تطلعت لي بعض الوقت قبل أن تقول إن تصرفي كان غريباً جداً، وإن ثوبي نفسه كان أقذر من المعتاد.

- إنه ثوب تيا.

- ولكن لماذا ترتدين ثوب تيا؟ تيا؟ ومَن تيا هذه؟

كريستوفين، التي كانت تتسمع في المخزن جاءت في الحال، فطلبت منها أمي على الفور أن تجد لي ثوباً نظيفاً.

- ارمي هذا الشيء. احرقيه.

بعدها تشاجرتا.

قالت كريستوفين إنني لا أملك ثوباً نظيفاً:

- إن لديها ثوبين فقط، أحدهما للغسيل والثاني ترتديه. هل تريدين أن ينزل عليها ثوب نظيف من السماء؟ بعض الناس مجانين حقاً!

قالت أمي:

- بل لا بد أن لديها ثوباً أخر في مكان ما.

لكن كريستوفين قالت لها إن ذلك أمرٌ مخز. وثارت ثائرتها، ووصلت حد التحقير. ولا أحد يكترث.

مشت أمي حتى النافذة. («محاصرون ضائعون»، قال ظهرها النحيف المستقيم وشعرها الملفوف بعناية: «محاصرون ضائعون»).

- لديها ثوب قديم من الموسلين. جِدِيه!

بينما كانت كريستوفين تفرك وجهي وتشد ضفائري بشريط جديد أخبرتني بأن أولئك هم السكان الجدد لاستراحة نلسون. يسمّون أنفسهم لوتريل، ولكن سواء كانوا إنجليزاً أو من غير الإنجليز فأنهم لا يشبهون السيد لوتريل القديم.

- السيد لوتريل القديم يبصق في وجوههم لو رأى كيف ينظرون إليك. لقد دخلت المتاعب البيت اليوم، دخلت المتاعب.

عثرت على ثوب الموسلين القديم، وحين سحبته لأدخل جسدي فيه تمزّق لكنها لم تلاحظ.

ولّت العبودية! ليس عليها إلا أن تضحك.

- هؤلاء الجدد يملكون كتب القانون. الشيء نفسه. لديهم حكّام، لديهم ضريبة، لديهم سجون وسلاسل، لديهم مكائن لهرس أقدام الناس.

هؤلاء الجدد أسوأ من القدماء، إنهم أكثر براعة من القدماء، وهذا كل شيء.

لم تكلمني أمي أو تنظر نحوي طوال مساء ذلك اليوم، فكرتُ «إنها خجلة مني، ما قالته تيا صحيح.»

ذهبتُ إلى الفراش مبكرة ونمت على الفور. حلمتُ أنني أسير في الغابة. ليس وحدي. كان يرافقني شخص ما، يكرهني، غير منظور. أستطيع أن أسمع وقع خطوات ثقيلة تقترب مني أكثر فأكثر، وبالرغم من أنني أجاهد وأصرخ إلاّ أنني بقيت عاجزة عن الحركة. صحوت صارخة، كان الغطاء على الأرض وأمي مطرقة تنظر نحوي.

– هل كنتِ في كابوس؟

– نعم، حلم سيئ.

تنهّدت وغطتني.

– كان صراخك عالياً. يجب أن أذهب إلى بيير، لقد أفزعته.

استلقيتُ أفكر «أنا في أمان. ها هي ذي الزاوية عند باب غرفة النوم وها هو ذا الأثاث الأليف. هاهي ذي شجرة الحياة في الحديقة والحائط المخضر بالطحلب. حاجز حافات التلال والجبال العالية. حاجز البحر. أنا في أمان. أنا في أمان من الغرباء.»

كان قنديل غرفة بيير ما زال مضاءً عندما نمتُ من جديد. صحوتُ في اليوم التالي وأنا موقنة أن لا شيء سيكون على حاله. كل شيء سيتغير ويستمر في التغيّر.

لا أدري كيف حصلتْ على النقود لشراء الموسلين الأبيض والوردي. ياردات من الموسلين. ربما تكون قد باعت قرطها الأخير، لم يتبق لديها إلا

قرط واحد. رأيته ذات مرة في صندوق مجوهراتها؛ هو ومدّلاة في داخلها شذرة. ظلوا منهمكين منذ الصباح الباكر بإجراء الاصلاحات والخياطة، وقد تركتهم كذلك حين ذهبت إلى الفراش. خلال أسبوع صار لها ثوب جديد، ولي أيضاً.

أعارها آل لوتريل حصاناً وكانت تعتلي صهوته في وقت مبكر جداً ولا تعود إلا في وقت متأخر من اليوم التالي وقد أنهكها الرقص أو مجهود سفرة في ضوء القمر. كانت مرحة ضاحكة؛ أصغر من أي وقت آخر رأيتها فيه. حين تغيب يبدو البيت حزيناً. لذلك كنت أنا أتركه أيضاً وأبقى في الخارج حتى يحل الظلام. لم أكن أطيل البقاء في بركة الاستحمام أبداً، ولم ألتق تيا مطلقاً.

عمدتُ إلى طريق آخر يمرّ بمعامل السكّر القديمة والناعور المتوقف عن الدوران منذ سنين. وصلت إلى مناطق في كوليبري لم أرها من قبل، لا طريق فيها ولا ممر، لا أثر. فإذا جَرحَتْ حشائش الموس ساقيّ وذراعيّ فكرت «هي أرحم من الناس.» النمل الأسود أو الأحمر، الأعشاش الطويلة التي تكتظ بالنمل الأبيض، المطر ينقعني حتى الجلد، والأفعى التي رأيتها ذات مرة. كل ذلك أرحم من الناس.

أرحم. أرحم، أرحم من الناس.

أحسُّ وأنا أراقب الورد الأحمر والأصفر في الشمس دون أن أفكر بشيء كأن باباً ينفتح فأصير في مكان آخر، أصير شيئاً آخر. لا أكون نفسي أبداً.

***

صرتُ اشبينة العروس حين تزوجتْ أمي في المدينة الأسبانية. جعّدت كريستوفين شعري، وكان كل ما أرتديه جديداً وأنا أحمل باقة الورد، حتى صندلي. إلا أن عيونهم مرّت بعيداً عن وجهي الذي أثقلته الكراهية. لقد

سمعت كل ما قاله هؤلاء الناس ذوو الابتسامات الناعمة عنها بينما هي لاهية لا تصغي، ولم يخمّنوا أنني كنت مصغية. من مخبئي في الحديقة لأبتعد عنهم حين زاروا كوليبري سمعتهم:

- زواج عجيب سوف يورثه الندم. لماذا يضطر إليه رجل واسع الثراء؟ يستطيع أن يختار أية فتاة من الهند الغربية وربما الكثيرات من إنجلترا؟

- ولماذا ربما؟ إنه أمرٌ مؤكد.

قال الصوت الآخر.

- إذن لماذا يضطر للزواج من أرملة لا تملك بنساً واحداً؟ من أجل اسمها أم من أجل كوليبري هذا المكان الخرِب؟ هل تظنين أن مشاكل التحرير هي التي قتلت كوسوي العجوز؟ هراء، لقد بدأت الضيعة بالتدهور والانحدار قبل ذلك بسنوات. ظل يعاقر الخمر حتى الموت. وكان في أوقات كثيرة... حسناً! وماذا عن النساء؟ هي لم تفعل أي شيء لتوقفه عند حدّه بل كانت تشجّعه. الهدايا والابتسامات للأنذال في كل عيد ميلاد. أهي عادات قديمة؟ خيرٌ لبعض العادات القديمة أن تموت وتُدفن. سيضطر زوجها الجديد إلى إنفاق الكثير من البنسات قبل أن تصبح الدار صالحة للسكنى. إنها مثّقبة كالمنخل. وماذا عن الإصطبلات وموقف العربة المظلم كالزفت ومسكن الخدم والحيّة التي طولها ستة أقدام وقد رأيتها بأم عيني ملتفة في دورة الماء آخر مرة زرت بها المكان؟ عندها أصابني الذعر وصرخت فجاءني ذلك الرجل الرهيب الذي تؤويه وقد تضاعف حجمه من الضحك. أما عن الطفلين فالولد أبله مخفيّ عن الأنظار والعقول والفتاة تمضي، كما أرى، في الطريق نفسه؛ ذلك الانطباع العابس على وجهها.

قالت الأخرى:

- اوو، أنا أتفق معك ولكن أنيت امرأة جذابة. يا لها من راقصة! تذكرني بتلك الأغنية «خفيفة كالقطن المتفتح على نسمات الـ... كذا» أم هي نسمات الهواء؟ لقد نسيت.

***

نعم، يا لها من راقصة؛ في ليلة عودتهما إلى البيت من شهر العسل في ترينيداد رقصا على الممر الصاعد دون موسيقى. لا حاجة إلى الموسيقى حين ترقص. توقفا وأسندت ظهرها على ذراعه متطوّحة إلى الأسفل حتى لامس شعرها الأسود الصخور الحجرية، وظلت تنزل إلى الأسفل، إلى الأسفل لتنهض مرة أخرى كالومض وهي تضحك. لقد جعلت الأمر يبدو في غاية البساطة كأن كل واحد قادرٌ على أدائه. وقد قبّلها؛ قبلة طويلة. كنتُ موجودة حينئذ معهما لكنهما نسياني وسرعان ما توقفتُ عن التفكير فيهما. كنت أتذكر تلك المرأة وهي تقول «رقص! إنه لم يأتِ إلى الهند الغربية ليرقص، لقد جاء ليجمع المال كما يفعلون جميعاً. بعض الضِياع الكبيرة أصبحت رخيصة وخسارة سيئ الحظ هي دائماً مكسب الداهية. لا، الأمر كله غامض. من الواضح أن وجود ساحرة مارتينيكية في ملحقات الدار أمر مفيد.» كانت تقصد كريستوفين. قالتها للسخرية، لم تكن تعنيها، لكنها سرعان ما شاعت على ألسنة الناس وكانوا يعنون ما يقولون.

بينما كانت الإصلاحات تجري أثناء غيابهما في ترينيداد، مكثتُ أنا وبيير مع خالتي كورا في المدينة الأسبانية.

لم يكن السيد ميسون راضياً عن الخالة كورا، وهي مالكة عبيد سابقة نجت من البؤس وظلت تقاوم قدرها.

- لماذا لم تفعل شيئاً لتساعدكم؟

قلتُ له إن زوجها كان إنجليزياً لا يميل إلينا، فقال «هراء».

– ليس هراء. لقد عاشا في إنجلترا وكان يغضب إن كتبتْ لنا. كان يكره الهند الغربية. وعندما توفي مؤخراً جاءت إلى البيت، ما الذي كان بوسعها أن تفعل قبل ذلك؟ ليست ثرية.

– ذلك ما تقول هي. أنا لا أصدقها. امرأة طائشة. لو كنت محل أمك لرفضت سلوكها.

فكرتُ «لا أحد منكم يفهمنا.»

***

بدت كوليبري على حالها عندما رأيتها مرة أخرى رغم ما بدا عليها من نظافة وترتيب، لا أعشاب بين الصخور، لا ثقوب. لكنها لم تكن توحي بالإحساس نفسه. وجدت أن ساس قد عاد، وكنتُ سعيدة. قال أحدهم «هؤلاء يشمّون النقود.»

استخدم السيد ميسون خدماً جدد لم أشعر بميل لأي واحد منهم سوى ماني السائس. كلامهم عن كريستوفين هو الذي غيّر كوليبري، لا الإصلاحات أو الأثاث الجديد أو الوجوه الغريبة. كلامهم عن كريستوفين وسحر الأوبيا(*) هو الذي غيرّها.

كنت أعرف غرفتها جيداً؛ صور العائلة المقدسة والصلاة من أجل موت سعيد. كان في الغرفة لحاف مكسو بمفرش زاهي الألوان وخزانة مخلّعة لملابسها وكرسي هزاز قديم وهبته أمي لها ذات يوم. بالرغم من ذلك داهمني

---

* الأوبيا ضرب من السحر كان يمارسه الزنوج وبخاصة في جزر الهند الغربية البريطانية والأجزاء الجنوبية الشرقية من الولايات المتحدة الأمريكية.

فجأة وأنا أنتظرها في الغرفة ذات يوم خوفٌ شديد. الباب مفتوح على ضوء الشمس وقرب الإسطبلات ثمة شخص يصفّر، لكني كنت خائفة. كنت واثقة أن الغرفة تخفي (أهي خلف الخزانة السوداء القديمة؟) يداً جافة لرجل ميت، وريشاً أبيض لفرخ دجاج، وديكاً مذبوحاً يحتضر ببطء، ببطء، والدم يتساقط قطرة قطرة في إناء أحمر، بل خيّل إليّ أني قادرة على سماعه. لم يكلمني أحد عن الأوبيا مطلقاً ولكني كنت أعرف ما يمكن أن أجده لو تجرأت على النظر. بعدها دخلت كريستوفين مبتسمة وقد سرّتها رؤيتي. لم يحدث على الإطلاق ما يبعث القلق ونسيت أو قلت لنفسي إني نسيت.

لو علم السيد ميسون مبلغ خوفي لضحك دون شك، لكانت ضحكته أعلى حتى من الضحكة ألتي أطلقها حين أخبرته أمي بأنها ترغب في مغادرة كوليبري.

بدأ ذلك بعد ما مر على زواجهما أكثر من عام. كانا يرددان في الغالب الكلمات نفسها حتى صرت لا أصغي إلى جدالهما. أعلم أننا مكروهون، ولكن أن نذهب بعيداً... إنها المرة الوحيدة التي أجد فيها نفسي متفقة مع زوج أمي. ذلك أمر غير ممكن.

كان يقول مثلاً:

- لا بد أن يكون لديك سبب؟

وكانت تجيب:

- أرغب في التغيير.

أو:

- إن ذلك سيمكننا من زيارة ريتشارد.

(كان ريتشارد، أبن السيد ميسون من زواجه الأول، في المدرسة بباربادوس وقد غادر إلى إنجلترا بسرعة فلم نتعرف عليه جيداً).

- يمكن أن يتكفل أحد الوكلاء برعاية المكان في الوقت الحالي. الناس هنا يكرهوننا. أنا واثقة من أنهم يكرهونني.

قالت ذلك بصراحة تامة ذات يوم، عندها أطلق ضحكته تلك من القلب.

- أنيت، كوني عاقلة. لقد كنتِ أرملة مالك للعبيد وابنة مالك للعبيد وبقيت تعيشين هنا حوالى خمسة أعوام وحيدة مع طفلين عندما التقينا. عندها كانت الأشياء في أسوأ حال. ولكنك لم تتعرضي لأية مضايقة أو أي أذى.

قالت:

- كيف عرفت أنني لم أتعرض لأذى.

وأردفت تقول:

- كنا في فقر مدقع عندها، شيء يبعث على الضحك. لكننا لم نعد فقراء الآن. أنت لست رجلاً فقيراً. هل تعتقد أنهم لا يعرفون كل شيء عن ضيعتك في ترينيداد؟ وأملاك انتيجوا؟ إنهم يواصلون الكلام عنا دون توقف، يختلقون عنك القصص وعني الأكاذيب. بل هم يحاولون حتى معرفة ما نأكله كل يوم.

- فضوليون، وهو أمر طبيعي تماماً. أنيت، لقد عشت فترة طويلة لوحدك. أنت تتخيلين عداوات لا وجود لها. متطرفة دائماً معهم وضدهم. ألم تطيري بوجهي مثل قطة صغيرة متوحشة عندما قلت عبيد. ليسوا عبيداً، وليسوا حتى زنوجاً؛ لنقل إنهم أُناس سود.

قالت:

- أنت لا تحب طيبتهم ولا تراها. لن تؤمن بالطرف الآخر.

قال السيد ميسون:

- إنهم كسالى إلى الحد الذي يجعلهم غير خطرين. أعرف ذلك.

- بل هم أكثر حيوية منك، كسالى أم غير ذلك، ويمكن أن يصبحوا في غاية الخطر والقسوة لأسباب لن تدركها.

كان السيد ميسون يقول دائماً:

- لا، لا أفهم. لا أفهم على الإطلاق.

ولكنها تعاود الحديث عن مغادرة المكان من جديد. بإلحاح ويغضب.

***

في طريق عودتنا إلى البيت مساء ذلك اليوم عرّج السيد ميسون على الأكواخ الخالية. قال:

- يبدو أنهم ذهبوا جميعاً إلى إحدى حفلات الرقص. الشباب والشيوخ. يا للمكان، كم يبدو مهجوراً!

- لو كان ثمة رقص لسمعنا أصوات الطبول.

راودني الأمل في أن يركب فرسه بسرعة، لكنه مكث قرب الأكواخ ليراقب أفول الشمس. حين غادرنا خليج برتراند أخيراً كانت السماء والبحر تشتعلان. رأيت على مسافة بعيدة ظلّ دارنا عالياً فوق أساسه الصخري. شاع في الجو رائحة السرخس وماء النهر؛ شعرت بالأمان مرة أخرى كما لو كنت أحد الأتقياء الصالحين. (قال جودفري إننا لسنا من الصالحين، وأخبرني

ذات يوم وهو في حالة سكر أننا ملعونون جميعاً ولا فائدة من الصلاة.)

قال السيد ميسون:

- لقد اختاروا ليلة حارة جداً لرقصهم.

أتت الخالة كورا إلى الباحة:

- أي رقص؟ أين؟

- هنالك احتفال في الحي، فالأكواخ مهجورة. ربما كان عرساً؟

قلت:

- ليس عرساً. لا يوجد عرس على الإطلاق.

عبس في وجهي، لكن الخالة كورا ابتسمت.

عندما دخلا البيت أسندتُ ذراعيّ على سياج السلم وفكرت بأنني لن أحب هذا الرجل حباً شديداً أبداً. ما زلت أسمّيه داخل رأسي «السيد ميسون». قلت ذات ليلة «تصبح على خير بابا الأبيض» فلم ينزعج، بل ضحك. لكن حالنا، ولاعتبارات معينة، كانت أفضل قبل أن يأتي بالرغم من أنه أنقذنا من الفقر والتعاسة. «وفي الوقت المناسب أيضاً». لم يكرهنا السود إلى هذا الحد عندما كنا فقراء. كنا بيضاً ولكننا لم نهرب وسرعان ما سنموت لأننا لم نعد نملك نقوداً. ما الذي يثير كراهيتهم في ذلك؟

الآن بدأت الكراهية مرة أخرى، وأسوأ من ذي قبل. أمي تعلم لكنها لم تستطع أن تقنعه. وددتُ لو كنتُ قادرة على إخباره بأن الحال هنا ليس كما يتوقعه الإنجليز على الإطلاق. وددتُ...

أستطيع أن أسمع كلامهم بينها الخالة كورا تضحك. كنت سعيدة لبقائها معنا. أستطيع أن أسمع الخيزران يرتعش ويصرّ رغم سكون الريح.

الجو حار وساكن وجاف منذ عدة أيام. السماء فقدت ألوانها والضوء الأزرق لا يدوم طويلاً. قالت كريستوفين إن السلّم ليس مكاناً جيداً عندما يقترب الليل. حين دخلتُ البيت سمعت أمي تتحدث بصوت مستثار:

- حسناً جداً، بما أنك ترفض أن تأخذ ذلك بنظر الاعتبار فأنا سوف آخذ بيير معي وأذهب. لن تعارض في هذا كما آمل؟

- أنت على صواب تماماً أنيت.

قالت الخالة كورا، وقد أثار ذلك عجبي فهي لا تتدخل إلا نادراً عندما يتجادلان. بدت الدهشة على السيد ميسون هو الآخر، كان شديد السخط. قال:

- إنك تتحدثين بوحشية، وأنتِ بعيدة عن الصواب. تستطيعين الذهاب طبعاً إن كنتِ ترغبين في التغيير. أعدك بذلك.

قالت:

- لقد وعدتَ بذلك من قبل ولكنك لا تفي بوعودك.

تنهّد:

- أنا مرتاح جداً هنا، ومع ذلك سنرتب شيئاً. في القريب العاجل.

قالت أمي:

- لن أبقى في كوليبري بعد اليوم. المكان ليس بآمن. إن فيه خطراً على بيير.

أومأت الخالة كورا موافقة.

كان الوقت متأخراً فأكلت معهم بدلاً من الأكل لوحدي كالعادة. مورا، إحدى الخادمات الجديدات، كانت تقف قرب المائدة تنتظر تغيير الصحون.

صرنا نأكل الآن طعاماً إنجليزياً؛ لحم بقر وعجل، فطائر ومحشيات.

كنت سعيدة في الجلوس كفتاة إنجليزية، لكني افتقدت مع ذلك الطعم الخاص لطبخ كريستوفين.

تكلم زوج أمي عن خطة لاستيراد العمال -واسماهم كوليين- من الهند الغربية. عندما خرجت مورا قالت الخالة كورا:

- لم أكن لأناقش ذلك لو كنت مكانك. إن مورا تصغي.

- لكن الناس هنا لا يريدون العمل. لا يرغبون فيه. انظري إلى هذا المكان، إن حاله يبعث الأسى في القلب.

قالت:

- لقد ذاقت القلوب الأسى من قبل. كن واثقاً من ذلك. أعتقد أنكم جميعاً تعرفون ما تفعلون.

- هل تقصدين...

- أنا لم لأقصد شيئاً عدا قناعتي بأن من الحكمة أن لا تُطلع تلك المرأة على خططك... بدواعي الضرورة والشفقة دون شك. أنا لا أثق بها.

- غريب؛ لقد عشتِ هنا معظم حياتك ثم لا تعرفين شيئاً عن الناس. هؤلاء أطفال لا يؤذون ذبابة.

قالت الخالة كورا:

- لسوء الحظ الأطفال يؤذون الذباب بالفعل.

دخلت مورا مرة أخرى، حزينة كما تبدو دائماً، بالرغم من أنها ابتسمت ذات مرة وهي تكلمني عن الجحيم. قالت لي الكل يذهبون إلى الجحيم وإن

عليّ لكي أنجو الانتماء إلى طائفتها، وحتى في هذه الحالة فإن نجاتي لن تكون مضمونة. كان لها ذراعان نحيفتان وكفان وقدمان ضخام، وكان المنديل الذي تلف به رأسها أبيض دائماً. يخلو من الخطوط والألوان المرحة تماماً. لذلك نظرت بعيداً عنها إلى صورتي المفضلة «ابنة الطحان» وهي تصور فتاة إنجليزية جذابة لها شعر بتجعيدات بنيّة وعينان زرقاوان، أما ثوبها فينزلق ليكشف عن كتفيها. بعدها نظرت عبر مفرش المائدة الأبيض والمزهرية ذات الورد الأصفر إلى السيد ميسون؛ إنه شديد الثقة بنفسه، إنجليزي دون أدنى شك. ثم إلى أمي؛ ليست إنجليزية دون أدنى شك ولكنها ليست زنجية بيضاء أيضاً. ليست أمي. لم تكن كذلك أبداً، ولا يمكن أن تكون. نعم، فكرت أنها كان يمكن أن تموت لو لم تقابله. ولأول مرة شعرت نحوه بالامتنان والحب. توجد أكثر من طريقة يجعل المرء بها نفسه سعيداً، ربما أفضلها أن يعيش في سلام ورضا وحماية كما أشعر الآن، في سلام لسنوات وسنوات، بعدها ربما سينجو برغم كل ما تقول مورا. (عندما سألتُ كريستوفين ماذا يحدث عندما تموتين قالت «أراك ترغبين في معرفة الكثير»). تذكرت أن أقبّل زوج أمي مع تحية المساء. كانت خالتي قد قالت لي:

- يؤذيه كثيراً أن لا تقبليه.

فجادلتها قائلة:

- لا يبدو عليه التأثر.

قالت:

- خطأ فادح أن نحكم على الأشياء من مظهرها.

ذهبتُ إلى غرفة بيير المقابلة لغرفتي، آخر غرفة في البيت. تطل نافذتها على أشجار خيزران تكاد تلمسها حين تمدّ يدك. وهو لا يزال في المهد، يطول

نومه أكثر فأكثر طوال الوقت تقريباً. كان نحيفاً إلى حد يجعلني قادرة على رفعه بسهولة. وقد وعد السيد ميسون أن يأخذه إلى إنجلترا فيما بعد، هناك يمكن أن يشفى ويصبح مثل بقية الناس. فكرت وأنا أقبله «كم ستفرح حين تصير مثل بقية الناس؟ كم ستفرح حين تصير تماماً مثل بقية الناس؟». بدا سعيداً في نومه. أما ذلك فسيأتي في ما بعد. في ما بعد. نم الآن. في تلك اللحظة سمعت الخيزران يصرّ مرة أخرى وسمعت صوتاً كالهمس. أجبرت نفسي على النظر من النافذة. هناك رأيت البدر لكني لم أرَ أحداً، لا شيء إلا الظلال.

تركت ضوءاً على الكرسي قرب فراشي وانتظرت كريستوفين، فأنا أحب أن تكون آخر من أرى. لكنها لم تأت، وبينما الشمعة تذوي كان الإحساس بالأمان يغادرني. تمنيت لو أن لديّ كلباً كبيراً يتمدد قرب فراشي ويحميني، تمنيت لو أنني لم أسمع أية ضوضاء في أجمة الخيزران، لو أنني صغيرة جداً من جديد إذن لوثقت بعصاي. لم تكن عصا، بل عموداً رفيعاً من الخشب ثُبّت في طرفه مسماران بارزان إلى الخارج، ربما كان لوحاً سقط من إحدى اللافتات. كنت قد التقطته بعد أن قتلوا فرسنا بوقت قصير وظننت أني أستطيع القتال به، وإذا ساءت الأمور تماماً سأقاتل إلى النهاية برغم علمي أن خير المقاتلين يموتون، وهذا كلام آخر. أنتزعت كريستوفين المسمارين من اللوح إلا أنها سمحت لي بالاحتفاظ به. وقد بدأ تعلقي به يزداد، صرت أعتقد أن أحداً لا يستطيع أن يصيبني بأذى حين يكون قريباً مني، أن فقدانه سيكون تعاسة كبرى. كل ذلك حدث منذ زمن طويل عندما كنت لا أزال صغيرة وواثقة بأن كل شيء حي، ليس النهر أو المطر فحسب، بل الكراسي والمرايا والأكواب والصحون الصغيرة وكل شيء.

استيقظتُ وكان الوقت لا يزال ليلاً. أمي موجودة قربي. قالت:

– انهضي والبسي وتعالي إلى الطابق الأسفل بسرعة.

كانت ترتدي ملابسها الكاملة ولكنها لم تكن تجمع شعرها إلى الأعلى. لاحظت أن إحدى ضفائرها محلولة.

- بسرعة.

قالت مرة أخرى ثم ذهبت إلى غرفة بيير المقابلة. سمعتها تتكلم مع مورا، وسمعت مورا تجيبها. بقيتُ مستلقية شبه نائمة أتطلع إلى الشمعة المضاءة على الدولاب حتى سمعت جلبة، كما لو أن كرسياً قد أنقلب في الغرفة الصغيرة. عندها نهضت ولبست.

***

كان دارنا مقاماً على مستويات مختلفة من الأرض. ثمة ثلاث درجات تنزل من غرفة نومي وغرفة نوم بيير إلى صالة الطعام، ثم ثلاث درجات من صالة الطعام إلى بقية الدار وهو ما ندعوه «الطابق الأسفل». كانت أبواب غرفة الطعام القابلة للطي مفتوحة، واستطعت أن أرى أن غرفة الاستقبال الكبيرة تغص بالناس. السيد ميسون، أمي، كريستوفين، مانيه، ساس. الخالة كورا تجلس على الأريكة الزرقاء في الزاوية وهي ترتدي ثوباً حريرياً أسود وعقصات شعرها مرتّبة بعناية. فكرت أن مظهرها يوحي بالغطرسة القصوى. لكن جودفري لم يكن موجوداً ولا مورا أو الطبّاخ أو أي من الآخرين.

حين دخلت كان زوج أمي يقول:

- لا داعي للقلق. حفنة من الزنوج السكارى.

ثم فتح الباب المؤدي إلى السلم وخطا إلى الخارج. صاح:

- ما هذا كله؟ ماذا تريدون؟

هبّت ضوضاء رهيبة كعواء الحيوانات، بل أسوأ. وسمعنا حجارة تنهال على السلم. عندما عاد مرة أخرى بدا شاحباً ولكنه حاول أن يبتسم وهو يغلق الباب ويحكم اقفالها.

- عددهم أكثر مما تصورت، وفي مزاج مقرف أيضاً: سيندمون في الصباح. أستطيع أن أراهم وهم يأتون غداً حاملين هدايا من شراب تمر الهند وحلويات الزنجبيل.

قالت الخالة كورا:

- غداً سيكون الوقت قد تأخر كثيراً، ولن يفيد تقديم حلويات الزنجبيل أو أي شيء آخر.

لم تكن أمي تصغي لأي منهما. قالت:

- بيير نائم ومعه مورا، فكرت في أن من الأفضل أن أتركه في غرفته بعيداً عن هذه الضجة الرهيبة. لا أدري، ربما كان ذلك أفضل.

كانت تعصر كفيها مع بعضهما، سقطت حلقة زواجها وتدحرجت إلى زاوية قرب الدرجات. انحنى زوج أمي ومانيه معاً لالتقاطها إلا أن مانيه أنتصب قائلاً:

- اوه، يا ربي... لقد انقضّوا من الخلف وأشعلوا النار في القسم الخلفي من البيت.

أشار إلى غرفة نومي التي أغلقتها خلفي فرأينا الدخان يتدفق من أسفل الباب. لم أر كيف تحركت أمي، كانت سريعة جداً. فتحت باب غرفتي ثم غابت عن نظري مرة أخرى، لا شيء إلا الدخان. ركض مانيه خلفها وكذلك السيد ميسون لكنه أقل عجلة. وشعرت بذراع الخالة كورا يطوقني. قالت:

- لا تخافي، أنتِ في أمان تام. نحن جميعاً في أمان تام.

ولدقيقة أغمضت عيني وأرحت رأسي على كتفها. أتذكر أن رائحة عطر الونيلية كانت تفوح منها، أعقبتها رائحة أخرى لشعر محترق فنظرت لأرى أمي في الغرفة تحمل بيير. كان شعرها المحلول هو الذي أحترق وتلك رائحته.

فكرت في أن بيير ميت. بدا ميتاً. لونه أبيض لا يندّ عنه أي صوت، رأسه يتدلى إلى الخلف على ذراعها كأنه خال من الحياة تماماً وعيناه مقلوبتان إلى الأعلى لا يظهر سوى بياضهما. قال زوج أمي:

- أنيت، هل أصبتِ بأذى، يداك...

لكنها لم تكلف نفسها حتى النظر إليه. قالت للخالة كورا:

- كان مهده مشتعلاً. الغرفة الصغيرة مشتعلة ومورا غير موجودة. لقد ذهبت. لم تكن موجودة هناك.

قالت الخالة كورا:

- ذلك لا يثير عجبي إطلاقاً.

وضعتْ بيير على الأريكة ثم انحنت فوقه، بعدها رفعت حافة ثوبها لتخطو خارج تنورتها البيضاء وبدأت تمزقها أشرطة.

- لقد تَركتْه، هربتْ، تركته وحده ليموت.

قالت أمي بصوت ظل هامساً، إلا أنه أصبح مرعباً حين بدأت تصرخ موبخة السيد ميسون: أحمق، غبي، قاس.

قالت:

- لقد قلت لك، قلت لك إن هذا ما يمكن أن يحدث مرات ومرات...

تكسّر صوتها ولكنها ظلت تصرخ:

– وأنت لا تصغي، تسخر مني، أنت أيها المنافق المكشر. حرام حتى بقاؤك على قيد الحياة. أنت تعرف كل شيء، أليس كذلك؟ لماذا لا تخرج إذن وتطلب منهم السماح لك بالذهاب؟ قل لهم إنك بريء. قل لهم إنك كنت تثق بهم دائماً.

كانت صدمتي شديدة إلى حد جعل كل شيء يبدو مشوشاً أمامي. ثم حدث بسرعة؛ رأيت مانيه وساس يترنحان وهما يحملان جرتين من الفخار كانتا في المخزن. دلقا الماء في غرفة النوم فتشكلت بركة سوداء على الأرض يتصاعد منها الدخان. بعدها عادت كريستوفين راكضة إلى غرفة نوم أمي لتأتي بالإبريق الموجود هناك وتكلمت مع خالتي. قالت خالتي:

– يبدو أنهم قد أشعلوا النار في الجانب الآخر من الدار وتسلقوا الشجرة في الخارج. سيحترق المكان مثل كوم خشب ونحن عاجزون عن عمل شيء. كلما أسرعنا إلى الخارج كان أفضل.

قال مانيه للصبي:

– هل أنت خائف؟

هز ساس رأسه. قال مانيه:

– إذن تعال. أبتعد عن طريقي.

قال وهو يدفع السيد ميسون جانباً. ثمة درجات خشبية ضيقة تؤدي من المخزن إلى الأبنية الخارجية؛ المطبخ وغرف الخدم والإسطبلات. اتجها إلى هناك. قالت الخالة كورا لكريستوفين:

– خذي الطفل وتعالي.

كان السلّم ساخناً لاهباً هو الآخر، وقد هدرت أصواتهم عالية حين

خرجنا، بعدها سمعنا هديراً آخر خلفنا. لم أكن قد رأيت أية نار، مجرد دخان وشرر، أما الآن فقد رأيت ألسنة طويلة من النار تنقذف إلى السماء وقد ألتقط الخيزران النار. إلى جواره بعض أشجار السرخس خضراء ورطبة، وقد لاحظت أن إحداها تحترق وتنفث الدخان أيضاً.

- تعالي بسرعة.

قالت الخالة كورا وسبقتني تقودني من يدي. تبعتنا كريستوفين حاملة بير، وقد ساد الصمت تماماً بينما نحن ننزل درجات السلم. لكني عندما بحثت عن أمي وجدت السيد ميسون، وقد احمر وجهه من الحرارة، يجرها جراً وهي تجاهد متشبثة بالبقاء. سمعته يقول:

- ذلك مستحيل، الوقت متأخر جداً الآن.

قالت الخالة كورا:

- أتريد علبة مجوهراتها؟

صاح السيد ميسون بصوت عال:

- علبة مجوهرات؟ ما تريده ليس معقولاً كعلبة المجوهرات. إنها تريد أن تعود من أجل ببغائها اللعين. لن أسمح بذلك.

لم تجبه، اكتفتْ بمقاومته بصمت متلوية كالقطة مكشرة عن أسنانها.

كان ببغاؤنا يدعى «كوكو»، ببغاء أخضر. لم يكن يجيد الكلام إجادة تامة، يقول مثلاً «مَن هناك؟ من هناك؟» ويجيب نفسه: «إنه كوكو، إنه كوكو». بعد أن قص السيد ميسون جناحيه ساء مزاجه تماماً، وبالرغم من أنه ظل يستقر بهدوء على كتف أمي فإنه كان يثب بحركة مفاجئة على أي شخص يقترب منها وينقره في قدمه.

قالت الخالة كورا:

- أنيت، إنهم يضحكون منك، لا تسمحي لهم بأن يضحكوا منك.

عندها كفت عن المقاومة فجاء بها خلفنا يسندها ويجرجرها وهو يطلق اللعنات بصوت عال.

ظل الحشد يلزم الهدوء. عددهم كبير إلى حد سدّ عليّ رؤية الأعشاب والأشجار. لابد أن بينهم الكثير من سكان الخليج، لكني لم أميّز منهم أحداً. جميعهم متشابهون، الوجه ذاته يتكرر مرات ومرات. عيون تقدح وأفواه شبه مفتوحة مستعدة للصراخ. كنا نعبر صخرة ركوب الخيل عندما رأوا مانيه يدور بالعربة حول المنعطف. تبعه ساس يركب حصاناً ويقود آخر. على الحصان الذي يتبعه ثمة سرج مخصص للسيدات.

صرخ أحدهم:

- ولكن... أنظروا إلى الإنجليزي الأسود! أنظروا إلى الزنوج البيض.

بعدها بدأوا جميعاً يصرخون:

- انظروا الزنوج البيض! انظروا الزنوج البيض الملاعين!

مرت حجارة على مقربة من رأس مانيه وأخطأته فلعنهم ووجدوا أنفسهم مضطرين إلى إفساح الطريق أمام الجياد الواثبة الخائفة. قال السيد ميسون:

- هيا برب السماء، اصعدوا إلى العربة، امتطوا الجياد.

لكننا عجزنا عن الحركة لأنهم بدأوا يضيّقون حلقة الحصار حولنا. بعضهم كان يضحك ويلوّح بالعصي والبعض في المؤخرة يحمل المشاعل المتوهجة كالنهار. شدّت الخالة كورا على يدي بقوة وتحركت شفتاها لكني

لم أسمع شيئاً وسط الضجة. وكنت خائفة لثقتي بأن الضاحكين يمكن أن يكونوا الأسوأ. أغمضت عيني وانتظرت. توقف السيد ميسون عن الوعيد وبدأ يصلي بصوت عال ورع، وقد أنهى صلاته بـ «ليكن الرب العظيم في عوننا». الرب الغامض بالفعل الذي لم يبدِ أية علامة حين أحرقوا بيير وهو نائم، لا صفعة من رعد ولا ومضة من برق، الرب الغامض سمع السيد ميسون في تلك اللحظة واستجاب له. لقد توقفت الصرخات.

فتحت عينيّ فوجدتهم جميعاً يتطلعون إلى الأعلى ويشيرون إلى كوكو على درابزين الممر الصاعد وقد أشتعل جناحاه. حاول أن يطير على ارتفاع خفيض لكن جناحيه المحترقين خذلاه فسقط مطلقاً زعقات مذعورة وهو يشتعل كله.

بدأتُ أبكي. قالت الخالة كورا:

- لا تنظري. لا تنظري.

انحنت وطوقتني بذراعيها فأخفيت وجهي ولكني استطعت أن استشعر أنهم ليسوا قريبين منا كثيراً. سمعت شخصاً يقول شيئاً ما عن سوء الطالع وتذكرت أن من النحس قتل ببغاء أو حتى رؤية ببغاء يموت. بعدها بدأوا يغادرون المكان بسرعة وبصمت، أما الذين مكثوا فقد انسحبوا إلى الجوانب يراقبوننا ونحن نمشي بتثاقل في أعقاب بعضنا البعض. لقد كفوا عن الضحك.

قال السيد ميسون:

- اصعدوا إلى العربة، اصعدوا إلى العربة. بسرعة!

صعد هو أولاً وكان يمسك بذراع أمي ثم كريستوفين حاملة بيير وأخيراً الخالة كورا ويدي لا تزال في يدها. لم ينظر أي منا إلى الخلف.

أوقف مانيه الخيول عند منعطف الطريق الصخري وبينما كنا نقترب سمعناه يصرخ:

- ما أنتم... هه؟ حيوانات متوحشة؟

كان يخاطب مجموعة من الرجال وبعض النساء المتجمعين حول العربة، وقد أمسك رجل ملوّن يحمل مدية ضخمة باللجام. لم أر ساس أو الحصانين الآخرين. قال السيد ميسون:

- اصعد. لا تهتم به، اصعد.

قال الرجل صاحب المدية: كلا، ستذهبون إلى الشرطة إن تركناكم تلفقوا مجموعة من الأكاذيب اللعينة. طلبت منه امرأة أن يدعنا نمر، فما حدث كله كان قضاء وقدراً ولديهم الكثير من الأدلة.

- مورا ستشهد لنا.

قال الرجل:

- سدّي فمك! أنت تسحقين ذات الأربع والأربعين، تسحقينها ثم تتركين جزءاً صغيراً ما يلبث أن ينمو من جديد. ماذا تتوقعين؟ أيصدقك الشرطة أم يصدقون الزنوج البيض؟

حدجه السيد ميسون بنظرة حادة. لم يبد عليه الخوف لكنه صُعق وظل عاجزاً عن الكلام. أخذ مانيه سوط العربة لكن أحد الرجال الأكثر سواداً انتزعه من يده، كسره على ركبته ورماه جانباً.

- اهرب أيها الإنجليزي الأسود، مثلما يهرب الصبيان. اختف في الأجمات فهذا أفضل لك.

كانت الخالة كورا هي التي تقدمت وقالت:

- لقد أصيب الصبي الصغير إصابات خطرة، سيموت إن لم نحصل له على مساعدة.

قال الرجل:

- إذن فالأسود والأبيض يحترقان على حد سواء، هه؟

قالت:

- نعم، الآن وفي المستقبل كما ستكتشف بنفسك عما قريب.

ترك اللجام واندفع بوجهه يقترب منها. قال إنه سيقذفها في النار إن جلبت عليه سوء الطالع، ودعاها بالبيضاء المتقلبة الهرمة. لكنها لم تتحرك بوصة واحدة، نظرت في عينيه مباشرة وهددته بالنار الأبدية بصوت هادئ.

- ولتحرم من كل قطرة ماء مقدس يمكن أن تبرّد لسانك المحترق.

لعنها مرة أخرى لكنه انسحب بعيداً إلى الخلف.

قال السيد ميسون:

- أصعدوا الآن! أنتِ يا كريستوفين اصعدي مع الطفل.

قال لأمي:

- والآن أنت.

ولكنها كانت قد استدارت لتنظر إلى الدار. حين وضع يده على ذراعها صرخت. قالت إحدى النساء إنها جاءت لترى ما يحدث وحسب. امرأة أخرى بدأت تبكي. قال الرجل صاحب السيف الثقيل:

- تبكين من أجلها... هل بكت ولو لمرة واحدة من أجلك؟ خبّريني.

لكني التفتّ حينها أنا الأخرى. كانت الدار تشتعل وبدت السماء الحمراء

المصفرّة كما هي عند الغروب. أيقنت أني لن أرى كوليبري مرة أخرى. لن يبقى شيء، السراخس الذهبية والنحاسية والسحلبيات وليلكات الزنجبيل والزهور والكراسي الهزازة والأريكة الزرقاء، الياسمين وصريمة الجدي وصورة ابنة الطحان. حين ينتهون لن تبقى إلاّ الحيطان المسودّة وصخرة ركوب الخيل. تلك تبقى دائماً. لا يمكن أن يسرقها أو يحرقها أحد.

بعدها رأيت في مكان ليس بالبعيد تيا وأمها فركضت نحوها، إنها كل ما تبقى من حياتي الماضية. لقد أكلنا لقمة واحدة ونمنا جنباً إلى جنب واغتسلنا في النهر نفسه. فكرت وأنا أعدو في أنني سأعيش مع تيا وأكون مثلها. لن أترك كوليبري. لن أذهب. لا. حين اقتربت منها رأيت حجراً مثلّماً في يدها ولكني لم أرها وهي تقذفه، بل ولم أشعر به. شعرت فقط بشيء رطب يسيل على وجهي. نظرت إليها فرأيت وجهها يتجمد وهي تنخرط في البكاء. حدقنا في بعضنا البعض، الدم على وجهي والدموع على وجهها. شعرت وكأني أرى نفسي، أراها في مرآة.

***

قلتُ:

– عندما استيقظت رأيت ضفيرتي مشدودة بشريط أحمر في الدولاب. تصورتها أفعى.

قالت الخالة كورا:

– كنا مجبرين على قصّ شعرك. كنت مريضة جداً يا عزيزتي. لكنك في أمان معي الآن. لقد نجونا جميعاً كما قلت لك من قبل. مع ذلك يجب أن تلزمي الفراش. لماذا تتجولين في الغرفة؟ شعرك سينمو من جديد. سيصير أطول وأكثف.

قلت:

- ولكن أغمق.

- ولم لا يكون أغمق؟

رفعتني إلى الأعلى؛ كنت سعيدة وأنا أشعر بالحشية الناعمة وسعيدة لأن غطاء بارداً يدثرني.

- حان موعد تناولك نقيع النشاء.

قالت وخرجت. بعد أن شربتُ أخذتْ مني الكوب ووقفت تنظر نحوي مطرقة.

- نهضت من فراشي لأني أردت أن أعرف أين أنا.

قالت باهتمام:

- وقد عرفتِ... أليس كذلك؟

- طبعاً. ولكن كيف وصلتُ إلى بيتك؟

- لقد كان آل لوتريل في غاية الطيبة. ما أن وصل مانيه إلى استراحة نلسون حتى أرسلوا معه أرجوحة شبكية وأربعة رجال. وبالرغم من ذلك تعرضتِ لهزات كثيرة. لكنهم بذلوا قصارى جهدهم. السيد لوتريل الصغير ركب إلى جانبك طوال الطريق. أليس ذلك سلوكاً ينطق بالرحمة؟

قلت:

- نعم.

كانت تبدو نحيفة وهرمة، يخلو ترتيب شعرها من أية جاذبية مما جعلني أغمض عيني غير راغبة في رؤيتها.

- مات بيير... أليس كذلك؟

قالت:

- مات في الطريق، المسكين الصغير.

فكرتُ «بل مات قبل ذلك». ولكني بلغت من الأعياء حداً جعلني عاجزة عن الكلام.

- أمك في المدينة. ترتاح. تستعيد صحتها. سترينها في وقت قريب.

قلت:

- لا أعرف سبب ذهابها إلى مكان بعيد؟

- لقد بقيتِ مريضة نحو ستة أسابيع. لم تعي أي شيء.

ما فائدة أن أخبرها بأني كنت يقظة قبلها وسمعت أمي تصرخ «مَن هناك؟» ثم «لا تلمسني. سأقتلك إن لمستني. جبان. منافق. سأقتلك.» وبأني وضعت يديّ على أذنيّ إذ كانت صرخاتها عالية جداً تصك الآذان. نمت وعندما استيقظت وجدت كل شيء هادئاً.

لا تزال الخالة كورا إلى جواري على الفراش تتطلع نحوي. قلتُ:

- رأسي ملفوف بالضمادات. إنه ساخن جداً. هل ستبقى علامة على جبيني؟

ابتسمت للمرة الأولى وقالت:

- لا، لا. إنه يتماثل للشفاء بسرعة. لن يفسد جمالك يوم الزفاف.

انحنت وقبلتني:

- هل تحتاجين شيئاً؟ شراباً بارداً؟

- لا، لا ليس شراباً. غني لي. أحب ذلك.

بدأت تغني بنبرات مرتعشة:

«كل ليلة عند الثامنة والنصف

تعلو دقات... تتناهى»

- ليس هذه. هذه لا أحبها. غني لي «قبل إطلاق سراحي». جلستْ إلى جانبي وغنت بنعومة ساحرة «قبل إطلاق سراحي». سمعت لغاية «الأسى في القلب يدفعه إلى...» لم أسمع النهاية لكنني سمعت قبل أن انام «الأسى في القلب يدفعه إلى...»

***

كنت أستعد لزيارة أمي. بقيت مصرّة على أن تذهب كريستوفين معي دون غيرها، ولأني لم أكن في صحة تامة فقد استسلموا الرغبتي. أتذكر المشاعر الرتيبة التي تملكتني ونحن نقصدها فأنا لم أكن أتوقع رؤيتها. كانت جزءاً من كوليبري الذي ذهب، وقد ذهبتْ معه؛ كنت واثقة من ذلك. لكني، حين وصلنا البيت الصغير الجميل المرّتب الذي تعيش فيه الآن (هكذا قالوا)، قفزتُ من العربة وعدوتُ بأقصى سرعة أقطع المرج الأخضر. كانت إحدى أبواب الشرفة مفتوحة. دخلتُ دون أن أدق الباب وحدقت في الموجودين في الغرفة. رجل ملّون، امرأة ملّونة ثم امرأة بيضاء تجلس مطرقة الرأس إلى حد منعني من رؤية وجهها. لكني ميّزت شعرها، إحدى الضفيرتين أقصر بكثير من الأخرى. وثوبها. وضعت ذراعي حولها وقبّلتها، لكنها قبضت عليّ بشدة حتى ضاقت أنفاسي وفكرت «ليست هي» ثم استدركتُ «لا بد أنها هي». ندّت منها نظرة نحو الباب، ثم نحوي، ثم نحو الباب مرة أخرى. لم أستطع أن أقول لها «إنه مات»، لذلك هززت رأسي. قلت:

- لكنني هنا. أنا موجودة.

قالت بهدوء: لا.

بعدها بصوت عال جداً: لا. لا. لا.

ثم دفعتني بقوة بعيداً عنها. سقطتُ على الحاجز وشعرت بإصابة مؤلمة. أمسك الرجل والمرأة بذراعيها وكانت كريستوفين موجودة. قالت لها أمي:

- لماذا أتيت بالطفلة إلى هنا؟ لتخلقي المشاكل؟ مشاكل، مشاكل، مشاكل. لدينا ما يكفي من المشاكل بدون ذلك.

في طريق العودة إلى منزل الخالة كورا لم نتبادل كلمة واحدة.

يوم أصبح لزاماً عليّ أن أذهب إلى الدير تشبثت بالخالة كورا كما يمكن أن يتشبث بالحياة أحد عشاقها. أخيراً بدأ صبرها ينفد فأجبرتُ نفسي على الابتعاد عنها واجتياز الممر لأنزل الدرجات المؤدية إلى الشارع. وكما توقعت وجدتهم بانتظاري تحت شجرة ساندبوكس. اثنان: فتى وفتاة. الفتى في حوالى الرابعة عشرة أطول وأضخم من عمره، له بشرة بيضاء، بيضاء قبيحة رتيبة يغطيها النمش وفمٌ مثل أفواه الزنوج وعينان ضيقتان كشظيتين من زجاج أخضر، كأنهما عينا سمكة ميتة. والأسوأ من ذلك والأفظع أن شعره كان مجعداً، شعر زنجي، لكن لونه أحمر ناصع. حاجباه ورموشه حُمْر أيضاً. أما الفتاة فحالكة السواد ولا ترتدي منديل الرأس. شعرها مرتب على شكل ضفائر، وكنت أستطيع أن أشم الزيت المثير للغثيان الذي لطخت به شعرها من مكان وقوفي على درجات منزل الخالة كورا المعتم النظيف الأنيس، محدقة فيهما. بدت عليهما الوداعة والهدوء، لم يكن بمقدور أحد ملاحظة الوميض في عيني الفتى.

بعدها كشرت الفتاة وبدأت تفرقع مفاصل أصابعها. كنت مع كل

فرقعة أجفل منها وبدأت يداي تتعرقان. كنت أحمل بعض الكتب المدرسية في يدي اليمنى فنقلتها تحت ابطي. لكنه تحوط تأخر كثيراً إذ سرعان ما ظهرت على راحة يدي لطخة انطبعت على غلاف الكتاب أيضاً. بدأت الفتاة تضحك بهدوء شديد. في تلك اللحظة تملكتني الكراهية، ومع الكراهية داخلتني الشجاعة، بحيث أنني كنت قادرة على السير أمامهما دون أن أنظر إليهما.

كنت أعلم أنهما يتبعاني، وأعلم أيضاً أنني ما دمت في مرأى منزل الخالة كورا فإنهما لن يفعلا شيئاً وسيكتفيان بالسير على مبعدة ورائي. لكني كنت أعلم أين سيبدآن بالاقتراب. سيكون ذلك عندما أصعد التل. هنالك جدران وحدائق على جانبي التل ولا يحتمل وجود أحد في هذه الساعة من الصباح.

حين صعدنا أطبقا عليّ في منتصف الطريق وبدآ يتكلمان. قالت الفتاة:

– انظر الفتاة المجنونة! أنت مجنونة مثل أمك. خالتك تخاف من بقائك في بيتها، وها هي ذي ترسلك إلى دير الراهبات لتسد الموضوع. أمك تتجول دون حذاء أو جواريب في قدميها، إنها بلا سروال داخلي. حاولت أن تقتل زوجها وحاولت أن تقتلك أنت عندما ذهبت لرؤيتها. إن لها عيني زومبي وأنت أيضاً لك عينا زومبي(*). لماذا لا تنظرين إلي؟

أكتفى الفتى بالقول:

– سأظفر بك وحدك ذات يوم، أنتظري... سأظفر بك.

عندما وصلتُ قمة التل بدآ يدفعان منكبيّ. حينها بدأت أشم رائحة شعر الفتاة.

---

* الزومبي جثة يزعم أن الحياة تعاد إليها بالسحر، وهي تشير بالتالي إلى شخص بليد يبدو بلا عاطفة أو تفكير وهي كلمة من أصل أفريقي.

يمتد إلى الدير شارع طويل فارغ، ينتهي بحائط الدار وبوابته الخشبية. يجب أن أدق الجرس قبل أن أدخل. قالت الفتاة:

- ترفضين النظر نحوي، هه؟ أنا سأجعلك تنظرين.

دفعتني فسقطت الكتب التي أحملها على الأرض. حين انحنيت لألتقطها رأيت فتى طويلاً يمشي على الجانب الآخر من الشارع. توقف ونظر إلينا. بعدها عبر راكضاً. كانت له ساقان طويلتان وقدماه لا تكادان تلامسان الأرض. ما أن رأياه حتى وليّا مبتعدين. تطلع في إثرهما حائراً. كنت أوشك على موت أسرع من الركض وهما يقفان قربي. لكني ما أن ذهبا عدوت تاركة أحد كتبي يسقط على الأرض. لحقني الفتى وقال مبتسماً:

- لقد سقط هذا منك.

كنت أعرفه. أسمه ساندي، أبن الكسندر كوسوي. كنت أسميه ذات يوم «ابن عمي ساندي» لكن دروس السيد ميسون جعلتني أخجل من أقربائي الملونين.

تمتمتُ: شكراً لك.

قال:

- سأكلم ذلك الولد. لن يزعجك بعد الآن.

في المدى أستطيع أن أرى شعر عدويّ الأحمر وهو يرشقنا بالحجارة. لكنه لم يكن محظوظاً، لقد أمسك به ساندي قبل أن يصل المنعطف. أما الفتاة فقد اختفت. لم انتظر لأرى ما يحدث بل واصلت سحب الجرس دون توقف.

في النهاية فُتح الباب. كانت الراهبة امرأة ملونة بدا عليها الانزعاج. قالت:

- ما هكذا يقرع الجرس. لقد جئتك بأقصى سرعة.

بعدها سمعت الباب ينغلق خلفي.

تهاويت وبدأت أبكي. سألتني إن كنت مريضة لكني لم أحر جواباً. أخذت يدي وهي لا تزال تطق بلسانها وتغمغم بطريقة تنم عن مزاج متعكر، وقادتني عبر الساحة مروراً بظل شجرة كبيرة، ليس إلى الباب الأمامي بل إلى غرفة حجرية كبيرة وباردة. كان ثمة قدور ومَقالٍ معلقة على الحائط وموقد حجري. وفي مؤخرة الغرفة راهبة أخرى. عندما دق الجرس من جديد ذهبت الأولى لتجيب. الراهبة الثانية، وهي امرأة ملونة أيضاً، جلبت إناء غسيل وماءً، لكني واصلت البكاء بالسرعة نفسها التي كانت تمسح بها وجهي وتنشفه. عندما رأت يدي سألت إن كنت قد وقعت وآذيت نفسي. هززت رأسي بالنفي فنشّفت البقعة بلطف.

- ما الأمر؟ ما الذي يدعوك إلى البكاء؟ ماذا حدث لك؟

لكني بقيت عاجزة عن الإجابة. جاءت لي بقدح من الحليب، حاولت أن أشربه ولكني شرقت.

- اوو لا لا...

قالت وهي تهز كتفيها ثم خرجت. حين عادت من جديد كانت بصحبتها راهبة ثالثة قالت بصوت هادئ:

- لقد بكيتِ بما فيه الكفاية، يجب أن تكفّي عن البكاء الآن. هل لديك منديل؟

تذكرت أنه سقط مني. مسحت الراهبة الجديدة عينيّ بمنديل كبير ثم أعطته لي وسألتني عن اسمي.

قلت: أنطوانيت.

قالت: طبعاً. أعلم، أنت أنطوانيت كوسوي؛ أي أنطوانيت ميسون. هل أنت خائفة من أحد؟

- نعم.

قالت:

- انظري إلي الآن، لن تخافي مني.

نظرتُ إليها. عيناها كبيرتان بنيتان في غاية الصفاء، ترتدي الملابس البيض دون وزرة منشاة كالأخريات. الوشاح الذي يحيط بوجهها من الكتان وفوق الكتان الأبيض غطاء أسود من مادة رقيقة كان يسقط على شكل خصل أسفل ظهرها. لها خدان أحمران ووجه ضاحك فيه غمازتان عميقتان. كفاها الصغيرتان تعوزهما الرشاقة تماماً، ويبدو عليهما الانتفاخ على خلاف بقية جسمها. لم أعرف إلا في وقت لاحق أنهما كسيحتان بالروماتيزم. أخذتني إلى صالة تزدحم بكراسي لها مساند خلفية مستقيمة تتوسطها طاولة لامعة. بعد أن تحدثت معي بعض الوقت أخبرتها شيئاً عن ما كان يبكيني وقلت لها إني لا أحب السير إلى المدرسة وحدي. قالت:

- سنجد حلاً، وأنا سأكتب لخالتك. أما الآن فإن الأم القديسة جوستين ستكون بانتظارنا. وقد أرسلتُ في طلب فتاة مضى على وجودها معنا عام كامل. أسمها لويز... لويز دي بلانا. إذا شعرتِ بالغربة ستشرح لك كل شيء.

أنا ولويز مشينا في ممر مبلط إلى الصف. على جانبي الممر ثمة حشائش وأشجار تحتها ظلال، وأحياناً أجمات زاهية من الورد. لويز جميلة جداً، حين ابتسمت لي كدت لا أصدق بأني عرفت التعاسة ذات يوم. قالت:

- دائماً نسمي الأم القديسة جوستين بالأم عصير الليمون. إنها ليست مثقفة جداً... المسكينة. سترين بنفسك.

***

يجب أن أسارع ما دمت قادرة فأتذكر قاعة الدرس الحارة. وفيها الرحلات المصنوعة من خشب الصفصاف وحرارة المقعد تسري في جسدي، تمتد في ذراعيّ ويديّ. لكني أستطيع أن أرى في الخارج ظلاً بارداً أزرق على حائط أبيض. لإبرتي الرطبة صرير إذ تدخل القماش السميك وتخرج منه. همست للويز التي كانت تجلس أمامي «إن إبرتي تطلق اللعنات». كنا نطرز زهوراً حريرية على مهاد شاحب. بوسعنا تلوين الزهور كما نشاء، كانت زهرتي خضراء وزرقاء وأرجوانية. تحتها سأكتب أسمي بالأحمر الناري: أنطوانيت ميسون، كلا، كوسوي، دير مونت كافالري، المدينة الأسبانية، جامايكا، 1839.

بينما ننهمك في العمل كانت الأم القديسة جوستين تقرأ علينا قصصاً من حياة القديسين؛ روز، باربارا، أجنس. إلا أن لنا قديستنا الخاصة المتمثلة في هيكل عظمي لفتاة في الرابعة عشرة تحت مذبح مصلى الدير. الآثار. وأسأل نفسي: لكن كيف تمكنت الراهبات من أن يأتين بها إلى هنا؟ في دولاب في السفينة رُتب خصيصاً لهذا الحمل؟ كيف؟ لكنها موجودة هنا، واسمها القديسة آنو سينزيا. لا نعرف قصتها، لا ذكر لها في الكتاب. كل القديسات اللواتي نسمع عنهن جميلات وثريات ممن هام بحبهن شباب أثرياء وسام.

- ... بدت أكثر جاذبية، باهظة الأناقة على نحو لم يرها عليه من قبل.

هكذا تحكي لنا الأم القديسة جوستين بصوتها الرتيب. ابتسمت وقالت:

- ها هو ذا ثيوفيلس، وردة من حديقة الرب قريني الذي لم تؤمنّ به.

الوردة التي وجدها قربه حين استيقظ لم تذبل أبداً. وهي لا تزال موجودة. (أوه، لكن أين، أين؟) اعتنق ثيوفيلس المسيحية -قالت الأم القديسة جوزتين ذلك وهي تزيد من سرعتها في القراءة- وأصبح أحد الشهداء المقدسين.

ثم تغلق الكتاب بصفقة مقتضبة وتتحدث عن ضرورة نبش أهاب أظافرنا حين نغسل أيدينا. النظافة، الأخلاق الحميدة، الشفقة على فقراء الله... دفق من الكلمات. (قالت هيلين دي بلانا «إنه ربيع حياتها لا سلطة لها عليه، جوستين المسكينة العجوز»).

- حين توجه الإهانة أو تسبب الأذى لأحد المنكودين والبؤساء فكأنك توجهها للمسيح نفسه، وهو لن ينساها لأن هؤلاء هم الذين اصطفاهم لنفسه.

تطرح هذه الفكرة بصوت روتيني عارض لتنطلق بعدها إلى حديث النظام والعفة؛ تلك التحفة البلورية الكاملة التي ما أن تنكسر مرة واحدة حتى يتعذر إصلاحها إلى الأبد. كذلك هي قواعد السلوك. كانت واقعة كالأخريات تحت سحر الأخوات دي بلانا تعدهن نموذجاً للصف. أنا معجبة بهن. إنهن يجلسن بكثير من الهدوء والاتزان بينما تشير هي إلى روعة تسريحة الآنسة هيلين ألتي أنجزتها دون مرآة.

- رجاءً هيلين؛ أخبريني كيف ترتبين شعرك، أنا أريد أن يكون شعري مثله عندما أكبر.

- إن ذلك في غاية السهولة. تمشطينه إلى الأعلى، هكذا، ثم تسحبينه قليلاً إلى الأمام كما أفعل الآن. بعد ذلك تشكلينه بالدبابيس هنا وهنا. لا داعي للإكثار من الدبابيس إطلاقاً.

- نعم، ولكن، هيلين، شعري لا يبدو مثل شعرك مهما فعلت.

أطرفت رموشها والتفتت جانباً، يمنعها أدبها من قول ما هو واضح جلي. لم يكن لدينا مرآة في القسم الداخلي. ذات مرة رأيت الراهبة الشابة التي قدمت إلينا حديثاً من إيرلندا تنظر إلى نفسها في برميل ماء خشبي، وتبتسم لترى إن كانت غمازتاها لا تزالان في مكانهما. عندما لاحظتني احمّر وجهها خجلاً وفكرتُ أنها ستبقى تكرهني دوماً بعد الآن.

تارة شعر الآنسة هيلين وتارة أخرى تصرفات الآنسة جيرمين المعصومة من الخطأ وأخرى اهتمام الآنسة لويز بأسنانها الجميلة. وإذا كنا لم نبد أية غيرة فأنهن لم يبدين أي غرور. ربما أظهرت هيلين وجيرمين بعض الازدراء والعزلة إلا أن لويز لم تكن كذلك. لم تشارك في ذلك كأنها تعرف أنها خلقت من أجل أشياء أخرى. عينا هيلين تقدحان أحياناً غير أن عيني جيرمين جميلتان ناعمتان كعيون المها. كانت تتكلم بتمهل، ومزاجها على خلاف الكثير من البنات الكريوليات مستقر تماماً. من السهل أن يتخيل المرء ما حل بهما بعيداً عن بعض الحوادث الطارئة. أووه، لكن لويز... خصرها النحيف وكفاها المهزولتان السمراوان وطيات شعرها الأسود التي تفوح منها رائحة نجيل الهند، صوتها الجميل العالي وهي تغني في الكنيسة عن الموت غير آبهة كما يمكن أن يغني طائر. أنت معرّضة لكل شيء لويز، كل شيء دون استثناء ولن استغربه.

قالت الأم جوستين إن قديسة أخرى قد عاشت بعدها في وقت متأخر ولكن في إيطاليا أيضاً، أو في إسبانيا؟ إيطاليا هي الأعمدة البيض والماء الأخضر. إسبانيا هي الشمس الحارة على الصخر. وفرنسا سيدة ذات شعر أسود ترتدي ثوباً أبيض، لأن لويز ولدت في فرنسا منذ خمسة عشر عاماً، وأمي التي يجب أن أنساها وأصلي من أجلها كأنها ماتت، بالرغم من أنها لا تزال حية ترزق، كانت تحب أن ترتدي الثياب البيض.

لم يعد أحد يأتي على ذكرها بعد أن غادرتنا كريستوفين لتعيش مع ولدها. وكنت نادراً ما أرى زوج أمي. كانت تبدو عليه الكراهية لجامايكا وللمدينة الاسبانية على وجه الخصوص. وغالباً ما أبتعد عنها عدة شهور.

أخبرتني خالتي في ظهيرة قائظة من تموز بأنها ستذهب إلى إنجلترا لتبقى عاماً هناك. لم تكن صحتها على ما يرام وهي تحتاج إلى التغيير. قالت ذلك وهي تعمل في خياطة مفرش لحاف، قطع الحرير التي لها شكل الجواهر أضفى بعضها على البعض الآخر ألواناً زاهية؛ حمراء، زرقاء، ارجوانية، خضراء، صفراء لون وامض واحد. كانت قد أمضت في عملها ساعات وساعات وهو يوشك على الانتهاء. هل سأشعر بالوحدة؟ سألتني فأجبتها «لا» وأنا أنظر إلى الألوان. فكرت لساعات وساعات وساعات.

***

ذلك الدير كان ملجئي؛ فسحة للشمس المشرقة والموت، حيث توقظنا في وقت مبكر جداً من الصباح نقرة من منبه خشبي، توقظنا نحن التسع اللواتي كنا ننام في القسم الداخلي الطويل. كنا نستيقظ لنجد الأخت ماري أوغسطين جالسة بوقار وترتيب، مستقيمة كالسهم، في كرسي خشبي. كانت الغرفة البنية الطويلة مليئة بضوء الشمس الذهبي وظلال الأشجار تنوس بهدوء. كنت قد تعلمت أن أردد بسرعة كبيرة، كما تفعل الأخريات؛ «قدّم لنا صلوات هذا اليوم وأعماله ومعاناته». ولكن ماذا عن السعادة؟ لابد أنها موجودة. أوو، السعادة طبعاً، السعادة، حسناً.

لكني سرعان ما أنسى السعادة وما يتعلق بها حين أعدو لأنزل الدرجات إلى الحمام الصخري الكبير حيث نعبث بالماء في قمصان قطنية داخلية طويلة رمادية اللون تصل حدّ الكاحل. ثم رائحة الصابون نغتسل به بحركات

حذرة تحت القميص، وهي مهارة يتوجب تعلمها شأنها شأن ارتداء الملابس دون مبالغة. الانبثاقات العظيمة لضوء الشمس نراها حين نعود ونحن نصعد الدرجات الخشبية إلى حجرة الطعام في الدير. القهوة الساخنة والأقراص والزبدة الذائبة. ولكن، بعد الوجبة، الآن وفي ساعة موتنا في منتصف اليوم؛ في السادسة مساءً، الآن وفي ساعة موتنا؛ يرتفع الدعاء: ليشرق الضوء الأزلي عليهم. فكرت أن أمي هي المقصودة حيث تكون روحها هائمة، فهي قد تركت جسدها. إلا أنني تذكرت مبلغ كراهيتها للضوء الساطع وحبها للبرد والظلال. لكن الضوء الأزلي مختلف كما قالوا لي. سأكف بالرغم من ذلك عن النطق بالدعاء. سرعان ما أصبحنا تحت الظلال المتحركة في الخارج؛ إنها أجمل من أي ضوء أزلي محتمل، وسرعان ما تعلمت الثرثرة دون تفكير كالأخريات، عن التغيير وعن ساعة موتنا لأن ذلك هو كل ما نملك.

الأشياء كلها إما زاهية وإما معتمة. كانت الحيطان وألوان الزهور المشرقة في الحديقة وبدلات الراهبات زاهية، لكن الحجب على وجوههن والصلبان المتدلية من خصورهن وظلال الأشجار معتمة. هكذا هو الحال إذن؛ ضوء وظلام، شمس وظل، جنة وجحيم. إحدى الراهبات كانت تعرف كل شيء عن الجحيم، ومن لا يعرف؟ ولكن راهبة أخرى كانت تعرف كل شيء عن الجنة وحسنات الأتقياء التي ليس الجمال السامي إلا أقلها شأناً. أقلها تماماً. لم أكن لأتحمل مزيداً من الانتظار لأفوز بهذه الملذات كلها، وقد صليت ذات مرة صلاة طويلة من أجل أن أموت. ثم تذكرت أن هذه تعدّ خطيئة. جرأة أو يأس، نسيت أيهما، لكنها خطيئة مهلكة. لذلك صليت صلاة طويلة أخرى للتكفير عنها. لكن فكرة راودتني حينها؛ لماذا تقع أشياء كثيرة إلى هذا الحد في باب الخطايا؟ هذه الفكرة خطيئة أخرى بدورها. مع ذلك فإن مما يبعث على السعادة قول الأخت ماري أوغسطين إن الأفكار لا تعدّ خطايا إذا ما

استُبعدت في الحال. تقولين ليخلصني الرب، إني أهلك. لقد وجدت أن معرفة ما يجب عمله أمر مريح جداً. ومع ذلك لم أصلِّ كثيراً بعدها، وسرعان ما جاء وقت كدت لا أصلي فيه على الإطلاق. شعرت بأنني أكثر شجاعة وسعادة وشعوراً بالحرية، لكنني لم أشعر بالأمان التام.

في تلك الأثناء، طوال حوالى ثمانية عشر شهراً، واظب زوج أمي على زيارتي. قابل الأم المسؤولة أولاً، بعدها أصبحت أذهب إلى الردهة في كامل ملابسي مستعدة للخروج معه لتناول وجبة غذاء أو لزيارة بعض الأصدقاء. كان يقدم لي الهدايا حين نفترق؛ حلوى، مدّلاة قلادة، سواراً. ذات مرة أهداني ثوباً جميلاً لم أقدر على ارتدائه بالطبع.

لكنه بدا مختلفاً في المرة الأخيرة التي زارني بها. تبينت ذلك ما أن دخلت الغرفة. قبّلني، أمسك بي على مبعدة ذراع وهو يتطلع فيّ بعناية وتمعّن. بعدها ابتسم وقال إنني أطول مما كان يعتقد. ذكّرته أني تجاوزت السابعة عشرة، امرأة ناضجة. قال:

– لم أنسَ هديتك.

أجبت لشعوري بالخجل والارتباك:

– أنا لا أستطيع أن ألبس كل هذه الأشياء التي تجلبها لي.

قال:

– تستطيعين أن تلبسي ما شئت عندما تعيشين معي.

–أين؟ في ترينيداد؟

– طبعاً لا. هنا والآن. معي ومع الخالة كورا التي ستعود إلى البيت أخيراً. تقول إن شتاءً إنجليزياً آخر سيكفي لقتلها. وريتشارد. لا يمكن أن

تحتجبي كل حياتك.

فكّرتُ: ولِمَ لا؟

أعتقد أنه لاحظ اكتئابي فقد بدأ ينكت، يمتدحني، يوجه لي أسئلة تافهة سرعان ما دفعتني إلى مشاركته الضحك. هل أود العيش في إنجلترا؟ بعدها وقبل أن أجيب؛ هل تعلّمتُ الرقص، هل تبدي الراهبات شدة معي؟

قلت:

- لسن شديدات على الإطلاق. القس الذي يزورهن كل عام يتهمهن باللين. رخوات جداً. يقول إنه الطقس.

- آمل أن يكن قد طالبنه بصرف اهتمامه إلى شؤونه الخاصة.

- لقد فعلت المشرفة ذلك. البعض كن خائفات. لسن شديدات، لكن أحداً لم يعلمني الرقص.

- ليس ذلك صعباً. أريد منك أن تكوني سعيدة، أنطوانيت، مطمئنة. ولقد حاولت أن أرتب ذلك، لكن الوقت سيكون طويلاً أمامنا لمناقشة هذه الأمور.

بينما نحن نخرج من بوابة الدير قال بلا مبالاة:

- لقد دعوت بعض الأصدقاء الإنجليز لتمضية الشتاء القادم هنا، لن تشعري بالملل.

قلت متشككة:

- هل تظن أنهم سيأتون؟

- أحدهم سيأتي، أنا واثق من هذا.

ربما بسبب الطريقة التي ابتسم بها، لا أدري، لكن شعوراً بالكآبة والحزن والفقد كاد يخنقني مرة أخرى. لن أسمح له أن يراه هذه المرة.

يشبه الأمر ما حدث في صباح كهذا عندما وجدتُ الفرس ميتاً. الزم الصمت، فربما يمنع الصمتُ المكروه من الحدوث.

لكنهن جميعاً كن يعرفن في الدير. البنات أبدين فضولاً شديداً لكني لم أكن لأجيب على أسئلتهن. ولأول مرة استنكرت وجوه الراهبات المرحة. يعشن آمنات. كيف يتسنى لهن معرفة ما يحدث في الخارج؟

كانت تلك هي المرة الثانية التي أحلم بها.

أغادر الدار في كوليبري من جديد. الوقت لا يزال ليلاً وأنا أسير نحو الغابة. أرتدي ثوباً طويلاً ونعلاً ضيقاً هو سبب الصعوبة التي أجدها في السير وأنا أقتفي أثر الرجل الذي يمشي معي حاملة حاشية ثوبي. حاشية ثوبي بيضاء وجميلة، وأنا أحرص أن لا تتلوث. أتبعه خائفة حد المرض لكني لا أبادر بأية حركة لإنقاذ نفسي، وحتى لو حاول أي شخص إنقاذي فسأرفض. ما يحدث حتميّ. ها نحن أولئك نصل الغابة الآن. نحن تحت الأشجار العالية المعتمة وليس ثمة ريح. «هنا؟» ألتفتَ ونظر ناحيتي، وجهه مسودّ من الكراهية. حين رأيته بدأت أبكي. ابتسم بخبث. «ليس هنا، ليس الآن» قال وتبعته وأنا أنتحب. الآن لم أعد أحاول أن أرفع ثوبي، أصبحت أجرجره في القذارة، ثوبي الجميل. لست في الغابة الآن ولكن في حديقة مغلقة يسوّرها حائط حجري، والأشجار تختلف. لا أعرفها. ثمة سلم يقود إلى الأعلى. العتمة شديدة تمنع رؤية الحائط أو الدرجات، لكني أعلم أنها موجودة وأفكر «سيتم ذلك عندما أصعد هذا السلم. في القمة». أتعثر بثوبي وأعجز عن النهوض. ألمسُ شجرة فتظل ذراعاي ممسكتين بها. «هنا. هنا» لكني أفكر بعدم التقدم خطوة واحدة أكثر. الشجرة تتأرجح وتنتفض كأنها تحاول أن تقذفني جانباً. لا أزال متشبثة

بها واللحظات تمر، كل لحظة منها تعادل آلاف السنين. «هنا. في الداخل هنا.» قال صوت غريب فكفت الشجرة عن التأرجح والانتفاض.

***

الآن تقودني الأخت ماري اوغسطين خارج غرفة النوم في القسم، تسألني إن كنت مريضة وتخبرني أن من الواجب عليّ عدم إزعاج الأخريات. وقد تساءلتُ قلقة، رغم أنني ما زلت أرتعش، إن كانت ستأخذني إلى ما وراء الستائر الغامضة حيث المكان الذي تنام فيه. لكن لا. ها هي ذي تجلس على كرسي وتختفي لتعود بعد فترة وجيزة مع كوب شوكولا ساخن.

قلت:

- حلمت أنني في الجحيم.

- هذا الحلم شرّ. أبعديه. لا تفكري به إطلاقاً.

ومسحت على يديّ الباردتين لتدفئهما.

تبدو كعادتها، وقورة كيّسة. أود أن أسألها إن كانت تصحو قبل الفجر أم إنها لا تذهب إلى الفراش إطلاقاً؟

- اشربي الشوكولا.

أتذكر بينما أنا أشربها كيف ذهبنا بعد جنازة أمي، في وقت مبكر جداً من الصباح؛ مبكر كهذا الوقت تقريباً، إلى البيت لنشرب الشوكولا ونأكل الكيك. ماتت في العام الماضي. لم يقل لي أحد كيف، وأنا لم أسأل. كان السيد ميسون موجوداً ومعه كريستوفين، لا أحد سواهما. بكت كريستوفين بمرارة، لكنني لم أتمكن من البكاء. صليت، لكن الكلمات تهاوت على الأرض خالية من المعنى.

الآن تختلط فكرة وجودها بحلمي.

رأيتها في بدلة ركوب الخيل المرتقة تعتلي فرساً مستعاراً، تحاول أن تلوّح في نهاية الطريق الصخري لكوليبري فاندفعت الدموع إلى عيني من جديد.

قلت:

- تحدث أمور فظيعة. لماذا؟ لماذا؟

قالت الأخت ماري اوغسطين:

- يجب أن لا تشغلي نفسك بذلك الغموض. لا نعرف لماذا يتمتع الشيطان بيوم فوزه القصير.

لم تكن لتبتسم بقدر ابتسام الأخريات أبداً. كانت تبدو حزينة.

قالت كأنها تحدث نفسها:

- اذهبي الآن بهدوء إلى الفراش. فكري بالأشياء الهادئة المسالمة. حاولي أن تنامي. سرعان ما أعطي الإشارة، وسرعان ما سيأتي صباح الغد.

القسم الثاني

هكذا إذن انتهى كل شيء، التقدم والتراجع، الشكوك والترددات. تم كل شيء، سواء نحو الأفضل أم نحو الأسوأ. وها نحن أولئك نحتمي من المطر الثقيل تحت شجرة مانجو؛ أنا وزوجتي أنطوانيت وخادمة صغيرة من طائفة شبه مغلقة تدعى أميلي. تحت شجرة مجاورة أستطيع أن أرى متاعنا مبرقعاً بكيس وثمة حمّالان وصبي يمسكون بخيول جديدة استؤجرت لتصعد بنا ألفي قدم إلى دار شهر العسل المنتظر.

قالت الفتاة أميلي هذا الصباح:

- أتمنى لك السعادة الغامرة سيدي في بيت شهر العسل الحلو.

أستطيع رؤية أنها تضحك مني. كائن صغير محبوب، لكنه خبيث ومناكد وربما حقود مثل أشياء كثيرة في هذا المكان.

قالت أنطوانيت بقلق:

- إنها مزنة لا غير سرعان ما ستتوقف.

تطلعتُ إلى أشجار جوز الهند المنحنية الحزينة، إلى زوارق الصيد المسحوبة نحو الشاطئ ذي الحصى، إلى طابور غير مستقيم من الأكواخ المطلية باللون الأبيض، وسألت عن أسم القرية.

- ماساكر(*).

- ومن ذُبح هنا؟ عبيد؟

بدا وكأن ذلك قد صدمها:

- أوه، كلا ليس عبيداً. شيء لا بد أنه حدث قبل وقت طويل. لا أحد يتذكره الآن.

اشتدت غزارة المطر، قطرات كبيرة كأنها البَرَد على أوراق الشجر. والبحر يزحف خلسة إلى الأمام ثم ينسحب إلى الخلف.

إذن هذه هي ماساكر. ليست نهاية العالم، ما هي إلا المرحلة الأخيرة في رحلتنا اللانهائية من جامايكا وبداية شهر عسلنا الحلو. سيبدو كل شيء مختلفاً في الشمس.

لقد رتّبوا الأمر بحيث نترك المدينة الأسبانية بعد الاحتفال مباشرة لنمضي بعض الأسابيع في إحدى جزر الوندورد في ضيعة صغيرة كانت تعود لأم أنطوانيت. وافقتُ على ذلك، كما وافقت من قبل على كل شيء آخر.

كانت نوافذ الأكواخ مغلقة والأبواب مفتوحة على الصمت والظلام. بعد حين جاء ثلاثة صبيان صغار ليحملقوا فينا. لم يكن أصغرهم يرتدي سوى ميدالية دينية حول عنقه وإطار خارجي لقبعة صياد واسعة. عندما ابتسمت له بدأ يبكي. نادت عليه امرأة من أحد الأكواخ فابتعد راكضاً وهو يصرخ. ومضى الآخران في أعقابه على مهل وهما ينظران إلى الخلف بين حين وآخر. بدا كأن تلك هي الإشارة المتفق عليها فقد ظهرت امرأة أخرى في الباب ثم امرأة ثالثة.

---

* ماساكر تعني بالإنجليزية «مذبحة».

قالت أنطوانيت:

- إنها كارو، أنا واثقة من أنها كارو. كارولين!

نادت ملوّحة بيدها فردت عليها المرأة بتلويحه مماثلة. عجوز مبهرجة في ثوب مورد بألوان زاهية ومنديل رأس مخطط وأقراط ذهبية.

قلت:

- أنطوانيت، ستنقعين.

- لا، المطر يتوقف.

رفعت حافة بدلتها المخصصة لركوب الخيل وركضت عبر الشارع. تابعتها باستنكار. كانت ترتدي قبعة ثلاثية تليق بها. في الأقل تظلل عينيها، وهما واسعتان، مرتبكتان أحياناً. لديّ انطباع بأنهما لا تطرفان أبداً. عينان طويلتان، حزينتان، مظلمتان، غريبتان. ربما تكون كريولية من دم إنجليزي نقي؛ إلا أنهم ليسوا إنجليزاً ولا حتى أوربيين. ولكن متى بدأت ألاحظ كل تلك الأشياء في زوجتي أنطوانيت؟ أعتقد بعد أن تركنا المدينة الأسبانية. أم تراني لاحظته قبل ذلك ورفضت أن أقرّ بما رأيت؟ فأنا لم أمتلك الوقت الكافي لملاحظة أي شيء. لقد تزوجت بعد شهر من وصولي إلى جامايكا، وقد أمضيت منه حوالى ثلاثة أسابيع في الفراش أعاني من الحمى.

وقفت المرأتان في مدخل الكوخ تتبادلان الإيماءات؛ إنهما لا تتكلمان الإنجليزية بل لهجة محلية هي نوع من فرنسية مشوهة يستخدمونها في هذه الجزيرة. بدأ المطر ينساب أسفل عنقي من الخلف ليفاقم شعوري بالارتباك والكآبة.

فكرتُ بالرسالة التي يفترض أن أكون قد أرسلتها إلى إنجلترا قبل أسبوع.

أبي العزيز...

- تسأل كارولين إن كنت ستحتمي بدارها من المطر.

كانت تلك هي أنطوانيت. تتكلم بتردد كما لو أنها تتوقع مني الرفض، وهو ما يسّهل عليّ الرفض.

- لكنك تبللت.

- لا يهمني.

ابتسمتُ لكارولين وهززتُ رأسي.

- ستكون خيبة أملها كبيرة.

قالت زوجتي وهي تعبر الشارع مرة أخرى لتدخل الكوخ المظلم.

التفتتْ أميلي، التي كانت تجلس وظهرها إلينا. كان وجهها يطفح بخبث مرح وذكاء شديد، والأهم من ذلك بحميمية غامرة بلغت بي حد الخجل فنظرت بعيداً.

فكرتُ «حسناً، أنا أعاني من الحمى. لم أشف منها بعد.»

خفّ المطر فذهبت إلى الحمالين أحدثهما. لم يكن الحمال الأول من سكان الجزيرة الأصليين.

- هذا المكان متوحش، بعيد عن الحضارة. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

كان يُسمى يونغ بُل[*] كما أخبرني، وهو في السابعة والعشرين من العمر. جسد فخم ووجه فيه بلاهة وغرور. الرجل الثاني يدعى أميل. نعم، هو من مواليد الجزيرة وعاش فيها. اقترح يونغ بُل:

---

* يونغ بل تعني الثور الشاب أيضاً.

- أسأله كم يبلغ من العمر؟

قال أميل بصوت متسائل:

- أربع عشرة؟ نعم، أنا أبلغ الرابعة عشرة سيدي.

قلت:

- مستحيل.

كنت أرى الشعر الأبيض يتناثر في لحيته.

- ربما كنتُ في السادسة والخمسين.

بدا حريصاً على إرضائي. أطلق يونغ بُل ضحكة عالية.

- إنه لا يعرف عمره. لا يفكر في هذا الأمر. كما قلت لك سيدي هؤلاء الناس همج.

تمتم أميل:

- أمي تعرف. لكنها ميتة.

بعدها أخرج خرقة زرقاء طواها على شكل وسادة صغيرة ووضعها على رأسه.

وقفت الكثير من النساء خارج أبوابهن ينظرن إلينا ولكن دون ابتسام. أناس يكابدون الكآبة في مكان كئيب. سار بعض الرجال إلى زوارقهم، وحين ناداهم أميل جاءه اثنان منهم. غنّى بصوت عميق، فرددوا غناءه ثم رفعوا سلة الأغصان الثقيلة ووضعوها على الوسادة فوق رأسه دون أن يتوقفوا عن الغناء. اختبر توازنها بإحدى يديه ثم مشى بخطوات واسعة، حافياً فوق الصخور الحادة. لقد كان أكثر جماعة العرس مرحاً. عندما حمّلوا يونغ بُل حدجني بنظرة جانبية متباهياً وغنى هو الآخر، لنفسه وبالإنجليزية.

أتى الصبي بالخيول إلى صخرة كبيرة ورأيت أنطوانيت تخرج من الكوخ. سطعت الشمس وتصاعد البخار من الخضرة وراءنا. خلعت أميلي حذاءها، ربطته وعلقته في رقبتها. وازنت سلتها الصغيرة على رأسها وابتعدت متمايلة بيُسر كالحمالين. ركبنا الجياد واستدرنا حول منعطف فغابت القرية عن الأنظار. صاح ديك صياحاً عالياً، وتذكرت الليلة الماضية التي قضيناها في المدينة. كان لأنطوانيت غرفتها الخاصة، وكانت متعبة. استلقيت أنا متيقظاً، أنصت إلى صياح الديكة طوال الليل. بعدها قمت في وقت مبكر جداً فرأيت النساء يحملن الأواني المغطاة بأقمشة بيض على رؤوسهن متجهات إلى المطبخ. امرأة تبيع الرغيف الحار، وأخرى تبيع الكيك، وثالثة الحلويات. في الشارع صاح شخص آخر داعياً إلى بضاعته من شراب السكر بالفرنسية. وشعرت بالهدوء.

***

كان الطريق يصعد إلى الأعلى. ترى على أحد جانبيه حائطاً من الخضرة، وعلى الجانب الآخر منحدراً ينزل إلى واد ضيق في الأسفل. تريثنا لنتطلع إلى التلال والجبال والبحر الأخضر المزرق. ثمة ريح ناعمة دافئة تهب، لكنني فهمت الآن لماذا أسماه الحمال مكاناً متوحشاً. لم يكن متوحشاً وحسب، بل ومتوعداً. هذه التلال قد تطبق عليك في أية لحظة.

- يا لها من خضرة رائعة!

ذلك كل ما استطعت قوله، فكرت بأميل ينادي الصيادين وبوقع صوته فسألت عنه.

- لقد سلكوا طرقاً مختصرة. سيصلون كرانبوا قبلنا بوقت طويل.

فكرت وأنا ألاحقها متعباً بحصاني في أن كل شيء يبدو أكثر من

المعتاد. كثير من الزرقة، كثير من الأرجوان، كثير من الخضرة. الأزهار فاقعة الحمرة، الجبال شاهقة الارتفاع، التلال قريبة جداً. والمرأة غريبة. التعبير الدفاعي المرتسم على وجهها يزعجني. لم اشترها، هي التي اشترتني أو هكذا تظن. نظرتُ إلى عرف الحصان الخشن... أبي العزيز، لقد دفعوا لي ثلاثين ألف باون دون سؤال أو شرط. ليس لها حصة منها (يجب أن أوضح ذلك). وهكذا أصبحت لي إمكانيتي المتواضعة الآن. لن أكون عاراً عليك أو على أخي العزيز؛ الابن الذي تغمره بحبك دائماً. لا رسائل استجداء بعد الآن ولا طلبات وضيعة. ستتوقف بعد اليوم مناورات الابن الأصغر الماكرة الدنيئة. لقد بعت روحي، أو أنت بعتها، ثم هل هي صفقة سيئة إلى هذا الحد؟ الفتاة جميلة كما يراها الناس، وهي جميلة فعلاً. ولكن...

أبطات الخيل في تلك الأثناء لتجتاز طريقاً شديد الوعورة. كان الجو يزداد برودة. صفّر طائر؛ نغمة طويلة حزينة.

- أي نوع من الطيور هذا؟

كانت تتقدمني بمسافة طويلة فلم تسمعني. صفّر الطائر مرة أخرى. طائر جبلي. حاد وحلو. في صوته وحدانية قصوى.

توقفتْ ونادت:

- يجب أن تلبس معطفك الآن.

لبسته وأدركت أنني لم أعد أشعر بذلك البرد اللذيذ، بل بالبرد الحقيقي في قميصي الناقع بالعرق.

تقدمنا من جديد صامتين في شمس العصر المائلة؛ حائط الأشجار من جانب والهاوية من الجانب الآخر. بدا البحر الآن أزرق هادئاً، عميقاً وغامقاً.

وصلنا نهراً صغيراً.

هذه حدود كرانبوا.

ابتسمتْ لي. تلك هي المرة الأولى التي أراها تبتسم ببساطة وانبساط. أو ربما كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بالبساطة والانبساط معها. ثمة قصبة خيزران ناتئة من المنحدر يتدفق منها الماء أزرق نحاسياً. ترجلتْ بسرعة لتلتقط ورقة كبيرة من الشبذر وتصنع منها كوباً تشرب منه الماء. بعدها التقطت ورقة أخرى، طوتها وجاءتني بها:

- ذُق! إنه ماء الجبل.

فكرت وأنا أراها تنظر إلى الأعلى مبتسمة يمكن أن تكون أية فتاة إنجليزية فاتنة، وشربت لأرضيها. كان ماء بارداً، صافياً، عذباً، يمتزج لونه بلون الورقة الخضراء الغامقة التي تحتويه مما يزيده جمالاً. قالت:

- سننزل الآن منحدراً ثم نصعد ثانية فنكون في المكان المطلوب.

حين تكلمت مرة أخرى قالت:

- الأرض هنا حمراء، هل تلاحظ؟

- إنها حمراء في بعض المناطق بإنجلترا أيضاً.

- أوه، إنجلترا... إنجلترا...

هتفت بنبرة ساخرة فظل صوتها يتردد مثل تحذير لم أشأ سماعه. وقفنا على سلم من الدرجات الصخرية. ثمة صنوبرة ملتوية كبيرة على اليسار وإلى اليمين بناء بدا مثل تقليد لأحد البيوت الإنجليزية الصيفية؛ أربعة أعمدة خشبية وسقف من القش. ترجلتْ من حصانها وقفزت الدرجات. في القمة مرجة خضراء شُذّبت على عجل؛ خضرتها خشنة غير مصقولة تنتهي عند بيت أبيض متداع.

- أنت الآن في كرانبوا.

نظرتُ إلى الجبال، لونها أرجواني على مهاد من سماء فاقعة الزرقة.

بدا البيت وهو يربض متأهباً على الدعامات الخشبية وكأنه ينفرد مبتعداً عن الغابة التي تقع خلفه ويرتفع مندفعاً إلى البحر البعيد. كان أقرب إلى الخرق منه إلى القبح، حزين بعض الشيء كأنه يعلم أن لا حظ له في البقاء. ثمة مجموعة من الزنوج تقف عند مدخل السلم المؤدي إلى الشرفة. قطعت أنطوانيت المرجة عدواً، وبينما أنا أسير في أعقابها اصطدمت بفتى أتى من الاتجاه المعاكس. قلب عينيه وبدا عليه الانزعاج ثم مضى نحو الجياد دون كلمة اعتذار. قال صوت أحد الرجال:

- انحنوا الآن، انحنوا! اتخذوا مظهراً جاداً.

كانوا أربعة؛ امرأة وفتاة ورجلاً طويلاً جليلاً يقفون معاً، ثم أنطوانيت وهي تطوق امرأة أخرى بذراعها.

- برتراند هو الذي كاد يسقطك أرضاً. تلكما روز وهلدا. وهذا بابتست.

علت وجوه الخدم وهي تسمّيهم تكشيرات عريضة خجلة.

- ثم ها هي ذي كريستوفين التي كانت دادتي ومربيتي منذ زمن بعيد.

قال بابتست إنه يوم سعيد، وإننا جئنا معنا بالطقس اللطيف. كان يتكلم الإنجليزية بطلاقة، ولكن هلدا بدأت تكركر ضاحكة عند منتصف خطاب ترحيبه بنا. كانت فتاة صغيرة في حوالى الثانية عشرة أو الرابعة عشرة، ترتدي ثوباً دون أكمام لا يتجاوز ركبتيها. لم يكن ثوبها مبقعاً، إلا أن شعرها المكشوف أضفى عليها بالرغم من أنه مدهون ومرتب في ضفائر صغيرة وعديدة أضفى عليها مظهراً همجياً. رمقها بابتست بنظرة عابسة فارتفع صوت كركرتها ووضعت يدها على فمها وهي تصعد الدرجات الخشبية إلى البيت. كنت

أستطيع سماع صوت قدميها الحافيتين تركضان على طول الشرفة.

قالت المرأة العجوز لأنطوانيت:

- يا عزيزتي، يا دجاجتي الصغيرة.

تمعنت فيها النظر لكنها بدت امرأة عديمة الأهمية. كانت أكثر سواداً من الأغلبية ولون ملابسها، حتى المنديل الذي تلف به رأسها، بدا باهتاً. نظرت نحوي مثبتة عينيها، وخطر لي أن نظرتها تخلو من الاستحسان. بقينا دقيقة كاملة يحدق أحدنا في الآخر. وقد سحبت نظري أنا أولاً فابتسمت راضية عن نفسها وهي تدفع أنطوانيت إلى الأمام لتختفيا معاً في الظلال خلف الدار. كان الخدم الآخرون قد ذهبوا.

تنشقت، وأنا أقف في الشرفة، عذوبة الهواء. أستطيع أن أشم القرنفل والقرفة والزهر وقداح البرتقال؛ عطور طازجة مسكرة كأن أحداً لم يستنشقها من قبل. عندما قالت أنطوانيت «تعال لأريك بقية الدار.» ذهبتُ معها دون حماسة، إذ أن بقية أرجاء المكان بدت مهملة ومهجورة. قادتني إلى غرفة واسعة يعوزها الطلاء، فيها أريكة صغيرة رثة وتتوسطها طاولة من خشب المهاجوني، ثم بعض الكراسي ذات المساند المستقيمة وخزانة قديمة من السنديان لها قوائم نحاسية على صورة مخالب أسد.

مضت وهي تمسك بيدي إلى خوان عليه قدحان من شراب بنش الرَّم بانتظارنا. ناولتني واحداً وقالت:

- نخب السعادة.

أجبتها:

- نخب السعادة.

كان الجانب الآخر من الغرفة أرحب وأكثر إيحاء بالفراغ. فيه بابان يقود أحدهما إلى الشرفة بينما الآخر مفتوح قليلاً على غرفة صغيرة، ثم فراش كبير إلى جواره طاولة مستديرة وكرسيان ومنضدة زينة مدهشة لها تاج رخامي ومرآة واسعة. فوق الفراش يستقر إكليلان من زهر الياسمين الأحمر.

- هل يُفترض أن أتقلد أحدَهُما؟ متى؟

توّجت نفسي بأحد الإكليلين وأنا أتطلع لصورتي في المرآة.

- لا أعتقد أنه يناسب وجهي الوسيم.. أليس كذلك؟

- أنت تبدو فيه مثل ملك... إمبراطور.

- لا سمح الله!

قلتُ ونزعتُ الإكليل فسقط على الأرض. حين اتجهت إلى الشباك دست عليه فضاع في الغرفة عطر الزهور المسحوقة. في المرآة رأيت صورتها وهي تروح عن نفسها بمروحة صغيرة من خوص السعف ذات حافات ملونة بالأزرق والأحمر. شعرت بالعرق يتفصد من جبيني فجلست. ركعتْ قربي ومسحت وجهي بمنديلها.

قالت:

- ألا تحب هذا المكان؟ إنه لي وكل شيء فيه لخدمتنا. كنت ذات يوم أنام هنا وإلى جانبي قطعة من الخشب أدافع بها عن نفسي إذا هوجمت. إلى هذا الحد كنت خائفة.

خائفة من أي شيء؟

هزت رأسها:

- من لا شيء. من كل شيء.

نقر أحدهم الباب فقالت:

- لا بد أنها كريستوفين.

- العجوز التي كانت مربيتك؟ هل تخافين منها؟

- لا، كيف يمكن ذلك؟

قلت:

- لو كانت أطول وأشبه بالنساء القويات الضخمات اللواتي يلبسن ثياباً تغطيهن بالكامل لخفتُ منها.

ضحكتْ:

- ذلك الباب يؤدي إلى غرفة ملابسك.

أغلقتها خلفي برفق. بدت الغرفة مزدحمة بعد الفراغ الممتد في بقية أرجاء الدار. هنالك سجادة؛ السجادة الوحيدة التي رأيتها، وخزانة نُجرت من خشب جميل لم أميّز نوعه. تحت الشباك المفتوح ثمة طاولة كتابة صغيرة عليها أوراق وأقلام وحبر. كنت أفكر «غرفة ملجأ» عندما سمعت أحداً يقول:

- كانت هذه غرفة السيد ميسون، سيدي. لكنه لم يكن يأتي إليها باستمرار. لم يكن يحب هذا المكان.

إنه بابتست يقف في المدخل المؤدي إلى الشرفة وهو يحمل بطانية على ذراعه. قلت:

- كل ما فيها مريح جداً.

وضع البطانية على الفراش وقال:

- يمكن أن يصبح الجو بارداً هنا في الليل.

ثم ذهب. لكني فقدت الإحساس بالأمان. نظرت حولي مرتاباً. يمكن إغلاق الباب المؤدية إلى غرفتها بمزلاج؛ لوح مستقيم من الخشب يتعشق في لوح آخر. إنها آخر غرف الدار. هنالك درجات خشبية تقود من الشرفة إلى مرجة كثة أخرى نَمَت قربها شجرة برتقال. عدت إلى غرفة الملابس ووقفت أتطلع من النافذة. رأيت طريقاً طينياً يغطيه الوحل في بعض الأماكن ويحفه صفٌ من الأشجار السامقة. وخلف الطريق ملحق بنايات لا تكاد تبين، المطبخ إحداها. ليس له مدخنة، كان الدخان يتدفق من شباكه. جلستُ على الفراش الناعم الضيق وأصغيتُ: لا صوت سوى النهر. ربما كنت وحدي في البيت. ثمة رف كتب بسيط غير منتظم يتكون من ثلاثة ألواح خشبية رُبط بعضها إلى البعض وعُلقت فوق الطاولة. نظرت إلى الكتب؛ قصائد بايرون، روايات ولتر سكوت، «اعترافات مدمن افيون» ثم مجلات بالية مصفرة. في الرف الأخير «حياة ورسائل...» البقية متآكلة.

«أبي العزيز، ها قد وصلنا من جامايكا بعد بضعة أيام لا راحة فيها إلى هذه الضيعة الصغيرة في جزر الوندورد، وهي جزء من ممتلكات العائلة. أنطوانيت متعلقة بها مولعة. كانت ترغب في الوصول إليها بأسرع وقت. كل شيء على ما يرام وقد تمّ على وفق مخططك ورغبتك. تفاهمتُ مع ريتشارد ميسون بالطبع. وربما يكون قد تناهى إلى علمك أن أباه توفي مباشرة بعد وصولي إلى الهند الغربية. ريتشارد شخص طيب، يفيض ترحاباً ومودة، ويبدو أنه استلطفني ومنحني ثقته التامة. المكان هنا جميل جداً لكني أشعر بالإرهاق بعد فترة المرض، وهو أمر يمنعني من الاستمتاع به كما يجب. سأكتب لك مرة أخرى خلال الأيام القليلة القادمة.»

أعدت قراءة هذه الرسالة وأضفت إليها الملاحظة التالية:

«أشعر أني قطعت أخباري عنك فترة طويلة لأن مجرد إعلان زواجي

لا يكاد يشكل خبراً. لقد صرعتني الحمى لمدة أسبوعين بعد أن وصلت إلى المدينة الأسبانية. لم يكن مرضاً خطيراً لكنه سبب لي من التعاسة ما يكفي. مكثت مع آل فريسر، أصدقاء عائلة ميسون. والسيد فريسر رجل إنجليزي، حاكم متقاعد، أصرّ على أن يحدثني بإسهاب عن بعض قضاياه. كان يصعب عليّ التفكير أو الكتابة بشكل متماسك. الآن وفي هذا المكان البارد والبعيد، يدعى كرانبوا (أي الغابات العالية كما أعتقد) أشعر بالتحسن. رسالتي القادمة ستكون أطول وأكثر وضوحاً.»

مكان بارد وبعيد... تساءلت كيف يبعثون رسائلهم بالبريد؟ طويت رسالتي ووضعتها في درج الطاولة. أما بالنسبة لانطباعاتي المشوشة فلن أكتبها أبداً. ثمة فراغات في عقلي لن تمتلئ أبداً.

***

كانت الأشياء كلها زاهية الألوان وشديدة الغرابة. لكنها لا تعني شيئاً بالنسبة لي. حتى هي، الفتاة التي أنوي الزواج منها، لا تعني شيئاً. عندما قابلتها أخيراً انحنيتُ وابتسمتُ وقبّلت يدها وراقصتها. لقد لعبتُ الدور الذي توقعت أن ألعبه. لم أجد فيها ما يهمني على الإطلاق. كل حركة أقوم بها نتاج جهد إرادي، وهو ما جعلني أتساءل أحياناً إن كان ثمة من لم يلاحظ ذلك. كنت أسمع صوتي وأعجب منه، فهو هادئ سليم ولكنه يخلو دون شك من كل نغم. بالرغم من ذلك قدمت عرضاً لا يعوزه شيء، ذلك أمر مؤكد. وإذا كنت رأيت تعبيراً ينم عن الشك أو الفضول فإنه يظهر عادة على الوجوه السوداء لا البيضاء.

أما الحفل الحقيقي فلا أتذكر سوى القليل منه. ألواح تذكارية من الرخام معلقة على الحيطان لتمجيد مزايا الجيل الأخير من الزارعين. وهم جميعاً من

المحسنين، جميعاً من مالكي العبيد. يستقرون هنا في راحة وسلام. عندما خرجنا من الكنيسة أخذتُ يدها. كانت باردة كالثلج في الشمس الحارة.

بعدها وجدت نفسي أجلس إلى طاولة طويلة في غرفة مزدحمة. مراوح من سعف النخيل، حشد من الخدم، مناديل مخططة بالأحمر والأصفر تلف بها النسوة رؤوسهن، وجوه الرجال المعتمة. طعم البنش القوي وطعم الشمبانيا الأصفى، عروستي في ثيابها البيض بالرغم من أنني لا أكاد أتذكر هيأتها. ثم غرفة أخرى فيها نسوة يلبسن السواد. الخالة جوليا، الخالة آدا، الخالة لينا. كن متشابهات جميعاً، النحيفات منهن والبدينات. أقراط ذهبية في آذان مثقوبة. أسورة فضية على معاصمهن تصدر عنها أصوات متنافرة. قلت لإحداهن:

- سنغادر جامايكا هذه الليلة.

أجابت بعد صمت:

- طبعاً. أنطوانيت لا تحب المدينة الأسبانية. وكذلك أمها من قبل.

تمعن في النظر. (هل تزداد عيونهن ضيقاً كلما كبرن؟ تصبح أضيق، أشبه بالخرز، فيها تساؤل أوضح؟) وجدت في أعقاب ذلك أنني أرى الانطباع ذاته على وجوههن جميعاً. أهو فضول؟ أسف؟ سخرية؟ ولكن لماذا يأسفن من أجلي؟ أنا الذي لم أفعل سوى ما ينفعني؟

في الصباح السابق للزواج اندفع ريتشارد ميسون إلى غرفتي في بيت آل فريسر وقد انتهيت لتوي من أول فنجان قهوة.

- إنها لا تريد أن تستمر في الأمر!

- لا تريد أن تستمر في ماذا؟

- لا تريد أن تتزوج منك.

- ولكن لماذا؟

- لم تذكر سبباً.

- لابد أن لديها سبباً محدداً.

- ترفض إعطاء سبب. لقد أمضيتُ ساعة أجادلها، الحمقاء الصغيرة.

حدقنا في بعضنا.

- لقد أعددنا كل شيء، الهدايا، الدعوات. ماذا سأقول لوالدك؟

بدا موشكاً على البكاء. قلت:

- إذا كانت لا ترغب فليكن. لا يمكن أن نجرها إلى المذبح جراً. دعني ألبس. لا بد أن أسمع ما تريد أن تقول.

خرج منصاعاً. فكرت وأنا أرتدي ملابسي في أن هذا الرفض سيجعلني أبدو أحمق بالفعل. لم أكن لأستسيغ العودة إلى إنجلترا خاطباً مرفوضاً نكثت هذه الفتاة الكريولية وعدها له. لا بد أن أعرف السبب بشكل مؤكد.

وجدتها تجلس في كرسي هزاز وقد مال رأسها إلى الأسفل. شعرها يستقر في ضفيرتين على كتفيها. دنوت منها وقلت بلطف:

- ما الأمر أنطوانيت؟ ماذا فعلتُ؟

لم تقل شيئاً.

- ألا ترغبين في الزواج مني؟

- لا.

كان صوتها خافتاً لا يكاد يُسمع.

- ولكن لماذا؟

- أنا خائفة من العواقب.

- ولكن ألا تتذكرين ما قلته لك في الليلة الماضية، ألم أقل إنك حين تصبحين زوجتي سينتفي كل سبب يدعوك إلى الخوف؟

قالت:

- نعم، لكن ريتشارد دخل عندها وضحكتَ أنت. لم تعجبني الطريقة التي ضحكتَ بها.

- لكني كنت أضحك من نفسي أنطوانيت.

نظرت نحوي فأخذتها بين ذراعيّ وقبلتها. قالت:

- أنت لا تعرف أي شيء عني.

- سأثق بكِ إن وثقتِ بي. هل تكون صفقة بيننا؟ سأكون في غاية التعاسة إن رفضتني دون أن تخبريني بما فعلته لأسبب غيظك مني. سأذهب بقلب حزين.

- قلبك الحزين.

قالت ولمست وجهي. اندفعتُ أقبلها وأعدها بالسلام والسعادة والأمان. لكنها لم تجبني حين سألتها:

- هل أقول لريتشارد المسكين إنها كانت غلطة؟ إنه حزين أيضاً.

اكتفت بإيماءة من رأسها.

***

بينما كنت أفكر بهذه الأمور وبوجه ريتشارد الغاضب وصوتها وهي تقول «هل تقدر أن تمنحني الاطمئنان؟» غلبني النوم.

استيقظت على وقع أصوات في الغرفة المقابلة، ضحكات وماء يُراق. أصغيت وأنا لا أزال أغالب النعاس. قالت أنطوانيت:

- لا تضعي مزيداً من العطر على شعري. إنه لا يحبه.

الأخرى:

- رجلٌ لا يحب العطر؟ لم أسمع بذلك من قبل.

كان المكان مظلماً تقريباً.

في غرفة الطعام إضاءة باهرة. شموع على الطاولة وأخرى مصفوفة على الخوان، شمعدانات ثلاثية الفروع على الخزانة البحرية القديمة. البابان المؤديان إلى الشرفة مفتوحان ولكن لا ريح. كانت ألسنة النار تتصاعد بخطوط مستقيمة. تساءلت وأنا أتطلع إليها جالسة على الأريكة كيف لم أميّز من قبل على الإطلاق مقدار جمالها البارع؟ شعرها يؤطر وجهها وينسدل بنعومة حتى يصل أسفل خصرها. أستطيع رؤية الأضواء الحمر والذهبية تتلامع عليه. حين أطريت ثوبها بدا عليها الرضا وأخبرتني بأنه صُنع خصيصاً لها في سنت بيير في المارتينيك.

- يسمّون هذا الموديل طراز جوزفين.

قلت:

- تتكلمين عن سنت بيير كما لو كانت باريس.

- ولكنها باريس الهند الغربية.

على الطاولة تناثرت زهور وردية اللون ظل أسمها يتردد في رأسي بوقع محبب؛ كوراليتا، كوراليتا. كان الطعام، بالرغم من المبالغة في تتبيله، أخف وألذ من أي طعام ذقته في جامايكا. شربنا الشمبانيا. في تلك الأثناء شقت

كثير من الفراشات والخنافس طريقها إلى الغرفة مندفعة نحو الشموع لتسقط ميتة على فرشة المائدة. كنستها أميلي بفرشاة مهلهلة. دون جدوى. سرعان ما دخل المزيد من الفراشات والخنافس.

قالت:

- هل صحيح أن إنجلترا كالحلم؟ إحدى صديقاتي تزوجت رجلاً إنجليزياً وقد كتبت تخبرني بذلك. قالت إن هذا المكان، وتعني لندن، يبدو مثل حلم بارد مظلم، تود أحياناً لو استيقظت منه.

أجبت بغضب:

حسناً. إن جزرك الجميلة تبدو لي هكذا تماماً؛ كالحلم، تعوزها الواقعية.

- ولكن كيف يمكن للأنهار والجبال والبحر أن تخلو من الواقعية؟

- وكيف يمكن أن يكون ملايين الناس مع بيوتهم وشوارعهم غير واقعيين؟

قالت:

- ذلك أسهل كثيراً، بل هو في غاية السهولة. نعم، إن المدينة الكبيرة لابد أن تبدو كالحلم.

فكرتُ «لا، ما أنا فيه هو اللاواقعي الشبيه بالحلم».

في الشرفة الطويلة كراسي من القنب وأرجوحتان شبكيتان، ثم طاولة خشبية يستقر عليها تلسكوب ثلاثي القوائم. نصبت أميلي شموعاً مظللة بالزجاج لكن الليل أبتلع ضوءها الواهن. ثمة عطر زهور نفاذ –وقد أخبرتني أنه عطر الزهور القريبة من النهر التي تتفتح في الليل– وصوت عال تكتمه الغرفة الداخلية لكنه يبقى يصمّ الآذان. وضحت لي:

- إنها الكراك كراكز التي تصدر صوتاً له وقع أسمها، ومعها صراصير الليل والضفادع.

أستندتُ إلى الدرابزين ورأيت مئات الحباحب:

- اوه، نعم... حباحب في جامايكا، إنهم يطلقون عليها اسم «الحسناء» هنا.

فراشة كبيرة، ظننتها لضخامة جناحيها طيراً، أخطأت طريقها إلى إحدى الشموع فأطفأتها وسقطت على الأرض. قلت:

- إنه ذكر فراش ضخم.

- هل حروقه شديدة؟

- إنها الصدمة أكثر منها الإصابة.

رفعتُ الكائن الجميل بمنديلي ووضعته على الدرابزين. ظل ساكناً للحظة، وتمكنت على ضوء الشمعة الخابي من رؤية ألوانه الناعمة الزاهية والتشكيلات المعقدة على أجنحته. هززت المنديل برفق فطار مبتعداً.

- أتمنى السلامة لهذا الجنتلمان المرح.

سيعود مرة أخرى إذا لم نطفئ الشموع. ضوء النجوم يكفي.

بالفعل، كان ضوء النجوم ساطعاً جعل ظلال دعامات الشرفة والأشجار تمتد على الأرض في الخارج. قالت:

- دعنا نتمش الآن، وسأحكي لك قصة.

قطعنا الشرفة إلى الدرجات المؤدية إلى المرج.

لقد تعودنا المجيء إلى هنا في حزيران وتموز وآب هرباً من حرارة الجو. جئت ثلاث مرات مع خالتي كورا المريضة. كان ذلك بعد...

توقفتْ ثم رفعت يدها لتضعها على رأسها.

- إذا كانت قصة حزينة فلا تحكيها لي الليلة.

قالت:

- ليست حزينة، ولكن بعض الأشياء تحدث ثم تبقى ماثلة أمامنا دائماً بالرغم من أننا ننسى سبب حدوثها وزمنه. كان المكان غرفة النوم الصغيرة تلك.

نظرتُ إلى حيث أشارت فلم أرَ سوى هيكل ضيق لفراش وكرسي أو كرسيين.

- أتذكر أن القيظ كان شديداً في تلك الليلة. الشباك مغلق لكني طلبت من كريستوفين أن تفتحه لأن النسيم يهب من التلال في الليل. نسيم البرّ لا البحر. كان القيظ شديداً حتى أن قميص النوم التصق بجسمي، على الرغم من ذلك ذهبت لأنام. لكني استيقظت فجأة. رأيت فأرين كبيرين بحجم القطط يقفان على حافة النافذة ويحدقان فيّ.

- حسناً، وماذا حدث؟

- استدرت وسحبت الغطاء لأعود إلى النوم فوراً.

- وهل هذه هي القصة؟

- لا، لقد استيقظت مرة أخرى بشكل مفاجئ كما في المرة الأولى ولم أجد أثراً للفأرين، لكن خوفاً شديداً تملكني. تركتُ الفراش في الحال وعدوت إلى الشرفة لأستلقي على هذه الأرجوحة الشبكية.

وأشارت إلى أرجوحة شبكية مسطحة رُبطت بحبل من كل زاوية من زواياها الأربع.

- كان القمر بدراً في تلك الليلة بقيت أراقبه مدة طويلة. لم تكن الغيوم لتطارده فبدا ساكناً. وقد سطع نوره عليّ. في الصباح التالي غضبت كريستوفين. قالت إن النوم في ضوء القمر حين يكون بدراً يعدّ من الأمور السيئة جداً.

- وهل أخبرتها عن الفأرين؟

- لا، لم أخبر أحداً حتى الآن. لكنني لم أنسهما.

أردت أن أقول شيئاً يبعث في نفسها الاطمئنان لكن عطر أزهار النهر ضاع قوياً وهيمن على المكان. شعرت بالدوار. قالت:

- هل تشاركها هذا الاعتقاد، خصوصاً وأنني نمت طويلاً في ضوء القمر؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ثابتة لكن عينيها كانتا منسحبتين وحيدتين حتى أنني طوقتها بذراعيّ وهدهدتها كالطفل وغنيت لها. أغنية قديمة كنت أظن أني نسيتها:

«حيّ ملكة الليل الصامت

واسطع قوياً، اسطع قوياً، يا عصفور وأنت تموت»

أصغتْ ثم غنت معي:

«اسطع قوياً، اسطع قوياً، يا عصفور وأنت تموت»

لا أحد في الدار. هنالك في الغرفة شمعتان فقط تبثان ضوءاً ساطعاً. إضاءة غرفتها كابية، وإلى جوار فراشها شمعة مظللة وأخرى على منضدة الزينة. فوق الطاولة المستديرة زجاجة خمر. ملأتُ منها في وقت متأخر جداً قدحين ودعوتها أن تشرب نخب سعادتنا، نخب حبنا ونخب اليوم الذي لن

تكون له نهاية، اليوم الذي سيكون غداً. كنت شاباً عندها، لكنه شباب قصير.

***

استيقظت في الصباح التالي يغمرني ضوء أصفر مخضر وأنا أشعر بالانزعاج كأن أحداً كان يراقبني. لابد أنها استيقظت قبلي بزمن طويل؛ شعرها مضفور وترتدي قميصاً داخلياً جديداً، أبيض اللون. التفتُّ لأضمها بين ذراعيّ وكنت أنوي حل ضفائرها المحكمة لكني سمعت وأنا منهمك في ذلك نقراً ناعماً حذراً على الباب. قالت:

- لقد أرجعتُ كريستوفين مرتين. نحن نستيقظ هنا في وقت مبكر جداً. الصباح هنا أفضل الأوقات.

ثم نادت: ادخلي!

دخلت كريستوفين تحمل قهوتنا. أناقتها تنم عن اهتمام واضح وتضفي عليها هيبة كبيرة. كانت حاشية ثوبها المورّدة المسحوبة خلفها تحدث حفيفاً عالياً كلما مشت. عمامتها الصفراء الحريرية مشدودة بعناية. قرطان طويلان ذهبيان سحبا لثقلهما شحمتي أذنيها إلى الأسفل. تمنت لنا صباحاً سعيداً وهي تبتسم ثم وضعت آنية القهوة وكيك الكسافا وهلام الجوافة على الطاولة المستديرة. نزلتُ من الفراش ودخلتُ غرفة الملابس. لاحظت أن أحداً ما قد طرح ثوبي على الفراش الضيق. نظرت خارج الشباك؛ زرقة السماء الخالية من الغيوم أكثر شحوباً مما تخيلت. لكني أحسستُ بأن الزرقة يغمق لونها أكثر فأكثر بينما أنا أطيل النظر إليها. أخيراً استدرتُ مبتعداً عن الضوء والفضاء وعدتُ إلى غرفة النوم، وكانت لمّا تزل شبه معتمة. وجدت أنطوانيت تستند بظهرها إلى الوسائد مغمضة عينيها. حين دخلتُ فتحتهما وابتسمت. المرأة السوداء التي تحوم حولها هي التي تكلمت، قالت:

- ذُق دم الثور الذي أعددته لك سيدي.

وجدتُ القهوة التي قدمتها لي لذيذة. لها أصابع طويلة، رفيعة وجميلة كما أعتقد. قالت:

- ليست كبول الخيل الذي تشربه السيدات الإنجليزيات. أعرفهن، يشربن ويشربن من بول الخيل الأصفر ثم يثرثرن ويثرثرن محض أكاذيب.

اتجهتْ إلى الباب تجرجر ثوبها ذا الحفيف. عندما وصلت الباب التفتت قائلة:

- أرسلتُ الفتاة لتنظيف الأرضية التي لطّختَها بهريس الياسمين الأحمر، لقد جلب الصراصير إلى الدار. كن حذراً أيها السيد الشاب ولا تدس الأزهار بقدميك.

ثم انسلت خلال الباب.

- قهوتها لذيذة لكن كلماتها فظيعة. ثم ألا تستطيع أن ترفع ثوبها وهي تمشي؟ لابد أنه سيتسخ كثيراً وهي تجر ياردات منه على الأرض.

قالت أنطوانيت:

- بالنسبة لهم الامتناع عن رفع الثوب يدل على الاحترام. وهم يعمدون إليه في أيام الأعياد أو عند الذهاب إلى القداس أيضاً.

- وهل هذا يوم عيد؟

- هي تريده أن يكون يوم عيد.

- مهما كانت الأسباب أعتقد أنها عادة غير نظيفة.

- بل هي نظيفة. أنت لا تفهم على الإطلاق. عدم اهتمامهم باتساخ الثوب محاولة منهم لتبيان أنه ليس الثوب الوحيد لديهم. ألا تحب كريستوفين؟

- إنها امرأة ذات شأن دون شك. لا أستطيع القول إني أحب طريقتها في الكلام.

- إنها لا تقصد سوءاً.

- ثم أنها تبدو كسولة جداً. فاترة الهمة.

- ها أنت ذا تخطيء مرة ثانية. تبدو بطيئة، لكن كل حركاتها صحيحة ولذلك فهي سريعة بالنتيجة.

شربتُ قدحاً آخر من دم الثور. (فكرت؛ دم الثور. الثور الشاب)

- كيف تمكنتِ من وضع مشجب الملابس على هذا العلو؟

لا أدري. وجدته هنا منذ وعيت. لقد تعرض الكثير من الأثاث للسرقة إلا هذا.

ثمة زهرتان ورديتان وُضعت كل واحدة منهما في وعاء صغير بني اللون. إحداهما أتمت نضجها، ما أن لمستها حتى تساقطت تيجانها.

- «تلك الوردة القديمة»، هل القصيدة صحيحة؟ هل مصائر الأشياء الجميلة حزينة دائماً؟

- لا، بالطبع لا.

كانت مروحتها الصغيرة على الطاولة، التقطتْها وهي تضحك ثم استلقت على ظهرها وأغمضت عينيها.

- أعتقد أنني لن أستيقظ هذا الصباح.

- لن تستيقظي. لن تستيقظي على الإطلاق؟

- سأستيقظ ولكن عندما أشعر برغبة في ذلك. أنا كسولة جداً كما تعلم. مثل كريستوفين. غالباً ما أمضي يومي كله في الفراش.

نشرت مروحتها:

- بحيرة الاستحمام قريبة منا تماماً. اذهب إليها قبل أن يشتد القيظ، سيدلك بابتست على الطريق. هنالك بحيرتان؛ إحداهما نسميها بحيرة الشمبانيا لأن فيها مسقطاً مائياً، ليس كبيراً ولكن لمائه على الكتفين لذة فائقة. وهنالك في الأسفل بحيرة جوز الطيب، وهي بنية اللون تظللها شجرة جوز كبيرة. مساحتها تكفي للاستحمام فقط. كن حذراً. احرص على أن تضع ملابسك فوق صخرة ولا تلبسها من جديد إلا بعد أن تنفضها جيداً. ابحث عن النمل الأحمر فهو أسوأ الأنواع. صغير الحجم جداً لكن حمرة لونه اللاصفة تسهّل رؤيته لمن يبحث عنه. كن حذراً.

قالت ذلك وهي تهز مروحتها الصغيرة.

***

ذات صباح، وبعد وصولنا بوقت قصير، وجدت أن صف الأشجار السامقة خارج شباكي مغطى بأزهار صغيرة باهتة البياض لا تكاد لرهافتها تقاوم الريح. وقد تساقطت خلال يوم واحد فبدت على العشب الخشن أشبه بالثلج؛ ثلج يبث عطراً واهناً عذباً سرعان ما ذهبت به الريح بعيداً.

استمر اعتدال الجو فترة أخرى. تواصل طوال ذلك الأسبوع والأسبوع الذي أعقبه والذي أعقبه... ليس من دليل على أي توقف. غادرني ضعفي الناجم عن الحمى ومعه كل الهواجس.

قصدت في وقت مبكر جداً بحيرة الاستحمام وبقيت غارقاً فيها لساعات لا أرغب في مغادرة الماء. كانت تظللها الأشجار والورود التي لا تتفتح إلا في الليل؛ ورود مغلقة بأكمامها بإحكام، متدلية، تستظل بأوراقها السميكة من الشمس.

كان مكاناً جميلاً، متوحشاً، لم تمسه يد؛ بالرغم من كل شيء لم تمسه يد، فيا جاذبية غريبة، مقلقة، سرية، بدا كتوماً لأسراره. أجد نفسي فيه مشغولاً أفكر «ما أرى هو العدم، أريد معرفة ما يخفي المكان وهو ليس عدماً بالتأكيد.»

في وقت متأخر من الظهر، بعد أن زاد دفء الماء، جاءت لتستحم معي. وقد أمضت بعض الوقت تقذف الحصى على صخرة مسطحة في منتصف البحيرة.

- لقد رأيته. لم يمت أو يذهب إلى أي نهر آخر. إنه لا يزال هنا. سرطان البر لا يؤذي. يقول الناس إنه لا يؤذي. أنا لا أميل...

ولا أنا. إنها مخلوقات فظيعة الشكل.

لم تكن تقرّ على قرار، غير متأكدة من الحقائق؛ أية حقائق. عندما سألتها إن كانت الأفاعي التي نراها بعض الأحيان سامة قالت:

- ليست هذه. أفاعي فير دي لانس سامة بالطبع، ولكنها لا توجد هنا.

ثم أضافت:

- ولكن من أين لهم الثقة في هذا؟ هل تعتقد أنهم يعلمون؟

ثم:

- أفاعينا ليست سامة. ليست سامة بالطبع.

لكنها أبدت على الرغم من ذلك ثقة أكيدة بشأن السرطان الهولة الضخم. ذات مرة بعد الظهر، بينما كنت أراقبها وأنا لا أكاد أصدق أنها الكائن الشاحب الصامت الذي تزوجته؛ أراقبها في قميصها الداخلي الأزرق، أزرق منقط بالأبيض يرتفع فوق ركبتيها كثيراً، توقفتْ عن الضحك وصاحت محذرة ثم رمت حصوة كبيرة: كانت رمية صبي اتسمت

بالثقة والرشاقة. رأيت في الأسفل مخالب على شكل كلاب بحواف مثلمة حادة وكانت تختفي.

- إذا ابتعدت عن تلك الصخرة لن يطاردك. إنه يعيش قربها وهو نوع مختلف من السرطانات. لا أعرف اسمه بالإنجليزية. ضخم جداً وطاعن في السن.

بينما نحن نسير إلى البيت سألتها عمّن علّمها هذه المهارة في التصويب.

- اوه... ساندي هو من علمني. صبي لم تقابله مطلقاً.

***

كنا نرى الشمس تنزل كل مساء من المأوى المسقوف بالقش الذي تسميه هي الأجوبا وأسميه أنا البيت الصيفي. نراقب السماء والبحر البعيد يشتعلان حريقاً فيه كل الألوان، تعوم فوقه غيوم كبيرة مهلهلة الأطراف يلسعها اللهب. لكن هذا العرض سرعان ما يرهقني. كنت أتطلع إلى حلول الظلام، وهو لا يتأخر. لم يكن ليلاً أو ظلاماً من النوع الذي أعرفه، بل ليل نجومه ساطعة وقمره غريب، ليل زاخر بضوضاء غريبة. مع هذا فهو الليل لا النهار.

كانت تقول:

- الرجل الذي يمتلك ضيعة كونسليشن(*) ناسك. إنه لا يرى أحداً على الإطلاق. يقال إنه لا يكاد يتكلم.

- إن جاراً ناسكاً يناسبني بالفعل. إنه أمر حسن.

قالت:

---

* يعني الاسم المواساة.

- هنالك أربعة نسّاك في هذه الجزيرة. أربعة نسّاك حقيقيين. أما الآخرون فيدّعون ذلك لأنهم يهاجرون حين يبدأ موسم الأمطار أو تراهم سكارى طوال الوقت. أي حين تحدث أمور محزنة.

سألتها:

- إذن فهذا المكان مستوحد بالفعل كما يوحي؟

- نعم مستوحد. هل أنت سعيد فيه؟

- ومَن لا يكون سعيداً؟

- أنا أحبه أكثر من أي مكان آخر في العالم. كما لو أنه شخص. بل أكثر من شخص.

قلت لأناكدها:

- لكنك لا تعرفين العالم.

- لا، أنا أعرف هذا المكان فقط، وجامايكا بالطبع. كوليبري، والمدينة الاسبانية. أما بقية الجزر فلا أعرفها على الإطلاق. هل العالم يفوق هذا المكان جمالاً؟

كيف يمكن الإجابة عن ذلك؟ قلت:

- إنه مختلف.

أخبرتني أنهم ظلوا مدة طويلة لا يعرفون ما يحدث في كرانبوا.

- حين وصل السيد ميسون (تسمّي زوج أمها السيد ميسون دائماً) كانت الغابة قد ابتلعت الدار.

الحارس سكير، والدار مهدمة، والأثاث برمته تعرض للسرقة حتى

تم اكتشاف بابتست وهو كبير الخدم، في سنت كتس، لكنه مولود في هذه الجزيرة ويرغب في العودة إليها.

- إنه حارس ممتاز.

كانت تقول وأنا أتفق معها، لا أبوح بفكرتي عن بابتست وكريستوفين وكل الآخرين. «يقول بابتست... ترى كريستوفين...» كانت تثق بهم وأنا لا أثق. لكن البوح بذلك صعبٌ عليّ. لم يحن وقته بعد.

ولم نتعرف عليهم عن كثب. المطبخ وحياته المندفعة كان بعيداً عنا. أما النقود التي تنفقها دون تدبر ودون عدّ، غير عارفة كم أعطت أو مَن هم أصحاب الوجوه الغريبة التي تظهر وتختفي، ومع كل ظهور ثمة وجبة طعام كبيرة أو جرعة من الرَّم -اكتشفتُ أن لها أخوات وأبناء خال وخالة وعمات وأخوالاً وأعماماً- ثمة أمور لم أسأل عنها. كانت هي لا تسأل فكيف لي أن أسأل؟

كان كَنسُ البيت ونفض غباره يتم عادة في وقت باكر جداً، يقع في العادة قبل أن أستيقظ. تُحضر هلدا القهوة وتضع إلى جوارها وردتين دائماً. أحياناً ترتسم على وجهها ابتسامة طفولية، ولكنها تطلق في أحيان أخرى قهقهة عالية، خام. أقول لها:

- يا لك من فتاة غبية صغيرة.

- لا، لا، إنها خجولة. البنات هنا خجولات جداً.

بعد الفطور وفي الظهيرة يسود الصمت حتى تحين وجبة المساء التي كانت تُقدّم في وقت متأخرٍ كثيراً عن موعدها في إنجلترا. كنت واثقاً أن التوقيت من نزوات كريستوفين وشطحاتها. بعدها نُترك لوحدنا. كنت أرتبك أحياناً إزاء نظرة جانبية أو رمقة خبيثة عارفة بالرغم من أنها لا تدوم

طويلاً على الإطلاق. كنت أفكر «ليس الآن، لم يحن الوقت بعد.»

عندما أستيقظُ خلال الليل كنتُ أجد المطر يهطل غالباً. زخات خفيفة نزويّة، مطر راقص عابث أو مكتوم أصم سرعان ما يشتد ويزداد إلحاحاً وقوة، صوته عنيد. لكن ثمة موسيقى دائماً، موسيقى لم أسمعها من قبل قط.

بعدها أبقى أتطلع فيها دقائق طويلة على ضوء الشموع متسائلاً «لماذا تبدو حزينة وهي نائمة؟» لاعناً الحُمى أو الخدر اللذين أعمياني إلى هذا الحد، جعلاني ضعيفاً ومتردداً. كنت أتذكر محاولتها للتهرب («لا، أنا آسفة، لا أريد أن أتزوجك»). أتنازلتْ أمام حجج ذلك الرجل ريتشارد وربما تهديداته، لا أثق به كثيراً، أم أمام مداهناتي شبه الجادة ووعودي؟ لقد تنازلت على أية حال، لكنه تنازل باردٌ فاترٌ ظلت تحاول بعده أن تحمي نفسها بالصمت والوجه الأصم. أسلحتها التي تثير الرثاء، لم تنفعها في حينها ولا إلى أمد طويل. إذا كنتُ أنا قد نسيت حذري فإنها هي قد نسيت الصمت والبرود.

هل أوقظها وأصغي إلى ما تقول؟ إلى همساتها وسط الظلام لا في ضوء النهار.

– لم تكن لديّ أية رغبة في الحياة قبل أن أعرفك. كنت أؤمن دائماً أن الموت خيرٌ لي، وأني مضطرة للانتظار زمناً طويلاً قبل أن تحين النهاية.

– وهل أخبرت أحداً بذلك؟

– لا يوجد من أخبره. لا أحد يصغي. أوو... أنت لا تستطيع أن تتخيل كوليبري.

– ولكن بعد كوليبري؟

– بعدها تأخر الوقت كثيراً. لم أتغير.

تبدو طوال النهار مثل أية فتاة أخرى، تبتسم لنفسها في المرآة («هل تحب هذا العطر؟») تحاول أن تعلمني أغانيها حتى سكنتني تلك الأغاني... «وداعاً فولار، وداعاً مَدراس»(*) أو «يا أمي الجميلة». تحدّث فتاتي الجميلة أمها («لا، ليس هكذا: اسمعي الآن، إنها هكذا.») كان الصمت أو الغضب يتلبسانها دون سبب فتلجأ إلى كريستوفين لتثرثر معها بلهجة الباتوا المحلية.

قد أقول:

– لماذا تحتضنين كريستوفين وتقبلينها؟

– ولم لا؟

فأقول:

– أنا لا يمكن أن أحتضنهم وأقبلهم. لا أستطيع.

فتضحك من ذلك طويلاً دون أن تخبرني أبداً عن سبب ضحكها.

لكنها تصبح بحلول الليل إنسانة مختلفة، حتى صوتها يتغير. هنالك دائماً ذلك الحديث عن الموت. (هل تحاول أن تخبرني إنه سر هذا المكان؟ وأن لا طريق آخر سواه؟ إنها تعلم. تعلم.)

– لماذا دفعتني إلى حب الحياة؟ لماذا فعلت ذلك بي؟

– لأني كنت راغباً. ألا تكفي الرغبة؟

– نعم، إنها كافية. ولكن ماذا إن انتهت هذه الرغبة ذات يوم؟ ماذا سأفعل عندها؟ افترض أنك أخذت هذه السعادة بينما أكون أنا...

– وأفقد سعادتي؟ من تصل به الحماقة إلى هذا الحد؟

---

* أغنية فرنسية قديمة عنوانها الأصلي «وداعاً أيها الكريول». م.

قالت:

- لم أتعود على السعادة. إنها تثير فيّ الخوف.

- لا تخافي أبداً. وإذا داخلك الخوف فلا تخبري أحداً.

- أفهم، لكن المحاولة لا تُجدي.

- ما الذي يُجدي؟

لم تجب، لكنها همست ذات ليلة في أذني:

- لو أنني أستطيع أن أموت. الآن وأنا سعيدة. هل تفعلها؟ لستَ مضطراً إلى قتلي. قل موتي وسأموت. ألا تصدقني؟ إذن حاول، حاول. قل موتي وراقبني وأنا أموت.

- موتي إذن! موتي!

راقبتها تموت عدة مرات. بطريقتي لا بطريقتها. في ضوء الشمس، في الظل، في ضوء القمر، في ضوء الشموع. وفي ساعات بعد الظهر الطويلة عندما يخلو البيت. لا شيء غير الشمس في رفقتنا، لكنا نغلق دونها الأبواب. ولِمَ لا؟ فهي سرعان ما تتوق إلى ما يدعى ممارسة الحب مثلي، ثم تصبح أكثر ضياعاً وغرقاً بعده.

قالت:

- يمكنني هنا أن أفعل ما أشاء.

لا يمكنني أنا، لكني قلتها أيضاً. بدا القول صحيحاً في ذلك المكان المستوحد.

- يمكنني هنا أن أفعل ما أشاء.

نادراً ما كنا نلتقي بأحد حين نترك البيت. فإذا التقينا أحداً حيّانا ومضى في سبيله.

تزايد حبي لهؤلاء الناس الجبليين؛ لصمتهم وتحفظهم، ولأنهم ليسوا خنوعين ولا فضوليين إطلاقاً (أو هكذا اعتقدت)، لم أدرك أن نظراتهم الجانبية الخاطفة كانت ترى كل ما يرغبون في رؤيته.

في الليل يبدأ شعوري بالخطر، أحاول أن أنساه، أدفعه جانباً. أقول لها:

- أنت آمنة.

وكانت تحب ذلك، تحب أن يقال لها «أنت آمنة». أو ألمس وجهها برفق فأحس دمعاً. الدمع: لا شيء! الكلمات: أقل من اللاشيء! أما السعادة التي حصلت عليها مني فأسوأ من لاشيء. لم أكن أحبها. كنت متعطشاً لها وذلك ليس حباً. لا أشعر نحوها إلا بأقل القليل من الرقة، كانت غريبة عني، غريبة لا تفكر ولا تشعر مثلي.

ذات مرة بعد الظهيرة رأيت ثوباً لها تركته مطروحاً على أرض غرفة النوم جعلني أحبس أنفاسي، أصير وحشاً يشتعل بالرغبة. عندما بلغ مني الإنهاك مبلغه أدرت لها ظهري ونمت دون كلمة أو مداعبة. حين استيقظتُ كانت تقبلني؛ قبلات ناعمة خفيفة.

- الوقت متأخر.

قالت وابتسمت:

- دعني أُغطِّك. نسيم البر يمكن أن يبرد.

- وأنت ألا تشعرين بالبرد؟

- أوو... أنا سأكون جاهزة في الحال. سألبس الثوب الذي أحببته الليلة.

- نعم، فلتلبسيه!

كانت أرضية الغرفة مرقطة بالثياب؛ ثيابي وثيابها. داست عليها غير آبهة وهي تمضي إلى خزانة ملابسها. وعدتني مستبشرة:

- كنت أفكر بأن أخيط ثوباً آخر يشبهه تماماً. هل يسرك هذا؟

لو أنها طفلة لما كانت غبية بل عنيدة. كانت تسألني عن إنجلترا كثيراً وتصغي لأجوبتي بانتباه لكني بقيت واثقاً أن كل ما أقوله لن يغير شيئاً. لقد اتخذ عقلها شكله النهائي. رواية رومانتيكية، ملاحظة عابرة لم يمحها النسيان، تخطيط، صورة، أغنية، رقصة، نغمة موسيقية؛ كلها تتضافر لتثبت أفكارها عن إنجلترا وعن أوربا. لم أستطع أن أغيّرها، وربما لم يكن بمقدور أي شيء تغييرها. قد يربكها الواقع، يذهلها، يؤذيها لكنها لا يمكن أن تتعامل معه كواقع. يمكن أن يكون غلطة، سوء طالع، مساراً اتخذته خطأً. لا سبيل إلى تغيير أفكارها الثابتة.

لم يكن لأي شيء مما أقوله أثر عليها على الإطلاق.

موتي إذن. نامي. هذا كل ما أستطيع أن أهبه لك... وأعجبُ هل حدست كم كانت تزداد قرباً من الموت؟ بطريقتها لا بطريقتي. ليست هذه اللعبة مأمونة في هذا المكان. وكلها: الرغبة، الكراهية، الحياة، الموت، كلها كانت تتقارب في الظلام حتى تكاد تلتحم. ومن الأفضل أن يبقى مقدار هذا التقارب مجهولاً. من الأفضل أن لا نفكر ولو للحظة واحدة. لسنا متقاربين. ولا فرق...

- أنتِ آمنة.

كنت أقول لها ولنفسي.

اغمضي عينيك واستريحي.

بعدها أتسمع إلى المطر؛ نغمته ناعمة كأنها ستستمر إلى الأبد... امطري، زخي مطرك إلى الأبد. اغمريني بالنوم، دون تأخير.

لا تبقى في صباح اليوم التالي إلا علامات قليلة تدلّ على زخات الليل. إذا كانت بعض الزهور قد هوت فالبقية لا تزال تفوح عطراً أحلى، والهواء أشد زرقة؛ يتلامع متجدداً. وحده الممر الطيني خارج نافذتي كان موحلاً. برك ضحلة من الماء تومض في الشمس الساخنة؛ الأرض الحمراء لا تجف بسرعة.

***

قالت أميلي:

- وصلك هذا سيدي، صباح اليوم الباكر، وقد استلمته هلدا.

أعطتني ظرفاً ضخماً كُتب عليه العنوان بخط كالنقش مُعتنى به. «باليد. عاجل.»؛ عبارة كُتبت بالزاوية.

فكرتُ «إنه أحدُ النسّاك في الجوار. ومعه مرفق لأنطوانيت.» بعدها رأيت بابتست يقف قرب درجات الشرفة فوضعت الرسالة في جيبي ونسيتها.

كنت قد استيقظت متأخراً عن المعتاد في ذلك الصباح، ارتديت ملابسي ثم جلست طويلاً أصغي إلى مساقط الماء بشبه إغماض مستشعراً النعاسَ والانبساط. حين وضعت يدي في جيبي لأُخرج ساعتي لمستُ الظرف وفتحته.

«أيها السيد العزيز. ها أنا ذا ألتقط قلمي برويّة وتأمل، لكن الحقيقة أفضل من الكذب في نهاية المطاف. لدي هذا لأقوله. لقد خدعتك عائلة ميسون خديعة مخزية. ربما أخبروك بأن اسم زوجتك هو كوسوي وأن الجنتلمان الإنجليزي السيد ميسون هو زوج أمها واكتفوا بذلك. لكنهم

لم يخبروك أي نوع من البشر أفراد عائلة كوسوي هؤلاء. إنهم ملّاك عبيد ملؤهم الشر، وهم موضع كراهية الناس منذ أجيال؛ نعم يكرهونهم في جامايكا وكذلك في هذه الجزيرة الجميلة حيث أتمنى لك طول الإقامة وأمتع الأوقات على الرغم من كل شيء، لأن بعض الناس لا يستحقون الأسى. لقد مات كوسوي العجوز في حالة هياج وهذيان كما مات أبوه من قبله.

قد تسأل عن ما لدي من الأدلة على ما أقول وعن السبب الذي يدعوني لأحشر نفسي في قضاياك. سأجيبك عن هذا. أنا شقيق زوجتك من سيدة أخرى، في بيت على مقربة كما نقول. أبوها، وهو أبي، كان رجلاً لا يعرف الخجل، وأنا بين كل أبنائه غير الشرعيين أكثرهم تعاسة وفقراً. ماتت أمي وأنا لا أزال طفلاً صغيراً فتكفلت جدتي أمر رعايتي. وكان السيد العجوز يقدم لها بعض المال لهذا الغرض بالرغم من أنه لم يكن يحبني. لا، لم يكن ذلك الشيطان العجوز يحبني على الإطلاق، ذلك ما تأكدت منه عندما كبرت. وقلت لنفسي لينتظر سيأتي يومي. أما سيرته فيمكنك أن تسأل عنها كبار السن؛ سيرة تثير الاشمئزاز و لابد أن بعضهم سيتذكرها.

عندما توفيت زوجته المدام تزوج الشرير الفاسد مرة أخرى خلال وقت قصير جداً. تزوج فتاة مارتينيكية شابة؛ وهو كثيرٌ بحقه. كان مخموراً حد الموت من الصباح حتى المساء، وقد مات يصب اللعنات في هياج.

بعدها جاء قانون التحرير المجيد وبدأت المشاكل لبعض علية القوم وكبارهم. لم يرغب أحد في العمل لحساب المرأة الشابة وطفليها، وسرعان ما ازدحم ذلك المكان، كوليبري، بالأحراش كما هو شائع هنا عندما لا يكدح أحد في الأرض أو يعمل. بقيت بلا نقود ولا أصدقاء؛ الفرنسيون والإنجليز ظلوا في هذه الجزر كالقط والفأر منذ زمن طويل. يطلقون النار، يقتلون، ويفعلون كل شيء.

هذه المرأة استدعت كريستوفين من المارتينيك أيضاً لتمكث معها، والعجوز جودفري؛ وهو رجل يصل من البلاهة أنه لا يدري شيئاً مما يحدث حوله، وآخرين من أمثاله. والسيدة كوسوي الشابة امرأة تافهة وفاسدة، عاجزة عن عمل أي شيء يعينها. وهكذا سرعان ما أعلن عن نفسه الجنون الكامن في داخلها وداخل كل كريولي أبيض. قبعت في الدار تغلق الأبواب على نفسها، تضحك وتتكلم دون أن يكون معها أحد، وهي حالة يشهد عليها الكثيرون. أما بالنسبة للفتاة الصغيرة، أنطوانيتا، فإنها ما أن أصبحت قادرة على المشي حتى بدأت تخفي نفسها حين ترى أحداً.

كنا ننتظر جميعاً سماع نبأ سقوط المرأة من حافة الهاوية، أو كما نقول هنا «Fini batt'e» ونعني بها «التوقف عن القتال». ولكن لا. إنها تتزوج من جديد رجلاً إنجليزياً ثرياً هو السيد ميسون. وأستطيع أن أقول الكثير عن هذا الزواج، لكنك لن تصدقني لذا فأنا أغلق فمي. قيل إنه يحبها كثيراً وإنه لن يتوانى لو امتلك العالم على صحن من تقديمه لها. ولكن لا فائدة، جنونها يزداد سوءاً حتى يصبح من اللازم حجبها عن العالم بعد أن أقدمت على محاولة قتل زوجها، وهو أمر لم يكن الجنون سببه الوحيد.

تلك سيدي هي أم زوجتك، وذاك هو أبوها. أنا تركت جامايكا وانقطعت أخبار المرأة عني. قال البعض إنها ماتت، وأنكر البعض الآخر موتها. لكن ميسون العجوز يبدي افتتاناً كبيراً بالفتاة أنطوانيت فيترك لها نصف ثروته حين يموت.

أما أنا فقد ضربت في الأرض طولاً وعرضاً دون حظ كبير، لا أملك إلا القليل من المال حتى تناهى إلى أسماعي أن ثمة داراً للبيع في هذه الجزيرة القريبة من ماساكر. دار رخيصة جداً تمكنت من شرائها. لكن الأخبار تسافر حتى إلى هذا المكان المتوحش؛ وكان ما سمعت بعدها من جامايكا أن

العجوز ميسون قد مات وأن العائلة تخطط لتزويج الفتاة من رجل إنجليزي شاب لا يعرف عنها شيئاً. عندها بدا لي أن واجبي المسيحي يحتم عليّ أن أحذر الجنتلمان من أنها فتاة لا تصلح للزواج لما يجري في عروقها من دم فاسد ورثته عن أبويها. لكنهم بيض وأنا ملوّن. هم أغنياء وأنا فقير. وأعتقد، كما يحدث عادة في مثل هذه الحالات، أنهم سارعوا في إتمام الأمر بينما أنت واهن بالحمى لدى الحاكم؛ أي قبل أن تتمكن من طرح الأسئلة. وسواء صح ذلك أم لا فأنا أدعوك أن تتأكد بنفسك.

بعدها جئتَ إلى هذه الجزيرة لتقضي شهر العسل، ولا بد أن الرب وضع على عاتقي هذه المهمة، وهي أن أكون أنا من يقول لك الحقيقة. لكني ترددت مع ذلك.

سمعت أنك شاب وسيم وصاحب كلمة طيبة مع الجميع؛ سوداً و بيضاً وملونين أيضاً، لكني سمعت أيضاً أن الفتاة جميلة كما كانت أمها، وأنك مفتون بها. إنها في دمك وعظامك، ليلاً ونهاراً. لكنك، وأنت رجل جدير بالاحترام، تعلم أن الزواج يتطلب الكثير غير ذلك؛ أي ذلك الذي لا ينتهي. لقد فتنت أمها ميسون العجوز بهذه الطريقة، وانظر ما حلّ به. سيدي، أنا أصلي من أجل أن أكون قد حذرتك ووجّهتك لما يجب أن تفعل في الوقت المناسب.

سيدي، اسأل نفسك كيف أستطيع أن أؤلف هذه القصة وما غايتي من ورائها؟ عندما تركت جامايكا كنت أستطيع أن أقرأ وأكتب وأفك الرموز إلى حد ما. الرجل الطيب في باربادوس علمني أكثر من ذلك، أعطاني كتباً وقال لي اقرأ الكتاب المقدس كل يوم. ولم أجد عناء في اكتساب المعرفة. هو نفسه تعجب من سرعتي. لكني رغم ذلك أبقى جاهلاً وعاجزاً عن تأليف هذه القصة. لا أستطيع. إنها حقيقية.

أجلس إلى جوار الشباك وأرى الكلمات تتقافز مني كالطيور، لكني ألتقط بعضها بعون من الرب.

استغرقت مني هذه الرسالة أسبوعاً. بقيت عاجزاً عن النوم في الليل، أفكر بما سأقول. وها أنا ذا أقترب الآن من الخاتمة وأنهي مهمتي.

أما زلت لا تصدقني؟ إذن اسأل ذلك الشيطان ريتشارد ميسون ثلاثة أسئلة ودعه يُجبك. هل أم زوجتك محجور عليها في مكان مغلق، مجنونة هائجة وأسوأ من ذلك؟ أهي حية أم ميتة؟ لا أدري.

هل كان أخ زوجتك أبله منذ الولادة؟ على الرغم من أن الله قد تكرّم عليه بعطفه فأخذه إلى جواره في وقت مبكر.

هل تمضي زوجتك نفسها قدماً في طريق أمها ذاته والجميع يعلم ذلك؟

ريتشارد ميسون رجل خبيث وسيخبرك الكثير من القصص التافهة؛ وهو ما ندعوه هنا بالكذب. سيقص عليك ما حدث في كوليبري، وهذا وذاك، ولكن إيّاك أن تصغي له. دعه يُجب بنعم أو لا.

إن أغلق فمه فاسأل سواه لأن الكثيرين يعتقدون أن الطريقة التي تعاملك بها تلك العائلة وتعامل أقاربك عار لا يصح السكوت عنه.

أتوسل إليك سيدي أن تأتي لتراني لأن لديّ المزيد مما يجب أن تعرفه. لكن يدي تؤلمني ورأسي يؤلمني وقلبي مثل صخرة بسبب الأسى الذي جلبته لك. المال حسن، ولكن لا مال يساوي وجود امرأة مجنونة في فراشك. مجنونة وأسوأ من ذلك أيضاً.

ها أنذا أضع قلمي جانباً وفي نفسي رجاء واحد أخير: تعال وقابلني بسرعة. خادمك المطيع دانيال كوسوي.

اسأل الفتاة أميلي عن مكان سكني. إنها تعرفه، وهي تعرفني. إنها من أهل هذه الجزيرة.»

طويت الرسالة بعناية ووضعتها في جيبي. لم أشعر بوقع مفاجأة. بدا وكأنني بقيت أتوقع مثل هذا، أنتظره. جلست لوقت لا أدري إن كان طويلاً أم قصيراً أصغي للنهر. أخيراً وقفت وقد اشتدت حماوة الشمس. تمشيت متشنجاً، عاجزاً عن إجبار نفسي على التفكير. بعدها مررت بسحلبية ذات أغصان محملة بزهور بنية مذهبة. مسّت إحداها خدي فتذكرت يوم قطفت لها باقة منها. قلت لها «إنها تشبهك». أما الآن فها أنذا أتوقف لأكسر منها غصناً وأدوسه في الطين. وقد أعادتني هذه الحركة إلى حواسي. استندت إلى إحدى الأشجار متعرقاً مرتجفاً. قلت بصوت عال:

- يا لَهُ من يوم قائظ...

حين صارت الدار على مرمى البصر بدأت أمشي بصمت. لا أثر لأحد في تلك الأنحاء. باب المطبخ مغلق، وبدا المكان مهجوراً. صعدت الدرجات ومشيت على طول الشرفة ثم سمعت أصواتاً فوقفت خلف الباب المؤدي إلى غرفة أنطوانيت. كنت أستطيع أن أرى صورتها في المرآة. كانت تستلقي في الفراش بينما الفتاة أميلي تكنس. قالت أنطوانيت:

- انتهي بسرعة ثم اذهبي وقولي لكريستوفين إني أريد رؤيتها.

أرخت أميلي يديها عن مقبض المكنسة وقالت:

- كريستوفين ستذهب.

رددت أنطوانيت:

- تذهب؟

قالت أميلي:

- نعم تذهب. كريستوفين لا تحب هذه الدار المخصصة لشهر العسل الحلو.

ثم التفتت فرأتني وضحكت ضحكة عالية.

- زوجك خارج الباب، يبدو كمن رأى زومبي. لابد أنه ملّ شهر العسل الحلو هو الآخر.

عندها قفزت أنطوانيت من الفراش وصفعتها على وجهها.

- سأرد عليك الصفعة أيتها الصرصورة البيضاء، سأرد الصفعة.

قالت أميلي، وفعلت.

شدّتها أنطوانيت من شعرها، وكشرت أميلي عن أسنانها كأنها تهم بعضّها. هتفتُ من المدخل:

- أنطوانيت... بحق الرب!

استدارت نحوي بوجه شديد الشحوب. ودفنت أميلي وجهها بيديها، وتظاهرت بالنشيج. لكني استطعت رؤية عينيها تراقباني من خلال الأصابع. قلت لها:

- اخرجي أيتها الطفلة!

فقالت أنطوانيت:

- هل تسمّيها طفلة؟ إنها أكبر من الشيطان نفسه، والشيطان لا يتفوق عليها في القسوة.

قلت لأميلي:

- ابعثي كريستوفين إلى هنا.

- نعم سيدي، نعم سيدي.

أجابت بصوت ناعم وهي تطرف عينيها. لكنها ما أن صارت خارج الغرفة حتى بدأت تغني:

«الصرصورة البيضاء تزوجت

الصرصورة البيضاء تزوجت

الصرصورة البيضاء أشترت رجلاً شاباً

الصرصورة البيضاء تزوجت»

قطعت أنطوانيت بضع خطوات متمايلة. تقدمت منها لأساعدها لكنها دفعتني جانباً وجلست على الفراش. بعدها بدأت تسحب الفَرشة بأسنان مطبقة محاولة تمزيقها لكنها فشلت فطقّت بلسانها علامة الانزعاج. أخذتْ مقصاً من على الطاولة المستديرة قصت به الحاشية ثم شقت الفَرشة إلى نصفين، وشقت كل نصف إلى شرائط. الأصوات التي تعالت منعتني من سماع كريستوفين تدخل، لكن أنطوانيت سمعتها. قالت:

- أنتِ لن تذهبي!

قالت كريستوفين:

- بل أذهب.

قالت أنطوانيت:

- وماذا سيحل بي؟

- انهضي أيتها الفتاة وارتدي ملابسك. يجب أن تتحلى المرأة بالجرأة والشجاعة لكي تعيش في هذا العالم الشرير.

كانت قد غيّرت ملابسها بثوب أسمر باهت قطني ونزعت أقراطها الذهبية الثقيلة. قالت:

- لقد شهدتُ ما يكفي من المشاكل. لي الحق في أن أرتاح. لي دار منحتني إياها أمك منذ وقت بعيد، ولي حديقتي وابني الذي يعمل من أجلي. ولد كسول لكني سأجعله يعمل. إضافة إلى ذلك فإن السيد الشاب لا يحبني، وربما كنت لا أحبه كثيراً. إذا بقيت هنا سأجلب المشاكل والخلافات إلى دارك.

قالت أنطوانيت:

- إن لم تكوني سعيدة فاذهبي إذن.

دخلت أميلي إلى الغرفة حاملة إبريقين من الماء الحار. ألقتْ عليّ نظرة جانبية وابتسمت.

قالت كريستوفين بصوت ناعم:

- أميلي. ابتسمي مثل ذلك مرة أخرى، مرة واحدة فحسب وسوف ترين كيف أهشم وجهك كما أهشم الموز. هل تسمعينني؟ أجيبي أيتها البنت.

- نعم، كريستوفين.

قالت أميلي وقد بدا عليها الذعر.

- إضافة إلى هذا سأنزل عليك مغصاً لم تشهدي مثيلاً له من قبل. قد يلزمك الفراش زمناً طويلاً، ذلك المغص الذي أسببه لك. وربما عجزت عن الشفاء منه إلى الأبد، ذلك المغص... لهذا الزمي الهدوء والاتزان. هل تسمعيني؟

- نعم، كريستوفين.

قالت أميلي وانسلّت خارج الغرفة.

- إنها تافهة لا فائدة منها.

قالت كريستوفين بازدراء.

- تزحف وتدب مثل ذوات الأربع والأربعين.

قبّلتْ أنطوانيت على خدها، ثم نظرتْ نحوي، هزت رأسها وتمتمت باللهجة المحلية قبل أن تخرج.

قالت أنطوانيت:

- هل سمعت ما كانت تلك الفتاة تغنيه؟

- أنا لا أفهم ما يقولون أو يغنون دائماً.

أو أي شيء آخر.

- إنها أغنية عن الصراصير البيض. وهي تعنيني بها. هكذا يسموننا جميعاً، نحن الذين كنا في هذا المكان قبل أن يبيعهم أهلهم في أفريقيا لتجار العبيد. وقد سمعت نساء إنجليزيات يطلقن علينا تسمية الزنوج البيض. وهكذا أتساءل في الغالب وأنا بينكما من أنا وأين بلدي ولمن أنتمي ولماذا ولدت على الإطلاق؟ أرجوك أن تذهب الآن. يجب أن أرتدي ملابسي كما قالت كريستوفين.

***

انتظرت نصف ساعة وطرقت بابها. لم تند عنها أية إجابة فطلبت من بابتست أن يأتيني بشيء آكله. كان يجلس على شجرة برتقال في نهاية الشرفة. وقد قدم لي الأكل وعلى وجهه قنوط شديد حتى أنني فكرت بأن هؤلاء الناس يتأثرون بسرعة مدهشة. كم كان عمري حين تعلمت إخفاء ما أحس

به؟ ولد صغير جداً. ستة أعوام أو خمسة، بل أقل من ذلك. قيل لي إن ذلك أمر ضروري، وهو رأي بقيت أجده مقبولاً دائماً. أما إذا كانوا يعتقدون أن هذه الجبال، أو وجه بابتست، أو عيني أنطوانيت يمكن أن تعترض سبيلي فإنهم مخطئون، ميلودراميون، بعيدون عن الواقع. (قالت لي لابد أن إنجلترا لاواقعية كالحلم).

كان الرَّم الذي شربته قوياً جداً، وقد شعرت بعد انتهاء الوجبة برغبة كبيرة في النوم. ولم لا؟ إنه الوقت الذي ينام فيه الجميع. تخيلت أن الكلاب والقطط والديكة والدجاج كلها نائمة، حتى الماء في النهر استرخى في جريانه.

استيقظتُ. فكرت مباشرة بأنطوانيت وفتحت الباب المؤدي إلى غرفتها، لكنها كانت نائمة أيضاً. توليني ظهرها وجسدها ساكن تماماً. نظرت خارج الشباك. كان الصمت مقلقاً، مطلقاً. كم تمنيتُ أن أسمع صوت كلب يعوي أو من ينشر خشباً. ولكن لا شيء. صمت. قيظ. الوقت هو الثالثة إلا خمس دقائق.

***

خرجت متعقباً الممر الذي طالما تطلعت إليه من شباكي. لابد أن مطراً ثقيلاً قد نزل خلال الليل، فالطين الأحمر موحل تماماً. مررتُ بمزرعة أشجار القهوة المتناثرة، ثم بأجمات مبعثرة من أشجار الجوافة. تذكرت في مسيري وجه أبي وشفتيه الرفيعتين، عيني أخي المدورتين المغرورتين. لقد كانا يعلمان. وريتشارد الأحمق، كان يعلم هو الآخر. والفتاة بابتسامتها الجوفاء. كلهم كانوا يعلمون.

صرت أمشي بسرعة كبيرة ثم توقفت حين رأيت أن الضوء قد أختلف. صار ضوءاً أخضر. لقد وصلت الغابة ولا يمكنك أن تخطئ الغابة. إنها

عدائية. النبات يغطي ممرها لكن تعقبه أمر ممكن. استأنفت السير دون أن أنظر إلى الأشجار الطويلة على الجانبين. مررت بجذع ساقط يحتشد عليه النمل الأبيض. فكرتُ: كيف يمكن للإنسان اكتشاف الحقيقة؟ لكن تفكيري لم يقع على قرار. لا أحد يمكن أن يخبرني الحقيقة. لا أبي ولا ريتشارد ميسون ولا، بالتأكيد، الفتاة التي تزوجتها. وقفت جامداً، موقناً يقيناً تاماً بأن ثمة من يراقبني، حتى أنني نظرت عبر كتفي. لا شيء سوى الأشجار والضوء الأخضر يتخللها. تبعت درباً لا يكاد يبين، وأنا أتلفت إلى الجانبين بحركات سريعة وألقي إلى الخلف نظرة خاطفة بين حين وآخر. وهو ما جعلني أصطدم بصخرة وأكاد أسقط. لم تكن الصخرة ألتي تعثرت بها من الجلمود بل هي جزء من طريق معبد. كان ثمة درب معبدٌ يخترق هذه الغابة. وكان الدرب يقود إلى مكان فسيح خال تلوح فيه أطلال بيت صخري مطوقة بأشجار ورد نمت إلى ارتفاع لا يصدّق. هنالك في مؤخرة الأطلال شجرة برتقال برية مثقلة بالثمار، أوراقها داكنة الخضرة. مكان جميل وهادئ؛ ذلك الهدوء الذي يصل بالمرء إلى حد رؤية كل تفكير أو تخطيط ضرباً من الحماقة. ما الذي يمكن أن أفكر فيه وكيف أستطيع أن أخطط؟ لاحظت تحت شجرة البرتقال باقات صغيرة من الورد مربوطة بالحشائش.

لا أدري كم مضى من الوقت قبل أن يبدأ شعوري بالبرد. كان الضوء قد تغيّر والظلال استطالت. فكرت في أن من الأفضل لي العودة قبل حلول الظلام. بعدها رأيت فتاة صغيرة تحمل على رأسها سلة كبيرة. التقيتُ بعينيها، وقد أدهشني أنها أطلقت صرخة عالية ورفعت ذراعيها تعدو مبتعدة. سقطت السلة منها، ناديت خلفها لكنها صرخت مرة أخرى وزادت من سرعة عدوها. كانت تنشج وهي تعدو بصوت ضئيل مرتعب. ثم اختفت. فكرت أنني لا بد وأن أكون على مبعدة دقائق عن الممر، لكني وجدت بعد

مسيرٍ بدا لي طويلاً أن الشجيرات الخفيضة والنباتات المعترشة بدأت تمسك بساقيّ والأشجار تطبق على رأسي. قررت أن أعود إلى الأرض الخالية من الشجر وأبدأ من جديد. لم يكن يجديني تذكير نفسي أنني لست بعيداً عن الدار. كنت تائهاً وخائفاً بين هذه الأشجار المعادية، واثقاً ثقة تامة بالخطر المحدق بي حتى أنني لزمت الصمت حين سمعت وقع أقدام وصيحة. وقد اقترب وقع الأقدام واقترب الصوت فصحت لأرد عليهما. لم أميّز بابتست في البداية. كان يرتدي بنطلوناً قطنياً مسحوباً إلى الأعلى فوق ركبتيه وحزاماً عريضاً مزخرفاً حول خصره النحيف. كان يحمل منجلاً طويلاً عكست حافته الحادة كالموسى بلونها الأبيض المزرّق خيوط الضوء. لم يبتسم حين رآني. قال:

- لقد بحثنا عنك طويلاً.

- تهت.

أجاب بنخرة وتقدمني يمشي في الطريق بسرعة كبيرة وهو يقطع كل غصن أو نبات معترش بتطويحة مستريحة من منجله. قلت:

- كان يوجد طريق هنا ذات يوم، هل تعرف إلى أين يؤدي؟

قال:

- لا طريق.

- لكني رأيته. طريق مرصوف شبيه بالطرق التي يشقها الفرنسيون في الجزر.

- لا طريق.

- من عاش في تلك الدار؟

- يقولون ناسك. بيير ليليفر، عاش هنا قبل زمن طويل.

قلت:

- مرت طفلة وقد اعتراها رعب شديد حين رأتني. هل يوجد شيء سيئ في المكان؟

هز كتفيه. ألححتُ:

- هل يوجد شبح، زومبي هنا؟

- لا أعرف شيئاً عن هذه الحماقات.

- كان يوجد طريق هنا في وقت سابق.

- لا طريق.

كرر بعناد.

كان الظلام قد أتمّ انتشاره تقريباً حين عدنا على ممر الطين الأحمر. صار يتمهل في سيره، التفت لي وابتسم. بدا وكأنه يضع من جديد قناع الخدمة على الوجه المعنّف المتوحش الذي رأيته.

- ألا تحب الغابات في الليل؟

لم يجب، لكنه أشار إلى ضوء وقال:

- لقد أمضيتُ وقتاً طويلاً في البحث عنك. خشيت السيدة أنطوانيت أن تكون قد تعرضت لسوء.

عندما وصلنا الدار داهمني قلق شديد. قال:

- يبدو كأنك أصبت بالحمى.

- بل كنت مصاباً بها من قبل.

لا أثر لأحد في الشرفة، لا صوت يأتي من الدار. وقفنا معاً في الطريق

تتطلع إلى الأعلى، ثم قال:

- سأبعث إليك الفتاة سيدي.

جاءتني هلدا بطست كبير من الصابون وبعض الفاكهة. حاولتُ أن أفتح باب غرفة أنطوانيت، لكنها كانت مزلجة لا ضوء فيها. أطلقت هلدا كركرة. كركرتها متوترة.

قلت لها إنني لا أريد أي طعام، وطلبت منها أن تأتيني بالرَّم مع قدح. شربتُ ثم تناولت الكتاب الذي كنت أقرأه وعنوانه «اكليل الجزر المتألقة». قلبت الصفحات إلى فصل «الأوبيا»:

«الزومبي شخص ميت يبدو وكأنه على قيد الحياة، أو هو شخص حي يبدو ميتاً. ويمكن أن يكون الزومبي روح مكان أيضاً. وهو عادة ما يكون مؤذياً، لكن استرضاءه ممكن في بعض الأحيان ويكون بتقديم الضحايا والعطايا من الورود والفواكه.» [فكرت مباشرة بباقات الورد المرمية على أطلال دار الناسك] «إنهم يصرخون في الريح التي هي صوتهم، ويصخبون في البحر الذي هو غضبهم».

هكذا أخبروني، لكنني لاحظت أن الزنوج يرفضون عموماً مناقشة السحر الأسود الذي يؤمن به الكثيرون. وهو يُسمى فودو في هايتي، وأوبيا في بعض الجزر، وله اسم آخر في جنوب أمريكا. ومما يزيد في خلط الأمور أنهم يلجؤون إذا ما أجبروا على الإجابة إلى نسج الأكاذيب. البيض الذين يصدقون كل ما يقال لهم أحياناً يتظاهرون باستبعاد الأمر برمته بوصفه تافهاً. وهو يعزون حالات الموت المفاجئ أو الغامض إلى سمّ معروف لدى الزنوج يصعب التعرف على حقيقته. والأمر يزداد تعقيداً بـ...»

***

لم أنظر إلى الأعلى بالرغم من أني رأيته في الشباك، بل تقدمت بفرسي دون تفكير حتى وصلت الصخور. الناس هنا يسمونها مونس مورس (وتعني الموتى). وقد نفر بريستون منها؛ ويقال إن الخيول تفعل هذا دائماً. بعدها تعثر والتوى حافره فترجلتُ ومشيتُ وأنا أشد اللجام على ذراعي. كان القيظ يشتد وأنا متعبة. وصلت الممر المؤدي إلى دار كريستوفين وهو مكوّن من غرفتين وسقفه مكسو بألواح خشبية بدلاً من القش. وجدتها تجلس على صندوق تحت شجرة المانجو، تدخن غليوناً طينياً أبيض. هتفتْ:

- أهو أنت أنطوانيت؟ ما الذي جاء بك مبكرة إلى هذا المكان؟

قلت:

- لكي أراك فقط.

ساعدتني على حلّ حزام السرج وقادت بريستون إلى نهر قريب. شرب كأن به ظمأ شديداً، ثم نفض نفسه ونخر. اندفع الماء من خياشيمهِ. تركناه يحصد الحشائش وعدنا إلى شجرة المانجو. جلستْ على صندوقها وسحبت لي صندوقاً آخر، لكني جثوت قربها ماسة خلخالها النحاسي الرفيع الذي ظلت تلبسه دائماً. قلت:

- لك الرائحة نفسها.

قالت:

- هل قطعت كل هذه المسافة لتقولي ذلك؟

كانت لملابسها رائحة القطن النظيف، منشّاة ومكويّة. طالما رأيتها تقف في النهر في كوليبري يصل الماء إلى ركبتيها وتنورتها الطويلة مسحوبة إلى الأعلى، تغسل ملابسها وقمصانها الداخلية ثم تضربها على الصخور. أحياناً تظهر معها نساء أخريات ينزلن جميعاً بغسيلهن على الصخور مراراً وتكراراً

بصخب مرح منشغل. أخيراً ينشرن الثياب الندية في الشمس، يمسحن جباههن ثم ينطلقن في الضحك والحديث. كانت لها رائحتهن نفسها، دافئة جداً وتبعث الراحة في نفسي (لكنها لا تحبها). كانت السماء زرقاء قاتمة تتخايل من وراء أوراق المانجو الخضراء الغامقة، فكرت «هذا مكاني، إليه أنتمي وفيه أود أن أبقى». ثم فكرت «أية شجرة جميلة، إلا إنها عالية جداً هنا بالمقارنة مع أشجار المانجو وربما كانت لا تثمر أبداً». فكرت بالاستلقاء لوحدي في فراشي ذي الحشية القطنية الحريرية الناعمة والشراشف اللطيفة، والاصغاء. قلت أخيراً:

– كريستوفين، إنه لا يحبني، أعتقد أنه يكرهني. لقد صار ينام في غرفة تبديل الملابس دائماً، والخدم يعلمون. إن أبديت الغضب لزم هو السخرية والصمت. أحياناً يتعمد أن لا يكلمني ساعات وساعات. أنا لا أستطيع أن أحتمل أكثر، لا أستطيع. ماذا أفعل؟ لم يكن هكذا في البداية.

كان ينمو أمام بابها خباز وردي وأحمر. أشعلتْ غليونها ولم تجب. قلت:

– أجيبيني.

نفخت غيمة دخان.

– تطلبين مني أمراً صعباً، وأطلب منك أمراً صعباً؛ ارزمي حوائجك واذهبي.

– أذهب؟ أذهب إلى أين؟ إلى مكان غريب لن أراه فيه أبداً؟ لا، لن أذهب، عندها سيضحك مني الجميع، ليس الخدم وحدهم بل الجميع.

– لن يضحك منك أحد إن ذهبت. سيضحكون منه.

– لن أفعل ذلك.

- لماذا تسألني إذا كنت ترفضين إجابتي؟ لماذا جئت إلى هنا إذا كنت تقولين لا عندما أقول لك الحقيقة؟

- لكن لابد أن يوجد شيء آخر أستطيع عمله.

بدت كئيبة. قالت:

- حين يكف الرجل عن حبك تزيد كراهيته لك كلما حاولت استعادته، هكذا هم الرجال. إن أبديت لهم الحب عاملوك أسوأ معاملة وإن أبديت لهم الصد لاحقوك ليل نهار وضايقوك. لقد سمعت عنك وعن زوجك.

- لكني لا أستطيع أن أذهب. إنه زوجي بالرغم من كل شيء.

بصقت عبر كتفها:

- ما النساء بكل ألوانهن إلا حمقاوات. لي ثلاثة أبناء، أحدهم يعيش في هذا العالم. لكل واحد من هؤلاء الأبناء أب مختلف، لكني أعيش الآن دون زوج، وأحمد الربّ على هذا. أنا أصون نقودي ولا أضطر إلى إعطائها إلى رجل تافه.

- إلى أين يتوجب عليّ الذهاب، إلى أين؟

- لا أتوقع منك سوى المشاكل؛ فتاة مثلك بيضاء غنية وحماقتها تفوق حماقة الأخريات. ما الصعب في هذا؟ رجل يسيء معاملتك، إذن فلترفعي تنورتك وتخرجي. افعلي ذلك وسيتبعك.

- لن يتبعني. ويجب أن تفهمي أنني لست ثرية الآن، لا أملك نقوداً خاصة بي على الإطلاق. كل ما أملك صار له.

قالت بصوت حاد:

- ما هذا الذي أسمع؟

- هذا هو القانون الإنجليزي.

- قانون! كرّسه ذلك الولد ميسون، الولد الأسوأ من الشيطان، سيُحرق في نار جهنم لا محالة في إحدى الليالي اللطيفة. اصغي إلي الآن وأنا أنصحك بما تفعلين. اخبري زوجك بأنك تعانين من المرض وتريدين زيارة عمك في المارتينيك. اسأليه بإلحاح أن يعطيك بعض النقود، والرجل ليس سيئ القلب، سيعطيها. عندما تذهبين امكثي هناك واطلبي المزيد. سيعطي من جديد وبقناعة تامة لكنه سيأتي في النهاية ليتحقق مما تفعلين، كيف أصبحت وأنت بعيدة عنه؛ إذا رآك بدينة ومرحة فسيطلبك مرة أخرى. هكذا هم الرجال. أفضل شيء لك عدم البقاء في تلك الدار القديمة. غادري تلك الدار، هذا ما أقول لك.

- هل تعتقدين أن عليّ مغادرتها؟

- أنت تسألينني وأنا أجيب.

قلت:

- نعم، سأتمكن من ذلك في نهاية المطاف، ولكن لماذا الذهاب إلى المارتينيك؟ أريد أن أرى إنجلترا. أعتقد أني قادرة على استلاف النقود من أجل ذلك. ليس منه، ولكني أعرف كيف أحصل عليها. يجب أن أسافر بعيداً إن كان لابد من أذهب.

فكّرتُ؛ منذ مدة وأنا تعيسة غاية التعاسة، لا يمكن أن يدوم هذا الحال؛ أن أبقى تعيسة إلى هذا الحد. ذلك سيقتلني. إن عشت في إنجلترا سأكون إنسانة مختلفة وستحدث لي أشياء مختلفة... إنجلترا، الزاهية كالورد في خارطة كتاب الجغرافية، لكنها تزدحم على الصفحة المقابلة بالأسماء المتقاربة المتجهمة. صادرات، فحم، حديد، صوف ثم الواردات وشخصية السكان. أسماء مثل

أسكس، كيلمسفورد على نهر تشلمر. سهول يوركشاير ولنكولنشاير المرتفعة. سهول مرتفعة؟ هل يعني ذلك تلالاً؟ كم هو ارتفاعها؟ نصف ارتفاع تلالنا أم أنها لا تصل حتى إلى هذا الحد؟ أوراق باردة خضر في صيف قصير بارد. صيف. هناك حقول الذرة التي تشبه حقول قصب السكر على الرغم من أن لونها ذهبي وليست طويلة كثيراً. بعد الصيف تتعرى الأشجار ثم يأتي الخريف والثلج. أهو ريش أبيض متساقط؟ أم قصاصات ورق متساقطة؟ يقولون إن الجليد يتشكل على زجاج النوافذ فيبدو كالوردة. لابد إن أوّسع معارفي. أعرف الدار التي سأشعر فيها بالبرد واللانتماء، الفراش الذي سأتمدد عليه بستائره الحمر. لقد نمت هناك مرات عديدة من قبل، منذ زمن طويل. كم طوله؟ وسأشهد في ذلك الفراش وأنا نائمة نهاية حلمي. لكن حلمي لا علاقة له بإنجلترا، يجب أن لا أفكر بهذا الشكل، يجب أن أتذكر الثريّات والرقص، طيور التم والزهور والثلج. والثلج.

قالت كريستوفين التي كانت تراقبني:

- إنجلترا. هل تؤمنين بوجود مثل هذا المكان؟

- وهل يساورك الشك في وجوده؟ أنت تعلمين أنه موجود.

- أنا لم أرَ هذا المكان اللعين فكيف يتأتى لي أن أعلم.

- ألا تصدقين بوجود دولة تدعى إنجلترا؟

أطرقت وأجابت بسرعة:

- لم أقل إنني لا أصدق، قلت لا أعلم، أنا أعرف ما أرى بعيني وأنا لم أرها إطلاقاً. فضلاً عن ذلك أسألُ نفسي هل هذا المكان كما يقال عنه حقاً؟ البعض يقول شيئاً، ويقول البعض الآخر شيئاً مختلفاً. أسمع من يقول إنها باردة برداً يكفي لتجميد عظامك، وأنهم فيها يسرقون نقودك، أذكياء

كالشيطان. تحملين نقوداً في جيبك، ثم تبحثين عنها وبُم! لا نقود. لماذا تريدين الذهاب إلى وكر اللصوص البارد هذا؟ إذا كان هذا المكان موجوداً فأنا لم أرده قط، ذلك أمر مؤكد.

حدقتُ فيها مفكرة «ولكن كيف يتسنى لها توجيهي إلى أفضل ما أفعل، هذه الجاهلة، الزنجية العنيدة العجوز، غير الواثقة من وجود مكان مثل إنجلترا؟» نقرت غليونها وحدّقت بي مرة أخرى، لم يكن في عينيها أي انطباع. قلت:

- كريستوفين، يمكن أن أفعل ما تنصحينني به، ولكن ليس الآن. (فكرت لقد حان الوقت الذي أفصح فيه عن سبب مجيئي). أنا متيقنة أنك عرفتِ الغاية من مجيئي حالما رأيتني، وأنتِ تعرفينه بالتأكيد الآن. أليس كذلك؟

سمعت صوتي يعلو ويصبح رفيعاً. قالت:

- صه. إذا كان الرجل لا يحبك فأنا لا أستطيع أن أجعله يحبك.

قلت:

- بل تستطيعين، أعلم أنك تستطيعين. ذلك ما أتمناه، وذلك هو السبب في مجيئي إلى هنا. أنتِ تستطيعين أن تجعلي الناس يحبون أو يكرهون. أو... أو يموتون.

طوحت برأسها إلى الخلف وأطلقت ضحكة عالية. (لكنها لا تضحك بصوت عال أبداً، لماذا هي تضحك الآن؟)

- إذن فأنت تصدقين تلك القصة المستورة عن الأوبيا التي سمعتِ بها وأنت بهذا العمر؟ هذه حماقة وبلاهة. ولتعلمي أن هذه المشاكل ليست من اختصاص بيكي. حين يتدخّل بيكي تحدث مشاكل سيئة جداً.

قلت:

- يجب أن تساعديني، يجب!

- صه. ابني جوجو آتٍ ليراني. إذا وجدك تبكين فسيخبر الجميع.

- سأكون هادئة، لن أبكي. ولكن كريستوفين لو أن زوجي أتاني ليلة واحدة، مرة واحدة، إذن لجعلته يحبني.

- لا دودو، لا.

- نعم كريستوفين.

- أنتِ تنطقين بالحماقة نفسها. حتى لو استطعتُ جلبه إلى فراشك فأنا لن أستطيع أن أجعله يحبك. سيكرهك في ما بعد.

- لا. وما يهمني؟ إنه يكرهني الآن. أسمعه كل ليلة يذرع الشرفة جيئة وذهاباً. جيئة وذهاباً. عندما يمر ببابي يقول «طابت ليلتك برثا». إنه لا يسميني أنطوانيت الآن. لقد اكتشفت أنه كان اسم أمي. «أتمنى لك نوماً هادئاً برثا»... لن يكون الأمر أسوأ. لو جاء ليلة واحدة ربما استطعت النوم بعدها. أما الآن فنومي مضطرب وأحلامي كثيرة.

- لا، لن أتدخل في هذا من أجلك.

بعدها وجدتُ نفسي أهوي بقبضتي على صخرة وأنا أتماسك لأتحدث بهدوء:

- الذهاب بعيداً إلى المارتينيك أو إنجلترا أو إلى أي مكان آخر هو الافتراء بعينه. لن يعطيني أي نقود لأسافر، وسيغضب إن سألته ذلك. إن تركته فستكون فضيحة، وهو يكره الفضيحة. حتى لو سافرت (وكيف؟) فأنه سيجبرني على العودة. كذلك سيفعل ريتشارد والآخرون جميعاً.

يتعذر الهرب منه ومن هذه الجزيرة. ما الحجة التي سأقدمها للسفر؟ ومن سيصدقني؟

عندما أحنت رأسها بدت عجوزاً، وفكرت «أوو كريستوفين، لا تصبحي عجوزاً. أنت الصديق الوحيد الذي أملك، لا تجعلي الهرم ينأى بك عني.» قالت:

– من المؤكد أن زوجك يحب النقود. ذلك ليس افتراءً. للنقود بريق يجتذب الجميع، ولكن ذلك الرجل يحبها كما يحب نفسه. إنه لا يرى سواها.

– ساعديني إذن.

– اسمعي دودو يا عزيزتي. الكثير من الناس ينشرون كلاماً سيئاً عنك وعن أمك. أعرف ذلك. وأعرف من الذي يتكلم وما يقول. الرجل ليس سيئاً، حتى ولو كان يحب النقود، لكنه يسمع الكثير من القصص وهو حائر أيها يصدق؟ ذلك سبب ابتعاده عنك. أنا لا أثق بأي شخص من المحيطين بك. ليس هنا، ليس في جامايكا.

– حتى الخالة كورا؟

– خالتك امرأة عجوز الآن، وهي تولي وجهها صوب الحائط.

قلت:

– كيف عرفت ذلك؟

لأن ما قالته هو ما حدث مثلاً.

***

عندما مررت بغرفتها سمعتها تتشاجر مع ريتشارد وعرفت أن السبب زواجي. كانت تقول له:

- هذا خزي وعار. أنت تضع كل ما تمتلك الطفلة في يد شخص غريب عنها تماماً. أبوك لم يكن ليسمح بذلك أبداً. لا بد من حمايتها بقوة القانون. يمكن التوصل إلى ترتيب حل بل ولا بد من ترتيبه. وذلك ما كان يسعى إليه.

قال ريتشارد:

- إنك تتكلمين عن جنتلمان شريف وليس عن وغد مارق. أنا لست في وضع يسمح لي بإملاء الشروط كما تعلمين جيداً. وإذا أخذنا كل شيء بنظر الاعتبار فهي محظوظة حد اللعنة في الحصول على رجل مثله. ثم لماذا أصرّ على حلول المحامين بينما أنا أثق به؟

ثم أضاف بصوت متأثر:

- أنا استطيع أن أأتمنه على حياتي.

قالت:

- ولكنك تأتمنه على حياتها هي لا حياتك أنت.

طلب منها أن تغلق فمها ونعتها بالعجوز الحمقاء وصفق الباب وخرج. كان يستشيط غضباً حتى أنه لم يلاحظ وقوفي في الممر. عندما دخلتُ غرفتها وجدتها تجلس منتصبة على سريرها:

- الفتى نصف عاقل، أو هو يدّعي ذلك. ما رأيت من أحوال هذا الجنتلمان الشريف لم يرق لي. إنه متصلب، جامد كاللوح، غبي كالقدم إلاّ في الحالات التي يتعلق فيها الأمر بمصلحته.

كانت ممتقعة ترتعش برمتها. أعطيتها أملاح الشم من على منضدة الزينة. زجاجات حمر مذهبة من الأعلى. قرّبتُ الزجاجة من أنفها لكن يدها

تهاوت كأن التعب بلغ بها حداً يمنعها من الإمساك بها. بعدها استدارت مولية ظهرها الشباك والسماء، المرآة وكل الأشياء الجميلة على منضدة الزينة. سقطت الزجاجة الحمراء المذهبة على الأرض، استدارت هي بوجهها صوب الحائط.

- لقد تخلى عنا الرب.

قالت وأغمضت عينيها. لم تعاود الكلام وتصورت بعد برهة أنها نامت. لم تحضر زفافي لمرضها فذهبت أنا لأودّعها، كنت أشعر بالسعادة والحماسة لفكرة أنه شهر عسلي الآن. قبلتها وأعطتني حقيبة حريرية صغيرة.

- خواتمي، بينها خاتمان ثمينان. لا تريها له. اخفيها بعيداً عنه. عديني بهذا.

وعدتها، ولكن عندما فتحتها وجدت أن أحد الخاتمين من الذهب الخالص. فكرت أني كنت قادرة على بيع خاتم آخر بالأمس. ولكن من يشتري ما أبيع هنا؟...

كانت كريستوفين تقول:

- خالتك امرأة عجوز مريضة. وذلك الولد ميسون مخلوق تافه. كوني جريئة على أتم الاستعداد وكافحي من أجل مصلحتك. كلّمي زوجك بهدوء وبرود، خبّريه عن أمك وعن كل ما حدث في كوليبري، سبب مرضها وما فعلوه بها. لا تصيحي بوجه الرجل ولا تظهري على وجهك انطباعات تدل على التهور. امتنعي حتى عن البكاء. البكاء لا ينفع معه. كلّميه بلطف، اجعليه يفهم.

قلت:

- لقد حاولت. لكنه لا يصدقني. لقد فات أوان ذلك كله. (فكرت أن

أوان الحقيقة يفوت دائماً) سأحاول مرة أخرى بشرط أن تفعلي ما أريد. أوو كريستوفين، أنا خائفة جداً. لا أدري لماذا، لكني خائفة جداً. طوال الوقت. ساعديني.

قالت شيئاً لم أسمعه. بعدها أخذت عصا حادة ورسمت خطوطاً ودوائر على الأرض تحت الشجرة، ثم مسحتها بقدمها.

- تتكلمين معه أولاً ثم أفعل ما تطلبين.

- الآن؟

قالت:

- نعم. انظري إليّ الآن. انظري في عينيّ.

حين وقفتُ شعرت بالدوار. دخلت هي الدار متمتمةً ثم خرجت تحمل كوباً من القهوة. قالت:

- فيه جرعة جيدة من الرَّم. يبدو وجهك كأنه وجه امرأة ميتة وعيناك حمراوان مثل عجوز من مصاصات الدماء. حافظي على هدوئك... انظري، جوجو آتٍ نحونا، إنه ينشر بين الجميع كل ما يسمع. ليس إلا قرعة يابسة مثقوبة هذا الولد.

بعد أن شربتُ القهوة بدأتُ أضحك. قلت:

- يا لتعاستي البالغة، لقد كانت من أجل لا شيء، لا شيء.

كان ابنها يحمل سلة كبيرة على رأسه. راقبت ساقيه البنيتين القويتين تتمايلان على الممر بمرونة. بدا مندهشاً ومتسائلاً حين رآني، لكنه سأل عن أحوالي بأسلوب مهذب باللهجة المحلية وعن صحة السيد، هل هي جيدة؟

- نعم، جوجو، شكراً لك نحن الاثنين في حال حسنة.

ساعدته كريستوفين على إنزال السلة، ثم أخرجت زجاجة رم أبيض وصبت نصف قدح أبيض وشربته بسرعة. بعدها ملأت الكأس بالماء فشربه كما يفعلون. قالت بالإنجليزية:

- السيدة تنوي الذهاب وحصانها هناك في الخلف. اسرجه لها.

سرتُ في أعقابها إلى الدار. كان في الغرفة الخارجية طاولة خشبية ومسطبة مع كرسيين متداعيين. غرفة نومها واسعة ومعتمة. لا تزال تملك لحافها الزاهي متعدد الألوان وسعفة من يوم الأحد السابق لعيد الفصح ودعاء من أجل موت سعيد. لكنني بعد أن لاحظت في إحدى الزوايا كومة من ريش الدجاج لم أنظر حولي مرة أخرى.

- إذن فقد بدأت تخافين بالفعل، هه؟

حين رأيت الانطباع على وجهها أخرجت محفظتي من جيبي وقذفت بها نحو الفراش.

- ليس مطلوباً منك أن تعطيني نقوداً. أنا أفعل هذه الحماقة لأنك رجوتني، ليس من أجل المال.

- هل هي حماقة؟

قلت هامسة فضحكت هي مرة أخرى ضحكة ناعمة.

- إذا قال بيكي إنها حماقة فهي إذن حماقة. بيكي ذكي كالشيطان. بل هو أكثر ذكاء من الرب. أليس كذلك؟ اسمعي الآن وسأقول لك ما يتوجب عليك عمله.

عندما خرجنا إلى ضوء الشمس وجدنا جوجو يمسك بريستون قرب صخرة كبيرة. وقفتُ عليها وصعدت.

- وداعاً كريستوفين، وداعاً جوجو.

- وداعاً أيتها السيدة.

- لابد أن تأتي لرؤيتي قريباً كريستوفين.

- نعم، سآتي.

التفت إلى الخلف لأنظر إلى نهاية الممر. وجدتها تتحدث إلى جوجو وهو يصغي لحديثها بفضول واستمتاع. على مقربة صاح ديك وفكرت «صياحه دليل خيانة، ولكن من الخائن؟» لم تكن راغبة في أن تفعل ذلك. أنا أجبرتها بنقودي القبيحة. ماذا يعرف أي منا عن الخونة أو السبب الذي دعا يهوذا لفعل ما فعل؟

أستطيع أن أتذكر كل لحظة من ذلك الصباح. إن أغمضت عيني أستطيع أن أرى زرقة السماء الغامقة وأوراق المانجو، الخباز الوردي والأحمر، والمنديل الأصفر الذي كانت تلف به رأسها وتشده على الطريقة المارتينيكية إذ تبرز منه عقدتان إلى الأمام. لكنني أرى كل شيء ساكناً الآن، ثابتاً إلى الأبد كالألوان في زجاج شباك ملوّن. وحدها الغيوم تتحرك. كان الشيء الذي أعطته لي ملفوفاً في ورقة. أشعر به بارداً وناعماً على جلدي.

***

- ذهبت السيدة في زيارة.

قال لي بابتست حين جاءني بالقهوة في ذلك الصباح.

- ستعود الليلة أو غداً. كان قرارها سريعاً.

بعد الظهر جلبت لي أميلي رسالة ثانية:

«لماذا لا تجيب؟ ألا تصدقني؟ اسأل شخصاً آخر، الكل في المدينة

الأسبانية يعلمون. ما الذي دفعهم إلى أن يأتوا بك إلى هذا المكان؟ هل تريد أن آتي إلى دارك وأفضح أمرك بالصراخ أمام الجميع؟ إما أن تأتي إلي وإما أن آتيك أنا...»

عند هذه النقطة توقفتُ عن القراءة. حين جاءت الصبية هلدا إلى الغرفة سألتها:

- هل أميلي موجودة؟

- نعم أيها السيد.

- قولي لها إن لديّ حديثاً معها.

- نعم أيها السيد.

وضعت يدها فوق فمها كأنها لتقاوم ضحكة، لكن عينيها، وهما الأكثر سواداً بين كل ما رأيت من عيون حتى إن سوادهما يمنع من تمييز البؤبؤ من القزحية، كانتا تنمّان عن القلق والاستغراب.

جلست في الشرفة مولياً ظهري البحر، بدا وكأني أمضيت حياتي كلها أفعل ذلك. لم أكن أستطيع تخيل مناخ مختلف أو سماء مختلفة. كنت أعرف شكل الجبال معرفتي الآنيتين البنيتين المزدحمتين بالزهر الأبيض الأخاذ العاطر على الطاولة الخشبية. وكنت أعلم أن الفتاة ستأتي في ثوب أبيض. ستكون بنية وبيضاء، جعدات شعرها، تدعوه شعر فتاة بيضاء، مغطاة إلى النصف بمنديل أحمر، حافية القدمين. ستتشكل الصورة من السماء والجبال، الزهر والفتاة، والشعور بأن ذلك كله ليس إلا كابوساً لا يخفف عني إلاّ الأمل بأني قد أستيقظ يوماً منه.

استندتْ بخفة إلى درابزين الشرفة؛ رشيقة دون مبالاة، لكنها تملك ما يكفي لإثارة الاحترام، وظلت تنتظر. سألتها:

- هل أعطاك أحد هذه الرسالة؟

- لا أيها السيد. استلمتها هلدا.

- هل الرجل الذي يكتب صديقك؟

قالت:

- ليس صديقي.

- لكنه يعرفك أو هكذا يقول.

- أوو نعم، أنا أعرف دانيال.

- حسناً جداً إذن. هلّا أخبرته أن رسائله تزعجني وأني أفضل أن لا يكتب لي مرة أخرى، وهو أمر في صالحه. أما إذا جاءك برسالة فأرجعيها إليه. هل فهمت؟

- نعم أيها السيد. فهمت.

ما تزال تستند على الدرابزين، وقد ابتسمت لي. شعرت أن ابتسامتها يمكن أن تتحول في أية لحظة إلى ضحكة عالية. ولكي أمنع هذا قلت:

- لماذا يكتب لي؟

أجابت ببراءة:

- ألم يذكر ذلك؟ أيكتب رسالتين ولا يخبرك عن سبب الكتابة؟ إذا كنت لا تعرف فأنا إذن لا أعرف.

قلت:

- لكنك تعرفينه؟ هل صحيح أن اسمه كوسوي؟

- بعض الناس يقولون نعم وبعضهم يقولون لا. هكذا يسمّي نفسه.

أضافت متأملة أن دانيال رجل ممتاز فهو يواظب على قراءة الكتاب المقدس ويعيش مثل البيض. حاولت أن أكتشف ما تعني بذلك فوضّحت لي أن لديه داراً كالبيض فيها غرفة واحدة فقط للجلوس، وأن لديه صورتين على الحائط لأبيه وأمه.

- بيض؟

- أوو... لا، ملونون.

- لكنه أخبرني في رسالته الأولى أن أباه كان رجلاً أبيض.

هزت كتفيها:

- كل هذه أمور حدثت في زمن بعيد بالنسبة لي.

كان من السهل ملاحظة ازدرائها لهذا الزمن البعيد.

- سأخبره بما تقول أيها السيد.

ثم أضافت:

- لماذا لا تذهب وتراه؟ ذلك أفضل بكثير. دانيال رجل سيئ وسوف يأتيك إلى هنا ليسبب لك المشاكل. من الأفضل أن لا يأتي. سمعت ذات مرة أنه يلقي المواعظ في باربادوس وهو يتكلم كأنه واعظ بالفعل. له أخ في جامايكا في المدينة الأسبانية، هو السيد ألكسندر؛ رجل ثري جداً يملك ثلاثة دكاكين رم ومخزنين للبضائع الجافة.

ثم حدجتني بنظرة حادة كالسكين:

- سمعت ذات مرة أن ابنه ساندي تزوج السيدة أنطوانيت، لكنها محض حماقات. السيدة أنطوانيت فتاة بيضاء تمتلك نقوداً كثيرة ومن غير المعقول أن تتزوج من رجل ملون حتى لو كان لا يبدو ملوناً. اسأل السيدة أنطوانيت وستخبرك.

وكما تفعل هلدا وضعت يدها فوق فمها كأنها لا تسيطر على رغبتها في الضحك ثم ابتعدت. إلا أنها التفتت وقالت بصوت خافت جداً:

- يؤسفني حالك.

- ماذا قلت؟

- لم أقل شيئاً سيدي.

***

هنالك طاولة واسعة يغطيها قماش أحمر مهدب الحواشي جعلت الغرفة تبدو أشد حرارة. الشباك الوحيد مغلق.

قال دانيال:

- وضعتُ كرسيك قرب الباب. تدخل نسمة من الأسفل.

ولكن لا نسمة ولا هبّة هواء. يقع هذا المكان في الأسفل تحت الجبال ويكاد يكون بمستوى البحر نفسه.

- عندما سمعت أنك قادم تناولت جرعة جيدة من الرّم ثم شربت قدح ماء لأبترد. لكنه لم يمنحني البرد، بل تدفق من عيني دموعاً ومناحات. لماذا لم تجب عندما كتبتُ لك لأول مرة؟

أستمر في الكلام وهو يثبت عينيه على نص معلق على الحائط الأبيض القذر «حصتي الانتقام». أخبرني:

- لقد استغرقتَ وقتاً طويلاً أيها السيد. كنتُ مضطراً لاستعجالك.

بعدها مسح وجهه النحيف الأصفر ونفخ أنفه في زاوية من قماش الطاولة. قال وهو لا يزال يتجنب النظر نحوي:

- يسمونني دانيال، لكن أسمي هو إيسو. وكل ما حصلت عليه من أبي اللعين هو اللعنات وصيحات الطرد. أبي هو كوسوي العجوز صاحب الشاهدة الرخامية البيضاء في الكنيسة الإنجليزية في المدينة الأسبانية، المعروضة للجميع. عليها ريشة وشعار باللاتينية وكلمات مكتوبة بحروف كبيرة سود. هذه الأكاذيب لا تنطلي عليّ. أنا أتمنى أن تُربط تلك الصخرة إلى عنقه وتجرجره إلى الجحيم في الآخرة. كتبوا عليها «التقيُّ الذي يحبه كل الناس» لكنهم لم يكتبوا كلمة واحدة عن الناس الذين يشتريهم ويبيعهم كالماشية. كتبوا «الرؤوف بالضعفاء». أية رأفة؟ لقد كان له قلب كالصخرة. أحياناً، بعد أن يملّ امرأة، وهو أمرٌ يحدث بسرعة، يحررها كما حرر أمي، ويعطيها كوخاً وقطعة صغيرة من الأرض (يسمّيها البعض حديقة)، لكن ذلك ليس رأفة، إن دافعه هو الكبرياء الشرير. لم تقع عينيّ على رجل متغطرس ومغرور مثله، يمشي تياهاً وكأنه يملك الأرض كلها. ويردد «لا يهمني أحد...»، دعه ينتظر... إن تلك الشاهدة ماثلة أمام عيني لأني أذهب كثيراً لرؤيتها. أعرف عن ظهر قلب كل الأكاذيب التي يريدون إشاعتها، ولكن لا أحد يقف ويقول لماذا تكتبون أكاذيب في الكنيسة؟ أنا أقول لك هذا كي تعرف مع أي نوع من الناس تتعامل. القلب يعرف مرارته الخاصة به ولكنْ أن يكبتها طول الوقت أمر صعب. أتذكر يوم صب عليّ لعناته وكأنه الأمس. كنت في السادسة عشرة تملؤني اللهفة. انطلقت في وقت مبكر جداً. قطعت كل الطريق إلى كوليبري مشياً على الأقدام، مشياً استغرق مني خمس أو ست ساعات. لم يرفض مقابلتي، استقبلني في غاية البرود والهدوء وأول ما قال لي إني أزعجه دائماً من أجل النقود. ذلك لأني أطلب مساعدته بين حين وآخر لشراء حذاء أو ما أشبه كي لا أمشي حافي القدمين كالزنوج، وأنا لست واحداً منهم. لكنه ينظر إلي وكأني كومة نفايات ويغضب أيضاً. قلت له «لي حقوقي على الرغم من كل شيء». أتعرف ماذا فعل؟ ضحك بوجهي. بعد أن انتهى من الضحك

قال لي: «ما اسمك؟ أنا لا أستطيع أن أتذكر كل الأسماء، أن تتوقع ذلك مني أمر كثير عليّ» قالها كأنه يحدث نفسه. بدا عجوزاً طاعناً في ضوء الشمس الساطع في ذلك الصباح. قلت له «أنت نفسك من أسماني دانيال. أنا لست عبداً خادماً مثل أمي.» قال «أمك مثال الخبث والدهاء. لستُ أحمق. على أية حال فالمرأة ميتة الآن وهذا يكفي، لكني أقسم إن وجدت قطرة واحدة من دمي في كيانك لآكلنّ قبعتي». في تلك اللحظة وصل دمي نقطة الغليان لذلك أجبته صارخاً «كُلها إذن. كُلها. ليس أمامك وقت طويل. لا وقت حتى لتقبيل زوجتك الجديدة وممارسة الحب معها. إنها صغيرة عليك كثيراً». قال «أيها الرب العظيم!» وأحمّر وجهه ثم كساه لون رمادي. حاول أن ينهض لكنه سقط على أعقابه في كرسيه. كانت لديه دواة نحاسية كبيرة على المكتب فقذفني بها في رأسي ولعنني، لكني تجنبتها فضربتْ الباب. أردت أن أضحك لكني غادرت المكان بسرعة. أرسل لي بعدها بعض النقود، دون كلمة، أرسل النقود فقط. وكانت تلك آخر مرة رأيته فيها.

تنفس دانيال بعمق ومسح وجهه مرة أخرى ثم قدم لي بعض الرّم. عندما شكرته وهززت رأسي صبّ لنفسه نصف قدح وعبّه. قال:

– حدث كل هذا في زمن بعيد مضى.

– لماذا تريد أن تراني دانيال؟

بدا وكأن الجرعة الأخيرة جعلته متزناً. نظر نحوي مباشرة وتكلم بنبرة أكثر انبساطاً:

– ألحُّ لأن لدي ما أقوله. عندما تسأل عن مدى صحة ما أقوله لك فأنت تسأل بالرغم من كراهيتك لي، وهي واضحة أمامي؛ لكنك ستتأكد من أن رسالتي الأخيرة لم تكن كذبة. انتبه مع من تتكلم، كثير من الناس

يفضلون التحدث خلفك، أما وجهاً لوجه فإن الهلع يسيطر عليهم، أو هم يفضلون عدم التدخل. الحاكم مثلاً، إنه يعرف الكثير، لكن زوجته تربطها صداقة متينة مع عائلة ميسون وهي ستمنعه دون شك لو حاول الكلام. ثم هناك شقيقي من جهة واحدة ألكسندر، وهو ملوّن مثلي لكنه على العكس مني ليس سيئ الطالع، هذا الرجل مستعد لأن يسرد عليك كل أنواع الأكاذيب. كان الرجل العجوز يفضله على الآخرين وقد ازدهرت أحواله منذ البداية تماماً. نعم، ألكسندر رجل ثري الآن لكنه لا يُظهر ذلك. ولأنه موسر فهو ذو وجهين، ولن يتكلم ضد البيض. ثم هنالك المرأة الموجودة في دارك، كريستوفين. إنها الأسوأ. وهي مجبرة على مغادرة جامايكا لأنها قد أودعت السجن؛ هل تعرف ذلك؟

- لماذا أودعت السجن؟ ماذا فعلت؟

زاغت عيناه عن عيني:

- قلت لك إني تركت المدينة الأسبانية، لا أعرف كل ما حدث. ذلك أمر سيئ جداً. لكنها امرأة أوبيا وقد ألقوا عليها القبض. أنا لا أؤمن بكل تلك الأعمال الشيطانية لكن ثمة من يؤمن بها. كريستوفين امرأة سيئة، وسوف تكذب عليك أكثر من زوجتك. أما زوجتك نفسها فإنها ستغمرك بالكلام الحلو والأكاذيب.

دقت الساعة السوداء المذهّبة على الرف معلنة الرابعة.

يجب أن أذهب. يجب أن أهرب من وجهه الأصفر المتعرق وغرفته الصغيرة الكريهة. جلست ساكناً، خدراً، أحدق فيه.

قال دانيال:

- هل تعجبك ساعتي؟ لقد عملت بمشقة لأشتريها. لكني أعمل

لإسعاد نفسي. لست مضطراً لإسعاد أية امرأة. اشتر لي هذا واشتر لي ذاك. أعتقد أنهن صورة للشياطين. انظر ألكسندر، إنه عاجز عن مفارقتهن الآن. وقد تزوج مؤخراً من فتاة شقراء جداً ومن عائلة محترمة جداً. ابنه ساندي يشبه الرجال البيض، لكنه أكثر وسامة من أي رجل أبيض، ويقال إن الكثير من البيض يستقبلونه في بيوتهم. زوجتك تعرف ساندي منذ وقت طويل. اسألها وستخبرك. رغم أن ظنوني لا تصح دائماً.

ضحك.

- اوو لا، ليس كلها. لقد رأيتهما في وقت كانا فيه يظنان أن لا أحد يراهما. رأيتها وهي... أنت ذاهب، هه؟

قفز إلى المدخل:

- لا لن تذهب قبل أن أخبرك بآخر شيء. هل تريد أن أغلق فمي فلا أقول ما أعرف؟ لقد كانت بدايتها مع ساندي، لكنهم أجادوا خداعك بشأن تلك الفتاة. إنها تنظر في عينيك وتقول كلاماً حلواً، كلاماً كله أكاذيب. أكاذيب. هكذا كانت أمها. بل يقال إنها أسوأ من أمها، حتى وهي لما تكد تتجاوز الطفولة. لابد أنك كنت أصم فلم تسمع ضحكات الناس حين تزوجتها. لا تسقط غضبك عليّ سيدي. لست أنا من يخدعك، أنا من يحاول أن يفتح عينيك... رجل جنتلمان إنجليزي طويل مثلك لا يمكن أن يفكر في لمس فأر صغير أصفر مثلي، هه؟ أنا أفهم جيداً، أنت تصدقني لكنك تريد أن تفعل كل شيء على طريقة الإنجليز. حسناً. سأغلق فمي ولكنك ستبقى عندها مديناً لي بشيء. ماذا تعني خمس مئة باوند بالنسبة لك؟ إنها بالنسبة لي تعني حياتي.

تصاعد القرف في داخلي كالمرض. القرف والغضب.

صاح معولاً:

- حسناً...

ثم ابتعد عن الباب.

- اذهب إذن... اخرج. أنا من يقولها. اخرج. اخرج. وإذا لم أحصل على النقود فأنا أريدك أن ترى ما أستطيع أن أفعل.

ثم نادى خلفي بحقد:

- بلّغ حبي لزوجتك، أختي. ولتتذكر أنك لست أول من قبّل وجهها الجميل. وجه جميل، بشرة ناعمة. لون جميل لا أصفر مثل لوني لكنها أختي رغم ذلك...

في نهاية الممر بعيداً عن مشهد الدار وأصواته توقفت. كان العالم قد استسلم للحرارة والذباب، وبدا الضوء باهراً بعد غرفته الضيقة المظلمة. هنالك معزى مرقطة بالأسود والأبيض مربوطة في مكان مجاور. كانت تحدّق فيّ. وقد بقيت أنا لفترة بدت وكأنها عدة دقائق أحدّق في خضرة عينيها المصفرّة. بعدها مشيت إلى الشجرة حيث تركت حصاني، وابتعدت به بأسرع ما أمكنني.

***

كان التلسكوب قد أزيح جانباً على الطاولة ليفسح المجال لوعاء ممتلئ إلى النصف بالرّم وكأسين على آنية نحاسية خابية. أصغيتُ إلى ضوضاء الليل المتواترة في الخارج، وراقبت موكب الفراشات الصغيرة والخنافس يطير إلى جوف نار الشمعة. ثم صببت جرعة رم وشربتها. فجأة ابتعدت ضوضاء الليل، أصبحت نائية يمكن احتمالها بل وحتى الاستمتاع بها.

- ألا تسمعني بحق الرب؟

قالت أنطوانيت. وهي عبارة قالتها من قبل دون أن أجيبها. قلت هذه المرة:

- سأكون دون شك وحشاً كما تتصوريني إن لم أفعل.

قالت:

- لماذا تكرهني؟

- أنا لا أكرهك، أنا حزين جداً من أجلك، أنا ذاهل.

قلتُ. لكن ذلك لم يكن صحيحاً. لم أكن ذاهلاً، كنت هادئاً. إنها أول مرة أشعر فيها بالهدوء وبامتلاك زمام النفس منذ وقت طويل.

كانت ترتدي الثوب الأبيض الذي أثار إعجابي من قبل، لكنه منزلق دون ترتيب على أحد الكتفين ويبدو واسعاً جداً عليها. راقبتها وهي تمسك معصمها الأيسر بيدها اليمنى، وهي عادة مزعجة.

قالت:

- إذن لماذا لا تدنو مني أو تقبلني، أو تتحدث معي؟ لماذا تتصور أن بمقدوري احتمال هذا كله؟ ما الذي يدعوك إلى معاملتي بهذا الشكل؟ هل لديك أي سبب؟

قلت:

- نعم، لدي سبب.

ثم أضفت بنعومة فائقة:

- يا إلهي.

قالت:

- أنت تدعو ربك دائماً. هل تؤمن بالرب؟

- بالطبع، بالطبع. أنا أؤمن بقوة خالقي وحكمته.

رفعت حاجبيها وانقلبت زاويتا فمها إلى الأسفل بطريقة متسائلة ساخرة. للحظة بدت شديدة الشبه بأميلي. ربما تجمعهما قرابة ما، ذلك ممكن، بل هو معقول تماماً في هذا المكان اللعين.

قلت:

- وأنتِ، هل تؤمنين بالرب؟

أجابت بهدوء:

- لا يهم ما أؤمن به أنا أو تؤمن به أنت لأننا عاجزان عن عمل أي شيء في هذا الصدد. نحن مثل هذه.

قالتها ودفعت فراشة ميتة عن الطاولة.

- لكني وجهت لك سؤالاً كما تتذكر. ألا تجيب عنه؟

شربتُ من جديد وكان عقلي بارداً وصافياً:

- حسناً جداً. ولكنه سؤال يقابله سؤال. هل أمك على قيد الحياة؟

- لا، إنها ميتة. لقد ماتت.

- متى؟

- منذ وقت غير بعيد.

- إذن لماذا قلت لي إنها ماتت وأنت طفلة.

- لأنهم طلبوا مني أن أقول هذا ولأن هذا أمر صحيح. لقد ماتت بالفعل وأنا لا أزال طفلة. ثمة دائماً ميتتان، الميتة الحقيقية والميتة الأخرى التي يعرفها الناس.

قلت:

- اثنتان في الأقل بالنسبة للشخص المحظوظ.

بقينا صامتين دقيقة، ثم أردفتُ:

- لدي رسالة من رجل يدعو نفسه دانيال كوسوي.

قالت بسرعة:

- لا حق له في هذا الاسم. اسمه الحقيقي، إن كان له أي اسم، هو دانيال بويد. وهو يكره البيض جميعاً، لكنه يكرهني أكثر من الجميع. إنه يشيع عنا مختلف الأكاذيب ولديه ثقة تامة بأنك ستصدقه دون أن تصغي إلى الطرف الآخر.

قلت:

- هل يوجد طرف آخر؟

- دائماً يوجد طرف آخر، دائماً.

- بعد رسالته الثانية التي هدد فيها وتوعد فكرت في أن من الأفضل الذهاب إليه ومقابلته.

قالت:

- لقد رأيته إذن وأنا أعرف ما قال لك؛ أمي كانت امرأة مجنونة وسيئة السمعة وأخي الصغير الذي مات ولد معتوهاً أبله وأنا فتاة مجنونة أيضاً. أليس هذا ما أخبرك به؟

- نعم، تلك كانت حكايته. هل ثمة فيها ما هو صحيح؟

قلت ذلك ببرود وهدوء.

سطع ضوء إحدى الشموع فرأيت الهالتين تحت عينيها، رأيت فمها الواهن المبتئس، ووجهها النحيف المتشنج. قلت:

- لنترك الحديث عن هذا الآن. استريحي الليلة.

- بل يجب أن نتحدث عنه.

كان صوتها عالياً مرتجفاً:

- شرط أن تعديني بأن تكوني عاقلة.

لكني فكرت: ليس هذا المكان المناسب ولا الزمان المناسب، ليس في هذه الشرفة الطويلة المعتمة بشموعها الباهتة والليل يترصد مصغياً في الخارج. قلت مرة أخرى:

- ليس الليلة. في وقت آخر.

- ربما سيتعذر عليّ إخبارك في أي مكان أو زمان آخر. لن نؤجله إلى وقت آخر. ليكن الآن. هل أنت خائف؟

قالت مقلدة صوت زنجي، النبرة الصادحة المهينة نفسها.

- بعدها انتبهت إلى أنها ترتجف وتذكرت الوشاح الحريري الأصفر الذي كانت ترتديه. نهضتُ (عقلي شديد البرودة والهدوء وجسدي رازح تحت ثقل كبير). وجدت الوشاح على كرسي في الغرفة المقابلة، وكان ثمة شموع على الخزانة فجلبتها إلى الشرفة، أشعلت اثنتين منها، ووضعت الوشاح حول كتفيها.

- ولكن لماذا لا تخبريني غداً في ضوء النهار؟

قالت بضراوة:

- ليس لك الحق... ليس لك الحق في أن تطرح أسئلة عن أمي ثم ترفض الإصغاء لإجابتي.

- بل سأصغي، نستطيع بالطبع أن نتحدث الآن إذا كانت هذه هي رغبتك.

لكن شعوري بوجود شيء مجهول وعدواني ظل قوياً جداً. قلت:

- لدي شعور حاد بأني غريب هنا، شعور بأن هذا المكان يعاديني ويقف إلى جانبك.

قالت:

- أنت على خطأ تماماً. لا هو معك ولا معي. لا علاقة له بأي واحد منا، وهو ما يجعلك تخاف منه، إنه شيء مختلف. أنا اكتشفت ذلك منذ وقت طويل عندما كنت طفلة. لقد أحببت المكان لأني لم أجد شيئاً آخر أحبه، لكنه لا يبالي، له لا مبالاة الرب الذي تبتهل إليه في الغالب.

قلت:

- يمكن أن نتحدث هنا، كما تشائين تماماً.

كان وعاء الرم على وشك الانتهاء لذلك عدت إلى غرفة الطعام وجلبت زجاجة أخرى من الرّم. لم تكن قد أكلت شيئاً وكانت قد رفضت الخمر أيضاً، لكنها الآن صبت لنفسها جرعة مسّتها بشفاهها ثم وضعتها من جديد.

- تريد أن تعرف أمي. سأخبرك عنها. أخبرك الحقيقة لا الأكاذيب.

بعدها صمتت فترة طويلة حتى أنني قلت بلطف:

- أعلم إنها عاشت بعد موت أبيك وحيدة وتعسة جداً.

قالت:

- وفقيرة جداً. لا تنس هذا. لخمس سنوات سريعة على اللسان طويلة في الحياة. ووحيدة، وحدة مطبقة جعلتها تعتزل الناس. وهو أمر يحدث. لقد حدث لي أيضاً لكن وقعه عليّ أسهل فأنا لا أكاد أتذكر شيئاً آخر قبله. بالنسبة لها كان أمراً غريباً ومخيفاً. ثم أنها كانت جميلة عندها، وقد لازمتني فكرة أنها كلما نظرت في المرآة تحرك الأمل في داخلها وعمدت إلى التظاهر. أنا كنت أتظاهر أيضاً. أشياء مختلفة بالطبع. يمكن أن يتظاهر المرء زمناً طويلاً، لكن كل شيء ينهار في يوم ما وعندها يجد نفسه وحيداً. وقد عشنا وحيدتين في أجمل مكان من العالم، لا يمكن أن يوجد مكان له جمال كوليبري. لم يكن البحر بعيداً عنا إلا أننا لم نسمعه قط، كنا نسمع النهر دوماً. لا بحر. والبيت مشيّد على وفق الطراز القديم، كانت له في زمن مضى جادة من النخل الملكي. هوى منه قسم كبير وقُطع القسم الآخر، أما النخل المتبقي فقد بدا ضائعاً. أشجار ضائعة. بعدها سمّموا حصانها فأصبحت عاجزة عن التجوال. ظلت تعمل في الحديقة حتى عندما تكون الشمس لاهبة وكانوا يقولون لها «ادخلي الآن أيتها السيدة».

- ومَنْ هؤلاء؟

- كانت كريستوفين معنا، والبستاني العجوز جودفري الذي بقي معنا أيضاً. وولدٌ نسيت اسمه. أوو، نعم (ضحكتْ) كان أسمه ديزاسترس(*) لأن جدته كانت تعتقد أنها كلمة جميلة جداً. لكن القس قال «أنا لا أستطيع أن أعمّد هذا الطفل باسم ديزاسترس، يجب أن يكون له اسم آخر» وهكذا أصبح ديزاسترس توماس، كنا ندعوه ساس. كانت كريستوفين هي التي

* معناها بالإنجليزية «مشؤوم».

تشتري لنا الطعام من السوق، واستطاعت إقناع بعض البنات على مساعدتها في الكنس وغسل الثياب. كانت أمي تقول دائماً؛ لولا بقاؤها معنا لهلكنا. مات الكثيرون في تلك الأيام؛ من البيض والسود على حد سواء، وخصوصاً كبار السن. لكن أحداً لا يتكلم عن تلك الأيام الآن. إنها منسية، لم يبق منها إلا الأكاذيب. الأكاذيب لا تنسى أبداً، إنها تستمر وتنمو.

قلت:

- وأنتِ، ماذا عنكِ؟

قالت:

- لم أكن لأحزن أبداً في الصباح. كان كل يوم جديداً بالنسبة لي. أتذكر طعم الحليب والخبز وصوت ساعة جدي تتكُ ببطء وكانت أول مرة ربطت بها شعري بخيط لعدم وجود أشرطة أو نقود تسمح بشرائها. كنت تجد في حديقتنا كل زهور العالم. كنتُ إذا ما شعرت بالظمأ أحياناً ألعق القطرات التي تبقى عالقة بأوراق الياسمين بعد زخة مطر. آه لو استطعت أن أريك كل هذا... لكنهم حطموه، لم يعد الآن موجوداً إلا هنا.

ضربت جبهتها.

- بين أجمل الأشياء سُلّمٌ مقوس من الدرجات الخفيضة ينزل من الممر الصاعد إلى صخرة الركوب. كان سياج السلم من الحديد المزخرف.

قلت:

- حديد مطاوع.

- نعم، حديدٌ مطاوع يتقوس عند نهاية الدرجة الأخيرة على شكل علامة استفهام. حين أضع يدي عليه أحس بالحديد دافئاً وأشعر بالراحة.

- لكنك قلت إنك كنت تشعرين بالسعادة دائماً.

- لا، قلت إنني كنت أشعر بالسعادة دائماً في الصباح. ولكن ليس بعد الظهر، وليس على الإطلاق بعد المغيب، لأن الدار يصبح بعد المغيب مسكوناً وهو شأن بعض الأماكن. بعدها جاء اليوم الذي لاحظت فيه أنني أنمو وأتشكل مثل زنجية بيضاء. بدأت تشعر بالخزي مني، وبدأ كل شيء منذ ذلك اليوم يتغير. نعم، كانت غلطتي، غلطتي في أنها بدأت تخطط وتعمل باندفاع وحمّى لتغير حياتنا. بعد ذلك صار الناس يأتون لرؤيتنا مرة أخرى، وبرغم أني بقيت أكرههم وأشعر بالخوف من عيونهم الباردة المناكدة فقد تعلمت إخفاء مشاعري.

قلتُ:

- لا.

- لم لا؟

قلت:

- لم تتعلمي إخفاءها أبداً.

- تعلمتُ أن أحاول.

قالت أنطوانيت. فكرت أنها ليست على ما يرام.

- حتى حلّت الليلة التي دمروه فيها.

استندت إلى الكرسي وقد شحب وجهها. صببت بعض الرم وقدمته لها لكنها دفعت القدح جانباً بحركة فظة جعلته يتناثر على ثوبها.

- لم يبق منه شيء الآن. داسوه وقد كان مكاناً مقدساً. مقدساً حدّ الشمس!

بدأت أتساءل عن مدى صحة ما تقول، كم المتخيّل منه وكم المشوه؟ من المؤكد أن الكثير من منازل المقاطعات قد أحرق، يمكن للمرء رؤية الحطام متناثراً في كل أرجاء المكان.

أردفتْ بهدوء وكأنها خمنت أفكاري:

- لكني كنت أحدثك عن أمي. في ما بعد أصابتني الحمى، بقيت في دار الخالة كورا في المدينة الأسبانية. وفيها سمعت صراخاً ثم شخصاً يضحك بصوت عال جداً. في الصباح التالي أخبرتني الخالة كورا بأن أمي مريضة وأنها ذهبت إلى المدينة. لم يبد الأمر غريباً بالنسبة لي فهي جزء من كوليبري، إذا كانت كوليبري قد تحطمت وخرجت من حياتي فمن الطبيعي أن تخرج هي أيضاً. بقيت أرقد مريضة لوقت طويل. رأسي مربوط بضماد لأن أحداً قذفني بحجر. قالت لي الخالة كورا إنه يتماثل للشفاء وإنه لن يفسد عليّ يوم زفافي. لكنه أفسد يوم زفافي وجعلني غير صالحة له ولكل ما تبقى لي من أيام وليال.

قلت:

- أنطوانيت، لياليك لم تفسد ولا أيامك. ضعي الأشياء الحزينة جانباً. لا تفكري بها ولن يفسد شيء، أعدكِ.

لكن قلبي كان ثقيلاً كالرصاص. عادت هي لتقول وكأنها لم تسمعني:

- مات بير. وكرهت أمي السيد ميسون. لم تعد تسمح له بالاقتراب منها أو لمسها. قالت إنها ستقتله، وأعتقد أنها حاولت. لذلك أشترى لها داراً واستخدم رجلاً وامرأة ملونين ليقوما على رعايتها. ظل حيناً من الدهر حزيناً لكنه كان يترك جامايكا في الغالب ليمضي اوقاتاً طويلة في ترينيداد. لقد نسيها تقريباً.

- وأنت نسيتها أيضاً.

لم أستطع أن أمنع نفسي عن هذا القول. قالت:

- لست من ينسى. ولكن هي... هي لم تكن تريدني. لقد دفعتني جانباً وصرخت عندما ذهبت لأراها. قالوا لي إنني زدت حالتها سوءاً. كان الناس يتكلمون عنها، لم يتركوها وشأنها، يتكلمون عنها ثم يصمتون حين يرونني. ذات يوم قررت أن أذهب إليها بنفسي. قبل أن أصل دارها سمعتها تبكي. فكرت أنني سأقتل أي شخص يؤذي أمي. نزلت عن حصاني وعدوت مسرعة إلى الشرفة حيث أستطيع النظر إلى داخل الغرفة. أتذكرها بالثوب الذي كانت ترتديه؛ ثوب مسائي قصير جداً، كانت حافية. قربها رجل أسود بدين يحمل قدح رم. قال «اشربيه وسوف تنسين» فشربته دفعة واحدة. صبّ لها المزيد وأخذت القدح وضحكت وقذفته خلف كتفها. تهشم قطعاً صغيرة. قال الرجل للمرأة «نظفيه وإلا فإنها ستمشي عليه» قالت المرأة «اللعنة... ليتها تمشي عليه فربما هدأت» ولكنها بالرغم من ذلك جاءت بمقلاة وفرشاة وكنست كسر الزجاج. رأيت كل ذلك، أما أمي فلم تنظر إليهما. كانت تذرع المكان جيئة وذهاباً ثم قالت «لكن هذه مفاجأة سارة جداً سيد لوتريل. جودفري، خذ حصان السيد لوتريل» بعدها بدا عليها الاعياء، جلستْ على الكرسي الهزاز. رأيت الرجل يرفعها من الكرسي ويقبلها. رأيت فمه مثبتاً على فمها وقد أصبحت هادئة طيعة بين يديه، سمعته يضحك. وضحكت المرأة أيضاً، لكنها كانت غاضبة. عندما رأيتُ هذا هربت. كانت كريستوفين تنتظرني وقد قالت لي عندما عدت باكية «ماذا تريدين من وراء الذهاب إلى هناك؟» قلت لها «صه أيتها الشيطانة، الشيطانة السوداء الملعونة القادمة من الجحيم.» قالت كريستوفين «أي، أي، أي! يبدو عليك الاضطراب والغضب».

صمتتْ وقتاً طويلاً ثم سمعتها تقول كأنها تكلم نفسها:

- لقد قلت كل ما أريد قوله. حاولت أن أجعلك تفهم ولكن لا شيء يتغير.

وضحكتْ.

- لا تضحكي هكذا برثا.

- اسمي ليس برثا، لماذا تسميني برثا؟

- لأني مولع ولعاً خاصاً بهذا الاسم. أنا أفكر بك باعتبارك برثا.

قالت:

- ذلك لا يهم.

قلت:

- أين ذهبتِ عندما خرجت صباح هذا اليوم؟

قالت:

- ذهبتُ لأرى كريستوفين. أنا مستعدة لإجابتك عن أي شيء تريد معرفته. ولكن بكلمات قليلة فالكلمات ليست مجدية، أعرف هذا الآن.

- لماذا ذهبت لرؤيتها؟

- ذهبت أطلب منها أن تفعل شيئاً لأجلي.

- وهل فعلت؟

- نعم.

فترة صمت أخرى.

- ذهبتِ لتطلبي منها النصيحة، أليس كذلك؟

لم تجب.

- ماذا قالت؟

- قالت إن عليّ أن أبتعد... أتركك.

- أوه، هل قالت ذلك؟

قلت مندهشاً.

- نعم، تلك كانت نصيحتها.

قلت:

- أنا أريد أن أفعل شيئاً يعود بالخير علينا معاً. الكثير مما تقولين غريب، مختلف عما أرادوا لي أن أتوقع. ولكن ألا تشعرين بأن كريستوفين ربما كانت على حق؟ وبأن ابتعادك عن هذا المكان فترة من الزمن وابتعادي أنا عنه -تماماً كما ترغبين بالطبع- سيكون أفضل ما نستطيع عمله.

بعدها قلت بصوت حاد:

- برثا، هل تشعرين بالنعاس؟ هل أنت مريضة؟ لماذا لا تجيبين؟

نهضتُ واتجهت إلى كرسيها لأضع كفيها الباردتين بين كفيّ.

- لقد جلسنا هنا طويلاً. الوقت متأخر.

قالت:

- أذهب أنت، أريد أن أبقى هنا في الظلام...

ثم أضافت: إلى حيث أنتمي.

- أوه، هراء.

قلت وأنا أطوّقها بذراعي لأساعدها على النهوض، قبّلتها، لكنها التفتت جانباً. قلت:

- فمكِ أبرد من يديّ.

حاولتُ أن أضحك. في غرفة النوم أغلقت المصاريع.

- نامي الآن، سنعاود حديثنا في الغد.

قالت:

- نعم، بالطبع. ولكن ألا تدخل وتلقي عليّ تحية المساء؟

- بالطبع سأفعل. عزيزتي برثا.

قالت:

- لست برثا هذه الليلة.

قلت:

- بل يجب أن تكوني برثا في هذه الليلة دون كل الليالي.

- كما ترغب.

لاحظت وأنا أخطو إلى غرفتها المسحوق الأبيض منثوراً على الأرض. ذلك كان أول شيء سألتها عنه؛ المسحوق. سألتها: ما هو؟

قالت إنه يستخدم لإبعاد الصراصير.

- ألم تلاحظ أن هذه الدار تخلو من الصراصير وذوات الأربع والأربعين؟ آه لو علمت كم يمكن أن تكون هذه الأشياء فظيعة.

في تلك الأثناء أشعلت كل الشموع فازدحمت الغرفة بالظلال. ثمة ست منها على منضدة الزينة وثلاث على المنضدة المجاورة لفراشها. الضوء

غيّرها. لم أكن قد رأيتها قط بهذا المرح أو الجمال. صبت الخمر في قدحين وأعطتني واحداً وأقسم أنني شعرت قبل أن أشرب بتوق إلى دفن رأسي في شعرها كما اعتدت في السابق.

قلت:

– نحن نتيح للأشباح إثارة قلقنا. لماذا لا نكون سعداء؟

قالت:

– كريستوفين لها معرفة بالأشباح أيضاً، لكنها لا تطلق عليها هذا الاسم؟

لم تكن بحاجة إلى عمل ما عملته من أجلي. سأبقى أقسم دائماً أنها لم تكن بحاجة إلى فعل ذلك. كانت تبتسم حين قدمت لي القدح وأتذكر أنني قلت بصوت لم يكن يشبه صوتي أن ضوء المكان ساطع جداً. أتذكر إطفاء شموع الطاولة المجاورة للفراش، وهو كل ما أتذكر. كل ما سأتذكره عن تلك الليلة.

***

استيقظت في الظلام من حلم كنت فيه أدفن حياً. ظل الشعور بالاختناق يلح عليّ بعد اليقظة. شيء ما يجثم على فمي؛ شَعرٌ ذو رائحة عذبة ثقيلة. قذفته جانباً لكني بقيت عاجزاً عن التنفس. أغمضت عينيّ وتمددت بضع ثوان دون حراك. حين فتحتهما رأيت أن الشموع على مشجب الملابس البغيض قد احترقت كلها، عندها عرفت أين أنا. كان الباب المؤدي إلى الشرفة مفتوحاً وبرد النسيم قارص حتى أنني قررت أن الوقت لابد أن يكون الصباح الباكر، قبل الفجر. أنا أيضاً كنت بارداً، بارداً حد الموت، ومريضاً متألماً. تركت الفراش دون أن أنظر إليها مترنحاً إلى غرفة ملابسي،

وهناك رأيت نفسي في المرآة. فاستدرت برأسي في الحال. لم أكن قادراً على التقيؤ. كنت أشعر برغبة مؤلمة متواصلة فيه.

فكرت في أني قد تسممت. إلا أنها بدت فكرة بليدة مثل طفل يتهجى حروف كلمة يعجز عن قراءتها، وحتى لو أستطاع فلن يكون لها معنى أو سياق. كان الدوار قوياً إلى حد جعلني عاجزاً عن الوقوف فسقطت إلى الخلف فوق الفراش وأنا أنظر إلى البطانية التي كان لونها تنويعاً خاصاً من اللون الأصفر. بعد أن أمضيت بعض الوقت أنظر إليه تمكنت من النهوض إلى الشباك والتقيؤ. بدا وكأن ساعات مرت عليّ وأنا على هذه الحال. كنت أستند إلى الحائط وأمسح وجهي، إلا أن الرغبة في التقيؤ والشعور بالمرض سرعان ما تعاوداني. عندما انتهت ألقيتُ نفسي على الفراش واهناً حد العجز التام عن الحركة.

لم أبذل في حياتي مجهوداً أعظم من ذلك المجهود. كنت تواقاً إلى البقاء مستلقياً حيث أنا لأنام لكني أجبرت نفسي على النهوض. شعرت بالضعف والدوار بالرغم من أن شعوري بالمرض والألم قد توقف الآن. لبست روبي ونثرت ماء على وجهي ثم فتحت باب غرفتها.

كان يغمرها ضوء بارد. نظرت إلى الانحناء الحزين في شفتيها والتقطيبة العميقة بين حاجبيها الكثيفين كأنها قطعت بسكين. بينما كنت أحدق فيها تحركت وطوحت ذراعها إلى الخارج. فكرت ببرود؛ نعم، إنه رائع الجمال، المعصم النحيف والساعد الممتلئ المشتهى والمرفق المدّور والانحناءة بين الكتف وأعلى الذراع. كله ماثل، كله حقيقي. كنت أراقب بكراهية وجهها الذي ازداد نعومة وصار في ميعة الصبا من جديد حين بدا لي وكأنها تبتسم. ربما خدعتني الإضاءة. وما عساه يكون غير ذلك؟

قلت لنفسي قد تستيقظ في أية لحظة. يجب أن أعمل بسرعة. كان قميصها الداخلي الممزق ملقى على الأرض فسحبت الملاءة فوقها بلطف كأنما أغطي فتاة ميتة. رأيت أن أحد القدحين فارغ، لابد أنها أفرغته. في القدح الآخر الموجود على مشجب الملابس وجدت بقايا خمر. غطّست أصبعي فيه وتذوقته. كان مُرّاً. لم أنظر لها مرة أخرى ولكني حملت القدح إلى الشرفة. كانت هلدا هناك تحمل مكنسة. وضعتُ أصبعي على شفتيّ فنظرت نحوي بعينين شديدتي الأتساع ثم قلدتني؛ وضعتْ إصبعها على شفتيها.

ما أن انتهيت من ارتداء ملابسي وخرجت من البيت حتى طفقت أعدو.

لا أتذكر ذلك اليوم بوضوح ولا الاتجاه الذي عدوت نحوه أو الطريقة التي سقطت بها وبكيت أو تمددت منهكاً. لكني وجدت نفسي في النهاية قرب الدار المهدمة وشجرة البرتقال البرّية. هنا وضعت رأسي بين ذراعيّ ولا بد أني نمت بعدها. حين استيقظت كان الوقت متأخراً والريح باردة حد الانجهاد. نهضت وتلمست طريق عودتي إلى الممر الذي يفضي إلى الدار. كنت أعرف كيف أتفادى كل أنواع النباتات المعترشة، ولم أتعثر مرة واحدة. ذهبتُ إلى غرفة ملابسي مباشرة، وإذا كنت قد مررت بأحد فأنا لم أنتبه له، أو كان قد كلمني أحد فأنا لم اسمعه.

كان على الطاولة آنية وإبريق ماء مع قدح، وشيء من كعك السمك البني. شربت الماء كله تقريباً؛ كان ظمئي محرقاً، أما الطعام فلم ألمسه. جلست على الفراش أنتظر. كنت أعلم أن أميلي ستأتي، وأعلم ما ستقول «أنا آسفة من أجلك».

جاءت دون صوت حافية القدمين. قالت:

- جئتُ لك بشيء تأكله.

كانت تحمل دجاجاً بارداً وخبزاً وفواكه وزجاجة خمر. شربت قدحاً دون كلام، ثم آخر. اقتطعتْ هي بعض الطعام وجلست إلى جانبي تطعمني كما لو كنت طفلاً. أحسست بذراعها خلف رأسي دافئاً لكن الذراع الآخر كان بارداً حين لمسته. نظرت إلى وجهها الجميل الخالي من المعنى. اعتدلتُ في جلستي ودفعت الصحن جانباً. عندها قالت:

- أنا آسفة من أجلك.

- لقد قلتِ لي هذا من قبل أميلي. هل هي الأغنية الوحيدة التي تعرفينها.

كان في قولها «نعم» ومضة مرح لكنها حين ضحكتُ وضعت يدها فوق فمي بتفهم. سحبتها لأجلسها إلى جانبي وضحكنا معاً. أتذكر ذلك أكثر من سواه من اللقاء. كانت في غاية المرح، على سجيتها تماماً. ولا بد أنها منحتني شيئاً من مرحها فأنا لم أشعر بلحظة ندم واحدة. لم أكن آبهاً بمعرفة ما كان يحدث خلف الحاجز الخفيف الذي كان يفصلنا عن غرفة نوم زوجتي.

في الصباح، داهمني شعور مختلف بالطبع.

تعقيد جديد. مستحيل. كان جلدها أغمق وشفتاها أغلظ مما تصورت. نومها عميق وهادئ، ولكنها حين فتحت عينيها رأيت فيهما تنبهاً، ثم ضحكاً مكتوماً بعد هنيهة. شعرت بالرضا والأمان لا بالمرح مثلها. أبداً، أقسم أنه ليس المرح. لم أشعر بأية رغبة في لمسها وكانت هي تعلم هذا فقد نهضت في الحال وبدأت ترتدي ملابسها.

- ثوب في غاية الرشاقة.

قلتُ، فعرضت عليّ الطرق المتعددة التي يمكن ارتداؤه بها، يتجرجر على الأرض أو يُرفع لإظهار تنورة مخرمة تحته أو يُسحب أعلى الركبة بكثير.

أخبرتها بأني أزمع مغادرة الجزيرة في وقت قريب لكني أريد قبل أن أغادر تقديم هدية لها. قدمت لها هدية ثمينة، أخذتها دون شكر أو أي انطباع على وجهها. عندما سألتها عما تنوي قالت:

- مرّ عليّ وقت طويل وأنا أعرف ما أريد أن أفعل، وأعرف أنني لن أحصل على ما أريد هنا.

قلت:

- جمالك يسمح لك بالحصول على كل ما تريدين.

- نعم.

وافقت ببساطة: ولكن ليس هنا.

كانت تريد كما يبدو أن تلتحق بأختها التي تعمل خياطة في ديميرارا إلا أنها لا تنوي البقاء في ديميرارا، كما قالت. كانت تريد الذهاب إلى ريو. ثمة كثير من الرجال الأغنياء في ريو. قلت باستمتاع:

- ومتى تشرعين بكل هذا؟

- سأبدأ الآن.

ستنضم إلى زوارق الصيد في ماساكر وتصل المدينة.

ضحكتُ وماحكتها. قلت إنها تولّي هاربة من العجوز كريستوفين.

أجابت دون أن تبتسم:

- أنا لا أكره أحداً لكني لن أبقى هنا.

سألتها كيف ستصل إلى ماساكر. قالت:

- لن أحتاج حصاناً أو بغلاً. لدي ساقان قويتان تكفيان لإيصالي.

حين همّت بالذهاب لم أستطع أن أمنع نفسي من القول بشيء من اللهفة يداخلها شيء من الفوز:

- حسناً أميلي، أما زلت آسفة من أجلي؟

قالت:

- نعم. أنا آسفة من أجلك. لكنّ في قلبي مكاناً للأسف من أجلها أيضاً.

أغلقتْ الباب بلطف. وعدت أستلقي مصغياً إلى الصوت الذي أعلم أني سأسمعه لا محالة؛ صوت حوافر حصان زوجتي وهي تغادر الدار.

انقلبتُ ونمت حتى أيقظني بابتست حاملاً القهوة. كان وجهه كئيباً. أعلن:

- ستغادر الطباخة الدار.

- لماذا؟

هز كتفيه ونشر يديه.

نهضتُ وتطلعت من الشباك فرأيتها تمشي بخطى واسعة خارجة من المطبخ، امرأة ضخمة وقوية. لم تكن تجيد الانجليزية، أو هكذا قالت. وقد نسيت هذا عندما قلت:

- يجب أن أتحدث معها. ما هذه الرزمة الكبيرة على رأسها؟

قال بابتست:

- إنه فراشها. ستعود لتأخذ البقية. لا فائدة من التحدث معها. لن تبقى في هذه الدار.

ضحكتُ:

- وهل ستغادر أنت أيضاً؟

قال بابتست:

- لا. أنا الشخص الذي يراقب هنا.

لاحظت أنه لم ينادني بسيدي أو مولاي.

- والفتاة الصغيرة، هلدا؟

- هلدا تفعل ما أقول لها. هلدا ستبقى.

قلت:

- عظيم. إذن لماذا يبدو عليك كل هذا القلق؟ ستعود سيدتك بعد وقت قصير.

هز كتفيه من جديد وتمتم، ولكنني لم أتمكن من تحديد ما يقول، هل يتكلم عن أخلاقي أم عن العمل الإضافي الذي سيترتب عليه؟ كانت تمتمة باللهجة المحلية.

طلبت منه أن يعلق إحدى أراجيح الشرفة تحت أشجار الأرز حيث أمضيتُ بقية ذلك اليوم.

وفّر لي بابتست وجبات الطعام، لكنه لم يكن يبتسم إلا نادراً، ولا يتكلم أبداً إلا للإجابة عن سؤال. زوجتي لم تعد وبالرغم من ذلك لم يداخلني شعور بالوحدة أو التعاسة. تكفيني الشمس والنوم وماء النهر البارد. في اليوم الثالث كتبت رسالة حذرة إلى السيد فريزر.

أخبرته بأني كنت أتأمل في كتاب عن الأوبيا حين تذكرت قصته عن الحالة التي صادفها. هل لديه أية فكرة عن مكان وجود المرأة الآن؟ أهي لا تزال في جامايكا؟

بعثت بهذه الرسالة مع المراسل الذي كان يظهر مرتين في الأسبوع. ولا بد أنه أجاب على الفور لأنني حصلت على إجابته بعد بضعة أيام:

«طالما فكرت بك وبزوجتك. وكنت على وشك الكتابة إليكما، فأنا لم أنس الحالة في واقع الأمر، والمرأة التي تسأل عنها كانت تدعى يوسفين أو كريستوفين دوبوا أو ما يشبه ذلك. وكانت إحدى خدم عائلة كوسوي. بعد خروجها من السجن اختفت، ولكن ثمة معلومات عامة مفادها أن السيد ميسون ارتبط معها بصداقة. وقد سمعت أن لها، أو أن أحداً منحها، داراً صغيرة وقطعة أرض قرب كرانبوا. إنها امرأة مثقفة بطريقتها الخاصة وتستطيع التعبير عن نفسها بشكل جيد، لكنني لا أحب رؤيتها على الإطلاق وأعدّها شخصاً في غاية الخطورة. أصرّت زوجتي على أنها رجعت إلى المارتينيك بلدها الأم، ولم يرق لها مجرد ذكري لأمرها بهذا الشكل غير المباشر. واليوم تناهى إلى علمي أنها لم تعد إلى المارتينيك، وهو ما جعلني أكتب بسرية تامة لهيل مفتش البوليس الأبيض في مدينتك. إذا كانت تعيش قريبة منك ولاحظت أنها عادت لممارسة أي من سخافاتها بلّغه في الحال، عندها سيرسل زوجاً من رجال البوليس إليك ولن تنجو بسهولة هذه المرة. سأتأكد من ذلك...»

فكرتُ: أكلُّ هذا من أجلك يوسفين أو كريستوفين؟ كل هذا من أجلك يا فينا.

***

الوقت هو نصف الساعة الذي يعقب المغيب، وكنت أسميه مع نفسي نصف الساعة الزرقاء. تسكن فيه الريح ويكون الضوء في أجمل حالاته وتبدو الجبال حادة وكل ورقة في كل شجرة واضحة المعالم ومحددة. كنت أجلس

في الأرجوحة متطلعاً حولي حين اقتربت أنطوانيت على حصانها. مرّت بي دون أن تنظر نحوي، ترجلتْ ودخلت الدار. سمعت صوت اصطفاق باب غرفتها وجرسها اليدوي يُقرع بعنف. جاء بابتست يعدو على طول الشرفة. نزلتُ من الأرجوحة وذهبت إلى غرفة الجلوس. وجدته يفتح الخزانة ويخرج زجاجة رم. صب بعضاً منه في وعاء على آنية مع قدح. قلت:

- لمن هذا؟

لم يجب. قلت ضاحكاً:

- أليس من طريق؟

قال:

- لا أريد أن أعرف شيئاً عن كل هذا!

نادت أنطوانيت بصوت عال:

- بابتست.

- نعم سيدتي.

نظر نحوي مباشرة ثم أخذ الآنية خارجاً.

أما بالنسبة للمرأة العجوز فقد رأيت ظلها قبل أن أراها. هي أيضاً مرت بي دون أن تلتفت نحوي. ولم تذهب إلى غرفة أنطوانيت أيضاً أو تنظر نحوها. مشت على طول الشرفة ثم نزلت الدرجات الواقعة على الجانب الآخر لتدخل المطبخ. خلال ذلك الوقت القصير حل الظلام فدخلت هلدا لتشعل الشموع. حين كلمتها القت عليّ نظرة متوجسة وخرجت تعدو. فتحتُ الخزانة وتطلعتُ في صفوف الزجاجات داخلها. ها هو ذا الرم الذي يقتلك في مئة عام، البراندي، الخمر الأحمر والأبيض الذي تم تهريبه كما أعتقد

من سنت بير في المارتينيك؛ باريس الهند الغربية. وقد اخترت الرم لأشربه. نعم، له في الفم طعم لطيف. بقيت لحظة أنتظر انبثاق الحرارة والضوء في صدري وشعرت بالقوة والدفء يسريان في جسدي. بعدها حاولت فتح باب غرفة أنطوانيت. لم تتحرك إلا قليلاً. لابد أنها وضعت خلفها قطعة أثاث، ربما تكون تلك الطاولة المستديرة. دفعتها مرة أخرى فانفرجت إلى الحد الذي يسمح لي برؤيتها؛ كانت مستلقية على ظهرها في الفراش، مغمضة العينين، ثقيلة الأنفاس وقد سحبت الملاءة حتى ذقنها. على كرسي إلى جوار الفراش كان الوعاء فارغاً وثمة قدح بقي فيه شيء من الرم وجرس يدوي صغير من النحاس الأصفر.

أغلقتُ الباب وجلست أستند بمرفقيّ إلى الطاولة. فكرت أنني أعرف ما يمكن أن يحدث وما يتوجب عليّ أن أفعل. أحسست أن الغرفة حارة إلى حد يبعث الضيق فنفخت على معظم الشموع لإطفائها، وانتظرت في شبه ظلام. بعدها اقتربتُ من الشرفة لأراقب باب المطبخ حيث يتخايل الضوء.

خرجت الفتاة الصغيرة بحركة مفاجئة يتبعها بابتست. وفي الوقت نفسه رن الجرس اليدوي في غرفة النوم. ذهبا معاً إلى غرفة الجلوس وتبعتهما. أشعلت هلدا كل الشموع وهي تقلب عينيها نحوي بخوف. استمر الجرس اليدوي في الرنين.

– امزج لي كأساً جيداً وقوياً بابتست، الكأس الذي أحتاجه.

ابتعد عني خطوة وقال:

– السيدة أنطوانيت...

نادت أنطوانيت:

– بابتست، أين أنت؟ لماذا لا تأتي؟

- سآتي بأسرع ما يمكن.

قال بابتست. ولكنه ما أن تناول الزجاجة بيده حتى أخذتُها منه.

غادرت هلدا الغرفة تعدو. وقفت أنا وبابتست يحدق أحدنا بالآخر. فكرت أن ثمة فكاهة في عينيه الجاحظتين الكبيرتين وفي انطباع الاستغراب التام على وجهه.

صاحت أنطوانيت من غرفة النوم:

- بابتست! كريستوفين! فينا، فينا!

قال بابتست:

- سأدعو كريستوفين.

ثم خرج مهرولاً بسرعة الفتاة الصغيرة نفسها تقريباً.

انفتحت باب غرفة أنطوانيت وعُقد لساني حين رأيتها من الصدمة. كان شعرها منثوراً بلا ترتيب أو لون على عينين قادحتين محملقتين ووجه شديد الاحتقان بدا عليه الانتفاخ. كانت حافية القدمين. لكن صوتها حين تكلمت بدا خافتاً لا يكاد يُفهم.

- قرعتُ الجرس لأني أشعر بالعطش. ألم يسمع أحد؟

قالت ذلك وقفزت قبل أن أتمكن من إيقافها بحركة مفاجئة إلى الطاولة والتقطت زجاجة الرم. قلت:

- يكفي، لا تشربي أكثر.

- وبأي حق توجهني إلى ما أفعل؟ كريستوفين!

نادت من جديد، لكن صوتها تكسّر. قلت:

- كريستوفين عجوز شريرة وأنت تعلمين هذا مثلي. لن تبقى هنا وقتاً أطول.

- لن تبقى هنا وقتاً أطول.

قلدتني وأردفت:

- حتى أنت... حتى أنت. ظننت أنك تحب السود.

قالت وهي لا تزال تتكلم بصوت يتكلف الرقة:

- لكن ذلك لم يكن إلا كذبة مثل كل شيء آخر. أنت تفضل ذوات اللون البني الفاتح، أليس كذلك؟ طالما شتمت المزارعين واختلقت عنهم القصص ولكن ها أنت ذا تفعل فعلهم. الفرق الوحيد أنك تخلصت من الفتاة بوقت أسرع ودون نقود، أو بمبلغ أقل من المال.

قلت أحاول التحدث بهدوء:

- لم تكن العبودية مسألة حب أو كراهية، بل مسألة عدالة.

قالت:

- عدالة. لقد سمعت هذه الكلمة. إنها كلمة باردة. جربتها (كانت لا تزال تتكلم بصوت خافت) وكتبتها. كتبتها عدة مرات وكانت تبدو لي دائماً أشبه بكذبة باردة لعينة. لا توجد عدالة.

شربتْ بعض الرّم وأضافت:

- أمي التي تتكلمون عنها جميعاً، ما العدالة التي حصلت عليها؟ أمي تجلس في كرسي هزاز تتحدث عن خيول ميتة وساسة خيل موتى وشيطان أسود يقبّل فمها الحزين مثلما قبلت أنت فمي.

أصبحت الغرفة حارة لا تطاق. قلت:

- سأفتح الشباك ليدخل بعض الهواء.

قالت:

- سيدخل معه الليل والقمر وعطر تلك الزهور التي تكرهها.

عندما استدرت من الشباك وجدتها تشرب من جديد. قلت:

- برثا.

- ليس اسمي برثا. أنت تحاول أن تجعلني شخصاً آخر، تدعوني باسم آخر. أنا أعلم، إنه نوع من الأوبيا أيضاً.

سالت الدموع من عينيها.

- لو كان أبي، أبي الحقيقي، حياً لما عدت إلى هنا مسرعاً بعد أن يكون قد أنهى الأمور معك. لو كان حياً. أتعرف ما فعلتَ بي؟ لا أعني الفتاة، ليست الفتاة. لكني كنت أحب هذا المكان فحوّلته أنت إلى مكان أكرهه. لقد كنت دائماً أظن أني لو خسرت كل شيء في حياتي فسأبقى أمتلك هذا المكان. وها أنت ذا تفسده. لم أكن لأشعر بالتعاسة من قبل إلا في الأماكن الأخرى، ولكن كل الأشياء الأخرى تهون أمام ما حدث هنا. أنا أكره هذا المكان كما أكرهك، وقبل أن أموت سأريك مقدار كراهيتي لك.

بعدها كفت عن البكاء وهو أمر أثار دهشتي، وقالت:

- هل هي أجمل مني إلى هذا الحد؟ ألا تحبني على الإطلاق؟

- لا، لا أحبك.

قلتُ (وتذكرت لحظتها أميلي وهي تقول «ألا تحب شعري، أليس أجمل من شعرها؟») ثم أردفتُ:

- ليس في هذه اللحظة.

ضحكت من قولي. ضحكة مجنونة.

- ها أنت ترى. هذه هي حقيقتك. صخرة. لكني أستحق كل هذا، ألم تقل لي الخالة كورا لا تتزوجيه ولو كان محشواً بالجواهر؟ بل قالت لي أشياء أخرى كثيرة. قلت لها هل تتكلمين عن إنجلترا؟ وماذا عن جدّي يمر بقدحه فوق إناء من الماء والدموع تجري فوق وجهه من أجل كل الأصدقاء الموتى والراحلين الذين لن يراهم مرة أخرى؟ قالت إن ذلك لا علاقة له بما سمعتْ عن إنجلترا. على العكس:

«قدم بنكي، وساق بنكي

لتشارلي الذي يعبر الماء،

تشارلي، تشارلي».

غنت بصوت أجش. ورفعت الزجاجة من جديد. قلت وقد فقد صوتي هدوءه:

- لا.

تمكنت من الإمساك برسغها بيد والرّم باليد الأخرى، ولكني اضطررت إلى أن أسقط الزجاجة حين شعرت بأسنانها تنبت في ذراعي. ملأت الرائحة الغرفة. أما أنا فقد تلبسني الغضب ولاحظت هي ذلك. حطّمتْ زجاجة أخرى على الحائط ووقفتْ تحمل الزجاج المكسور في يدها ونية القتل في عينيها.

- المسني مرة واحدة فقط وسترى حالاً إن كنت جبانة ملعونة مثلك.

ثم صبت عليّ لعنات شاملة؛ على عينيّ وفمي وكل عضو في جسدي. بدا الأمر كالحلم في الغرفة الواسعة الخالية من الأثاث حيث ضوء الشموع

يخفق وهذه الغريبة محمرة العينين منفوشة الشعر التي هي زوجتي تصيح مطلقة سيلاً من السباب الفاحش في وجهي. في تلك اللحظة الكابوسية سمعت صوت كريستوفين الهادئ:

– اسكتي أنت وكوني هادئة. لا تصيحي. الصياح لا ينفع معه. لقد قلت لك من قبل. الصياح لا ينفع.

انهارت أنطوانيت فوق الأريكة وتواصل نشيجها. نظرت لي كريستوفين بعينين طافحتين بحزن شديد.

– لماذا تفعل كل هذا، هه؟ لماذا لا تأخذ هذه الفتاة التافهة التي لا يُرتجى منها خير إلى مكان آخر؟ ألأنها تحب النقود مثلك تماماً؟ لابد أن ذلك هو سبب لقائكما، شبيه الشيء منجذب إليه.

لم أقدر على تحمل المزيد فتركت الغرفة مرة أخرى لأجلس في الشرفة. كانت يدي تنزف وتؤلمني وقد ربطتها بمنديلي. بدا لي كل ما حولي عدائياً. التلسكوب ينسحب بعيداً عني ويقول لا تلمسني. الأشجار تهددني وظلال الأشجار التي تتحرك ببطء على الأرض تتوعدني. ذلك الوعيد الأخضر. لقد شعرت به منذ وقعت عينيّ على هذا المكان لأول مرة. لا أعرف شيئاً هنا، ولا يبعث الراحة في نفسي شيء.

أصغيتُ. كانت كريستوفين تتكلم بنعومة وزوجتي تبكي. بعدها أُغلق باب. لقد ذهبتا إلى غرفة النوم. سمعت أحداً يغني «وداعاً أيها الحرير» أم هي تلك الأغنية عن يوم واحد وألف عام؟ لكن كل ما يغنون أو يقولون خطر ولا بد أن أحمي نفسي. قطعت الشرفة خلسة وتمكنت من رؤية أنطوانيت مستلقية على الفراش في سكون تام، كالدمية. بدا عليها حتى وهي تهددني بالزجاجة شيء من صفات دمية متحركة. سمعت كلمات التدليل والتحبب

ونهاية منديل رأس ملفوف على شكل أصبع على الحائط. داخلني وأنا أصغي نعاس وبرد.

عدت متعثراً إلى الغرفة الواسعة المضاءة بالشموع وكانت رائحة الرم القوية قد علقت بها. على الرغم من ذلك فتحت الخزانة وأخرجت زجاجة أخرى. ذلك ما كنت أنوي فعله قبل أن تدخل كريستوفين. كنت أفكر بآخر شربة خمر قوية في غرفتي أغلق بعدها البابين كليهما بإحكام وأنام.

***

قالت:

- آمل أن تكون راضياً، أن تكون تام الرضا. أما أكاذيبك فلا نفع في أن تبدأها معي. أنا أعرف ما فعَلتَه مع تلك الفتاة كما تعرفه أنت تماماً، وأفضل. ثم لا يذهب بك الظن إلى أني أخاف منك.

- إذن فقد هرعت إليك تخبرك بأني أسأت معاملتها، أليس كذلك؟ هذا أمر كان يجب أن أتوقعه.

قالت كريستوفين:

- لم تخبرني بشيء، أي شيء. لكنها الحالة ذاتها دائماً. لا يستحق أحد الكبرياء سواك. لتعلم أن لديها من الكبرياء ما يفوق كبرياءك لكنها لا تقول شيئاً. حين وقفتْ على بابي وعلى وجهها تلك النظرة عرفت أنها قد تعرضت لسوء لا محالة. كنت أعلم أن الواجب يحتم عليّ عمل شيء من أجلها ففعلت.

- واضح أنك فعلت، هذا ما لا أشك فيه. ولكن ما الذي فعلته قبل أن تعيديها بحالتها الراهنة؟

- ماذا فعلت! انظر! لا تثيرني أكثر مما أنا عليه من الإثارة. من الأفضل

أن تتجنب هذا، أقول لك. تريد أن تعرف ما فعلت؟ قلت لها دودو إن تعرضت للمشاكل اقصديني وقبلتها. حين قبلتها بدأت تبكي، لم تكن تبكي قبل ذلك. أعتقد أنها حبست دموعها وقتاً طويلاً. لذلك تركتها تبكي. وهو أول شيء تفعله؛ دعهن يبكين، إنه يخفف عن القلب. حين تعبت من البكاء قدمتُ لها قدح حليب ولحسن الحظ كان لدي شيء منه. لكنها لم تبد رغبة في الأكل ولا في الكلام، لهذا قلت لها «تمددي في الفراش دودو، حاولي أن تنامي أما أنا فسأنام على الأرض، ذلك لا يهمني». من المؤكد أنها لم تكن لتنام نوماً طبيعياً. لكني قادرة على جعلها تنام. وهو ما فعلت. أما بالنسبة لما فعلته أنت فستدفع ثمنه ذات يوم.

ثم قالت:

- عندما يصلن تلك الحال فيجب أن يبكين قبل كل شيء. بعدها لا بد أن ينمن. لا تحدثني عن الأطباء، أنا أعرف أكثر من أي طبيب. نزعت عن أنطوانيت ملابسها لكي يكون نومها بارداً ومريحاً، عند ذاك رأيت كم كنت خشناً معها، هه؟

عند هذه النقطة ضحكتْ؛ ضحكة مرحة من القلب.

- ليس ذلك كله إلا شيئاً تافهاً، إنه لا شيء. لو رأيت ما تسنى لي رؤيته في هذا المكان وما اقترف منجل الماشيتي المتوهج ببريق حدّه لما أصبحت عابساً من أجل شيء تافه كهذا. تستطيع أن تزيد حبها لك لو كان هذا ما تريده. ليس هذا السبب في سحنة الموت البادية على وجهها. أوه، كلا.

ثم أردفتْ:

- ذات ليلة كنتُ أمسك بأنف امرأة كاد زوجها يقتلعه تماماً بمنجله. بقيت أمسك به وأرسلت صبياً يعدو إلى الطبيب. ثم وصل الطبيب على

فرس مسرع بعد منتصف الليل ليخيط أنف المرأة. حين أنتهى من ذلك قال لي «كريستوفين، إن لديك قوة بديهة في رأسك». هذا ما قاله لي. في تلك الأثناء ظل زوجها يبكي كالطفل ويردد «دكتور، لم أكن أقصد هذا. لا أدري كيف حدث». قال له الطبيب «أعلم روبرت، ولكن يجب أن لا يتكرر. لماذا لا تترك المنجل اللعين في غرفة أخرى؟» هكذا قال له. ولكن بيتهما لا يحتوي إلا على غرفتين صغيرتين، لذلك قلت «لا أيها الطبيب، أن يضعه قرب الفراش أمر أسوأ بكثير. سرعان ما سيفرمان بعضهما البعض في مدة قصيرة جداً». ضحك الطبيب وضحك. كان طبيباً طيباً. حين انتهى من معالجة أنف المرأة بدا الأنف، لا أقول مثلما كان من قبل، لكنه لا يجذب النظر كثيراً. كان اسمه روبرت. وأصحاب هذا الاسم كثيرون هنا. أحدهم الأمير روبرت، ثم مؤلف الأغاني روبرت الراين. هل رأيته؟ إنه يبيع أغانيه هناك قرب الجسر في المدينة. وقد عشتُ في المدينة أولاً بعد أن تركت جامايكا. اسم روبرت جميل، ولكن من أين يأتون بهذه الأسماء؟ أعتقد أنهم يأتون بها من الزمن القديم.

أضافت:

- كان الطبيب من الطراز القديم. هؤلاء الأطباء الجدد أنا أحبهم. أول كلمة ترد على ألسنتهم الشرطة. الشرطة؛ شيء لا أحبه.

قلت:

- أنا على ثقة بأنك لا تحبينهم. ولكنك لم تخبريني بعد بما حدث حين زارتك زوجتي، أو على وجه الدقة ما فعلته أنت؟

قالت:

- زوجتك! أنت تثير ضحكي. لا أعرف كل أفعالك لكني أعرف بعضها الآن. يعلم الجميع أنك تزوجتها من أجل نقودها وأنك نجحت

في الاستحواذ عليها كلها. بعدها حاولت أن تحطمها لأنك تغار منها، هي أفضل منك، في عروقها دم أفضل وهي لا تهتم بالنقود؛ النقود لا تعني شيئاً بالنسبة لها. أوه... لقد لاحظت هذا منذ أول مرة رأيتك فيها. ما زلت شاباً لكنك صعب بالفعل. وقد خدعت الفتاة. جعلتها تعتقد أن انشغالك بجمالها يمنعك من رؤية الشمس.

فكرتُ أنها على حق. هو كذلك. لكن التزام الصمت أفضل. ستذهبان كلتاهما أخيراً وسيأتي دوري لأنام؛ نوماً طويلاً عميقاً. هكذا سيكون نومي؛ عميق الغور دون قرار.

أردفت بصوتها القريب من صوت القضاة:

- بعدها مارست معها الحب حتى جعلتها تسكر به، ليس من رم يستطيع أن يسكرها إلى هذا الحد حتى أصبحت عاجزة عن العيش بدونه. وهكذا أصبحت هي من لا يرى الشمس، إنها تراك وحدك بينما كل ما تريده أنت تحطيمها تماماً.

(فكّرت، ليس بالمعنى الذي تقصدين).

- لكنها تحملت ذلك، هه؟ تحملته.

(نعم، تحملت. أمر مؤسف).

- لذلك ادعيت بأنك تصدق كل الأكاذيب التي أخبرك بها الوغد اللعين.

(أخبرك بها الوغد اللعين)

صار لكل كلمة تقولها الآن صدى في رأسي، صدى، صدى عالٍ.

- لكي تتمكن من أن تتركها وحيدة.

(تتركها وحيدة)

- دون أن تقول لها لماذا.

(لماذا؟)

- لم تعد تحبها، هه؟

(لم تعد تحبها)

قلتُ ببرود:

- وهنا جاء دورك لتتحملي المسؤولية، أليس كذلك؟ وقد حاولت دس السم لي.

- دس السم؟ أنت تلفق لي المشاكل فقط. الرجل مجنون! لقد جاءتني الفتاة تبحث عن شيء يجعلك تحبها من جديد، وأنا قلت لها إنني لا أتدخل في ذلك من أجل بيكي. قلت لها إنه حماقة.

(حماقة حماقة)

- وحتى لو لم يكن حماقة فإنه يفوق قدرة بيكي.

(يفوق قدرة بيكي. يفوقها)

- لكنها بكت وتوسلت إليّ.

(بكت وتوسلت إليّ)

- لذلك قدمت لها شيئاً من أجل الحب.

(من أجل الحب)

- لكنك لا تحب. كل ما تريده تحطيمها تماماً. وقد ساعدك ذلك على تحطيمها.

(تحطيمها)

- أخبرتني أنك وسط كل هذا بدأت تطلق عليها الأسماء. ماريونيت. أو كلمة كهذه.

- نعم. أتذكر، هذا ما فعلت.

(ماريونيت، أنطوانيت، ماريونيتا، أنطوانيتا)

- ومعنى تلك الكلمة دمية، هه؟ لأنها لا تتكلم فأنك تريد أن تجبرها على البكاء والكلام.

(تجبرها على البكاء والكلام)

- لكنها لم تفعل ما تريد. لذلك فكرت بوسيلة أخرى. أتيت بتلك الفتاة التافهة لتعبث معها في الغرفة المجاورة. تتكلم معها وتضحك وتمارس الحب وتحرص على أن تجعلها تسمع كل شيء. لقد تعمدت إسماعها.

- نعم، لم تكن تلك مصادفة بل أمر تعمدته.

(تمددتُ بيقظة تامة طوال الليل بعد أن ناما. وما أن طلع الضوء حتى نهضت ولبست وأسرجت بريستون لأقصدك. أوه... كريستوفين. أوو... فينا، فينا ساعديني)

- لم تقولي لي حتى الآن ما الذي فعلته... بأنطوانيت؟

- بل سأخبرك. لقد ساعدتها على النوم.

- ماذا؟ كل الوقت؟

- لا، لا. كنت أوقظها لتجلس في الشمس وتغتسل في النهر البارد. حتى عندما يغلبها النعاس. أعدّ لها حساءً قوياً. أقدّم لها حليباً إن توفر لدي وثماراً أقطفها من أشجاري الخاصة. إن هي لم ترغب في الأكل قلت لها «كُليه من أجلي، عزيزتي» فتأكله ثم تعود إلى النوم من جديد.

- ولماذا تفعلين كل هذا؟

ساد صمت طويل. بعدها قالت:

- من الأفضل أن تنام... يجب أن تبقى نائمة أثناء انشغالي بالعمل من أجلها... لأحسّن حالها من جديد. لكني لن أقول لك شيئاً عن كل هذا...

- لسوء الحظ كان علاجك فاشلاً. لم تحسّني حالها. زاد سوءاً.

قالت بغضب:

- بل نجحت، نجحت. لكني خفت عليها الاكثار من النوم ولوقت طويل. إنها ليست بيكي مثلك، لكنها بيكي، ولا هي مثلنا أيضاً. مرت عليها صباحات كانت فيها عاجزة عن الاستيقاظ، بل كانت عندما تستيقظ تبدو وكأنها لا تزال نائمة. لم أشأ إعطاءها المزيد من... مما أعطيتها.

أردفت بعد صمت قصير:

- لذلك سمحت لها بتناول الرم بدلاً عنه. كنت أعرف أنه لن يؤذيها. ولكنها ما أن تناولت الرم حتى ثارت وبدأت تطالب بالعودة إليك، ولم أتمكن من تهدئتها. قالت إنها ستذهب لوحدها إن أنا لم أذهب معها. ثم توسلت إليّ لأن آتي معها. لقد سمعتك بوضوح تقول لها إنك لا تحبها، قلتها بهدوء وبرود فخربت كل تحسن حققته.

- تحسن حققته؟ لقد سئمت هراءك كريستوفين. يبدو أنك أسكرتها حد الموت بالرم الرديء حتى تحطمت. لم أكد أتعرف عليها. ما الذي دفعك إلى ما فعلت. لا أعلم... ربما كراهيتك لي. وما دمتِ قد سمعت كل شيء فلا بد أنكِ أصغيت لما اعترفت به... وتباهت من أجله، أصغيت إلى الصفات الشريرة التي نعتتني بها. إن صاحبتك العزيزة هذه تعرف دون شك بذيء الكلام.

- أقول لك لا. ليس لما قالته معنى. لقد سببتَ لها التعاسة وجعلتها لا تعرف ما تقول. أبوها السيد كوسوي العجوز كان يشتم ويسب كأنه نصف الساعة الأولى بعد منتصف الليل، وقد التقطت هي منه ذلك. ثم أنها فرت ذات مرة، وهي لا تزال صغيرة، لتبقى مع الصيادين والبحارة على الخليج. أولئك الرجال!

رفعت عينيها إلى السقف:

- لا يمكن أن تصدق أنهم عرفوا براءة الطفولة يوماً. حين عادت قلدتهم. إنها لا تفهم ما تقول.

- أعتقد أنها كانت تفهم كل كلمة، بل وتعني ما تقول أيضاً. لكنك على حق كريستوفين؛ كان ذلك كله أمراً تافهاً. كان لا شيء. ليس لدينا منجل هنا، إذن لا خطر ولا إصابات على الإطلاق. لم تحدث إصابة حتى الآن. أنا واثق من أنك كنت حريصة على هذا بالرغم من كل السكر الذي دفعتها إليه.

- أنت صلب لعين بما لا يتناسب مع رجل شاب.

- هذا ما تقولين، هذا ما تقولين أنت.

- وهذا ما قلته لها. لقد حذرتها. قلت لها ليس هذا بالرجل الذي يمد لك يد العون حين يراك تتحطمين. وحدهم أخيار الرجال من يفعلون ذلك. أخيار الرجال، وأراذلهم أحياناً.

- لكنك تعتقدين أني واحد من الأراذل دون شك.

قالت دون اهتمام:

- لا، بالنسبة لي أنت لست من أخيار الرجال ولا من أراذلهم. أنت (هزت كتفيها) أنت لن تساعدها. هذا ما قلته لها.

ذابت كل الشموع تقريباً وانطفأت لكنها لم تشعل شموعاً جديدة، ولا أنا. جلسنا في الضوء الخابي وفكرت أنني يجب أن أوقف هذا الحوار الذي ليس من ورائه طائل. لكني لم أستطع إلا الإصغاء منّوماً تنويماً مغناطيسياً لصوتها المظلم القادم من العتمة.

- أنا أعرف الفتاة. لن تطلب منك الحب مرة أخرى. ستموت قبل أن تفعل ذلك. ولكن أنا كريستوفين، أنا أتوسل إليك: إنها مغرمة بك، ظمآنة إليك. فلننتظر، ربما استطعت أن تحبها مرة أخرى. قليل من الحب كما تطلب هي. قليل كما هو حبك دائماً.

هززت رأسي وبقيت أهزهُ بحركة ميكانيكية.

- كل ما أخبرك ذلك الأصفر اللعين لم يكن إلا أكاذيب باطلة. ثم أنه ليس حتى من عائلة كوسوي. لم تكن أمه امرأة شريفة، وقد حاولت أن تخدع الرجل العجوز، لكنه لم ينخدع. قال ضاحكاً «واحدة لا أكثر ولا أقل». كان على خطأ. كلما زاد عطاؤه لهؤلاء الناس زادت كراهيتهم له. وهنالك ما يكفي من الكراهية في نفس هذا الرجل دانيال، إنها تمنع عنه الاستقرار. لو كنت أعلم أنك ستأتي إلى هنا لأوقفتك. لكنك تزوجت بسرعة، وها أنت تغادر جامايكا بسرعة. لا وقت.

- قالت هي لي إن كل ما قاله صحيح. لم تكن تكذب حينها.

- قالت ذلك لأنك سببت لها الأذى وكانت تريد أن ترده عليك.

- وماذا عن جنون أمها؟ أهو كذبة أخرى؟

لم تجبني كريستوفين في الحال، وعندما أجابت لاحظت أن صوتها لم يعد بالغ الهدوء كما كان:

- لقد دفعوها إليه. حين خسرت ولدها خسرت معه نفسها لحين من

الوقت. وقد حبسوها وقالوا لها أنت مجنونة، وعاملوها على أنها مجنونة بالفعل. تسأل وتسأل، لكنها لا تسمع كلمة رحيمة واحدة ولا تجد قربها صديق. زوجها سافر وتركها إلى مكان بعيد. منعوني من رؤيتها. حاولت ولكن دون فائدة. لم يسمحوا لأنطوانيت برؤيتها أيضاً. في النهاية، لا أعرف عن جنونها، استسلمت، لم تعد تأبه بشيء. الرجل المسؤول عنها ظل يغتصبها متى شاء، أما امرأته فلا تكف عن الثرثرة. ذلك الرجل وآخرون سواه. بعدها صارت ملكاً لهم. أوه... أين الرب؟

ذكّرتها:

- توجد أرواحك فقط.

قالت بثبات:

- أرواحي فقط. يقول كتابك المقدس إن الرب روح لكنه لا يقول إنه الروح الوحيدة وأن ليس ثمة أرواح سواه. لا يذكر هذا إطلاقاً. لقد أحزنني ما حدث لأمها وأنا لا أستطيع أن أراه يحدث من جديد. أنت تسميها دمية، وهي لا تروق لك! ولكن جرّبها مرة أخرى، أنا واثقة أنها ستروق لك هذه المرة. إن تركتها سيقطّعونها إرباً إرباً، تماماً كما فعلوا بأمها.

قلت بضجر:

- لن أتركها. سأفعل كل ما أستطيع من أجلها.

- أما زلت تحبها كما كنت من قبل؟

(امنح أختي، زوجتك، قبلة مني. لتحبها كما أحببتها أنا... أوو نعم، لقد أحببتها. كيف أعدُ بذلك؟) لم أقل شيئاً.

- ولكنها لن ترضى. إنها فتاة كريبولية تحمل الشمس داخلها. ولكن

دعنا نواجه الحقيقة الآن. الفتاة لم تسافر إلى دارك في ذلك المكان الذي يحدثوني عنه، إنجلترا، لم تسافر إلى دارك الجميل متوسلة أن تتزوجها. كلا، أنت الذي قطع كل هذا الطريق الطويل إلى دارها، أنت الذي توسل إليها من أجل الزواج. وقد أحبتك ووهبتك كل ما تملك. وها أنت ذا تقول بأنك لا تحبها وتعمل على تحطيمها. ماذا فعلت بنقودها، هه؟

لا يزال صوتها هادئاً لولا هسيس يتخلله حين تنطق كلمة «نقود». فكرت أن ذلك بالطبع هو بيت القصيد في كل هذا الهراء. لم أعد أشعر بالدوار أو التعب أو بأني في شبه تنويم مغناطيسي، بل شعرت باليقظة والاحتراس وبأني في أتم الاستعداد للدفاع عن نفسي.

كانت تريد أن تعرف لماذا لا أعيد نصف مهر أنطوانيت وأترك الجزيرة؛ «اترك الهند الغربية إذا كنت لا تريدها».

سألت عن المبلغ الذي يدور في ذهنها، لكنها لزمت الغموض في هذا:

– يمكن تحديده مع المحامين وما أشبه.

– وماذا سيحدث لها بعد ذلك؟

هي كريستوفين، ستعتني بأنطوانيت عناية جيدة (وتعتني بالنقود طبعاً).

– هل ستبقيان كلتاكما هنا؟

تمنيت لو أن صوتي سلس مثل صوتها.

لا، ستقصدان المارتينيك. ثم أماكن أخرى.

– أريد أن أرى العالم قبل أن أموت.

ثم أضافت بحقد، ربما لأنها رأتني تامّ الهدوء والاتزان:

– وسوف تتزوج من رجل آخر. ستنساك وتعيش سعيدة.

عندها صعدت في داخلي موجة غضب وغيرة. أوه، لا، لن تنسى. ضحكتُ.

- هل تضحك مني؟ لماذا تضحك مني؟

- أضحك منك بالطبع أيتها العجوز الحمقاء. لن أعود لمناقشة شؤوني معك بعد اليوم. ولا مع سيدتك. لقد أصغيت لكل ما لديك وأنا لا أصدقك. الآن ودّعي أنطوانيت ثم أذهبي. أنت الملومة في كل ما حدث هنا، لذا فأنا لا أريدك أن تعودي.

سحبت نفسها إلى الأعلى طويلة منتصبة ووضعت يديها على وركيها.

- من أنت لتقول لي اذهبي؟ هذه دار أم أنطوانيت وهي دارها الآن. من أنت لتقول لي اذهبي؟

- أؤكد لك أنها داري الآن. هل تذهبين أم أستدعي الشرطة ليخرجوك؟

- أتظن أن الرجال هنا يمكن أن يلمسوني؟ إنهم ليسوا حمقى ملاعين مثلك ليضعوا أيديهم عليّ.

- إذن سأستدعي الشرطة. ها أنذا أحذرك. لابد أن يوجد قانون أو نظام في هذه الجزيرة التي هجرها الرب.

قالت:

- ليس من شرطة هنا. لا سلاسل، ولا مكائن فرم ولا حتى سجون مظلمة. هذه مدينة حرة وأنا امرأة حرة.

قلت:

- كريستوفين! لقد عشتِ في جامايكا سنوات طويلة ولابد أنك تعرفين السيد فريسر حاكم المدينة الأسبانية معرفة جيدة. لقد كتبت له عنك. هل تودين سماع ما أجابني بشأنك؟

حدجتني بنظرة. قرأت لها نهاية رسالة فريسر بصوت عال:

- «وهو ما جعلني أكتب بسرية تامة لهيل مفتش البوليس الأبيض في مدينتك. إذا كانت تعيش قريبة منك ولاحظت أنها عادت لممارسة أي من سخافاتها بلّغه في الحال، عندها سيرسل زوجاً من رجال البوليس إليك ولن تنجو بسهولة هذه المرة...» أنتِ أعطيت سيدتك السم الذي دسّته في خمرتي؟

- ها أنذا أقول لك، إن كلامك محض حماقات.

- سنرى! لقد احتفظتُ ببعض ذلك الخمر.

قالت:

- قلت لها ذلك. قلت إنه لا يعمل مع بيكي. دائماً يجلب المشاكل...على أية حال أنت تطردني لتستحوذ على نقودها. ماذا ستفعل بها؟

- لا أرى سبباً يدعوني لاطلاعك على خططي. أنوي العودة إلى جامايكا لاستشارة أطباء المدينة الأسبانية وأخيها. سأتبع نصائحهم. ذلك كل ما أنوي. إنها ليست على ما يرام.

- أخوها!

بصقت على الأرض:

- ريتشارد ميسون ليس أخاها. هل تظن أنك تقدر على خداعي؟ أنت لا تريدها بل تريد نقودها. وفي ذهنك الادعاء بأنها مجنونة. أعرف هذا. أما الأطباء فسيقولون ما تطلب منهم قوله.. وذلك الرجل ميسون سيقول هو الآخر ما تريده أنت أن يقول... سيقوله بكل سعادة وحماس أيضاً. أعرف هذا. إنه مصير أمها نفسه. هل تفعل كل هذا من أجل النقود؟ أنت شرير كالشيطان ذاته.

قلت بصوت عال متوحش:

- وهل تعتقدين أنني اخترت ذلك كله بنفسي؟ أنا مستعد لدفع كل حياتي ثمناً للتراجع عنه. مستعد لدفع عينيّ ثمناً لعدم رؤية هذا المكان الكريه.

ضحكتْ:

- تلك أول كلمة لعينة من كلمات الحق تنطق بها. أنت تختار ما تعطي، هه؟ إذن أنت الذي يختار. تحشر نفسك في شيء ربما تكون لا تعرف حقيقته.

بدأت تدمدم لنفسها ولكنها لم تستخدم لهجة الباتوا المحلية. لقد أصبحت أعرف وقع الباتوا الآن.

فكرت في أنها مجنونة كصاحبتها، واستدرت إلى الشباك. كان الخدم يتجمعون تحت شجرة كبش قرنفل. بابتست والصبي الذي ساعدنا بالخيول والفتاة الصغيرة هلدا. لقد أصابت كريستوفين؛ لم تبد عليهم رغبة التدخل في هذا الأمر.

عندما نظرتُ إليها رأيت قناعاً على وجهها. لم يكن في عينيها خوف. يجب أن أعترف بأنها امرأة مقاتلة. كررت دون إرادتي:

- هل ترغبين في توديع أنطوانيت؟

- لقد أعطيتها شيئاً لتنام، شيئاً لن يؤذيها. ولا يمكن أن أوقظها لأية تعاسة كانت. أترك هذا لك.

قلت بصوت صلب:

- تستطيعين الكتابة لها.

- القراءة والكتابة أمور أجهلها... أعرف أشياء أخرى.

قالت ذلك ثم ابتعدت دون أن تلتفت إلى الخلف.

***

فقدت كل رغبة في النوم. بقيت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً. وشعرت بالدم يخزني في أطراف أصابعي ثم يصعد أعلى ذراعي حتى يصل قلبي الذي بدأ يخفق بقوة. كنت أتكلم بصوت عال أثناء التمشي. وكان كلامي الرسالة التي أنوي كتابتها:

«أعرف الآن أنك خططت لما حصل لكي تتخلص مني. أنت لم تحمل نحوي أي حب، لا أنت ولا أخي. وقد نجحت خطتك لأني كنت شاباً مغروراً، أحمق، واثقاً. وقبل كل شيء لأني كنت شاباً. تمكنت أن تفعل ذلك بي...»

فكرت لكني لست شاباً الآن. توقفت عن المسير وشربت. الحق أن هذا الرم لطيف كحليب الأم أو مباركة الأب.

أستطيع أن أتخيل الانطباع على وجهه وهو يقرأ الرسالة التي أنوي كتابتها. كتبت:

«أبي العزيز، ننوي مغادرة هذه الجزيرة إلى جامايكا عما قريب. ظروف غير متوقعة، في الأقل لم أتوقعها أنا، اضطرتني لاتخاذ هذا القرار. أنا واثق من أنك تعلم ما حدث أو تستطيع تخمينه، وواثق من أنك مقتنع بأن قلة الكلام مع أي شخص كان عن شؤوني، وبالأخص زواجي، سيكون أفضل. إنه لصالحك كما هو لصالحي. ستسمع عني مرة أخرى، وفي وقت قريب كما أتمنى.»

بعدها كتبتُ إلى شركة المحامين التي سبق لي التعامل معها في المدينة الأسبانية. أخبرتهم رغبتي في استئجار دار مؤثثة لا تبعد كثيراً عن المدينة واسعة بحيث أنها تحتوي على جناحين من الغرف. كما طلبت منهم التعاقد مع طاقم من الخدم أبديت استعدادي التام لأدفع لهم بسخاء -فكرت؛ طالما أبقوا أفواههم مغلقة- لكني كتبت؛ طالما أبدوا فطنة كافية. وأشرتُ إلى أنني وزوجتي سنصل جامايكا خلال أسبوع ونتوقع أن نجد كل شيء جاهزاً.

طوال الوقت الذي أمضيته في كتابة هذه الرسالة ظل ديك يصيح في الخارج بإلحاح. تناولت أول كتاب وقعت عليه يدي وقذفته به. لكنه ابتعد بضعة أمتار وعاود الصياح من جديد.

ظهر بابتست، وكان ينظر باتجاه غرفة أنطوانيت الصامتة.

- هل لديك مزيد من هذا الرم الشهير.

قال:

- الرم كثير.

- هل صحيح أن عمره مئة عام؟

هز رأسه دون اهتمام، مئة عام أو ألف لا فرق بالنسبة للرب الطيب وإلى بابتست أيضاً.

- ما الذي يدعو ذلك الديك اللعين إلى الصياح؟

- إنه التغير في الجو.

حين وجدت أن عينيه لا تزالان مثبتتين على غرفة النوم صحت به:

- إنها نائمة، نائمة.

هز رأسه وخرج.

فكرت أنه عبس بوجهي عندها. عبست أنا أيضاً حين أعدت قراءة الرسالة التي كتبتها للمحامين. مهما دفعت للخدم الجامايكيين لن أشتري صمتهم. سأكون محط ثرثرتهم وموضوع أغانيهم. [إنهم يؤلفون الأغاني عن كل شيء وكل شخص. لتسمع الأغاني التي ألفوها عن زوجة الحاكم]. أينما ذهبت سأكون مادة للأحاديث. شربت مزيداً من الرم، وبينما كنت أشرب رسمت داراً مسورة بالأشجار، داراً واسعة. قسّمت الطابق الثالث إلى غرف ورسمت في إحداها امرأة ماثلة؛ خربشة طفل: نقطة للرأس وأخرى أكبر منها للجسد ومثلث للتنورة وخطوط مائلة للذراعين والقدمين. لكنه كان بيتاً إنجليزياً.

أشجار إنجليزية. تساءلت هل سأرى إنجلترا ذات يوم مرة أخرى؟

***

تحت أشجار الدفلى راقبت الجبال المتخفية وقد نزلت غلالة الضباب على وجهها. برودة الجو معتدلة اليوم؛ جو برده معتدل. هادئ وغائم كأنه صيف إنجليزي. لكنه مكان محبوب في كل الأجواء، لن أرى أحب منه مهما سافرت.

فكرت في أن أشهر الأعاصير ليست بعيدة؛ ورأيت الأشجار تضرب بجذورها في أعماق الأرض استعداداً لمواجهة الريح. دون طائل، فالريح حين تعصف تقتلع كل شيء. بعض أشجار جوز الهند الملكية تقاوم (هكذا أخبرتني). ورغم أن أغصانها تُنتزع منها فتبقى مثل أعمدة بنية طويلة فأنها تقاوم وتتحدى. لم تسمّ شجراً ملكياً دون سبب. أما أشجار الخيزران فأنها تتخذ سبيلاً أيسر: تنحني على الأرض حتى تنطبح عليها، تصرُّ وتئن وتصرخ طالبة الرحمة. غير أن الريح تمر بكل ازدراء غير آبهة بهذه الأشياء الذليلة. (دعها تنعم بالحياة). تمر العاصفة المتوحشة معولة، صارخة، ضاحكة.

عدة أشهر تفصلنا عن كل هذا. إنه الآن صيف إنجليزي، برودة معتدلة ولون رمادي فاقع. لكنني مشغول عن كل هذا بثأري وأعاصيري. يضج رأسي بالكلمات (وبالأفعال أيضاً). كلمات. إحداها العطف، إنها تمنع عني الراحة.

العطف طفل وليد يمشي عارياً واسع الخطوات في العاصفة!

قرأت هذا منذ زمن طويل مضى عندما كنت شاباً، أما الآن فأنا أكره الشعر والشعراء. وأكره الموسيقى التي عشقتها ذات يوم. اطلق أغانيك، روبرت الراين، لن أصغي إليك رغم ما يُقال لي عن جمال صوتك...

العطف. ألا يوجد شيء منه نحوي؟ أنا المكبل طوال حياتي إلى امرأة مجنونة، سكيرة، مجنونة، كاذبة؛ تمضي قدماً في طريق أمها.

«إنها مغرمة بك، ظمآنة إليك. قليل من الحب كما تطلب هي. قليلٌ كما هو حبك دائماً.»

لتسخري حتى النهاية أيتها الشيطانة. هل تظنين أني لا أعلم؟ إنها ليست ظمآنة لي، بل هي ظمآنة لأي شخص كان...

ستحل شعرها الأسود وتضحك وتتملق وتطري (فتاة مجنونة، لن يهمها من الذي تتوجه إليه بحبها). ستئن وتصرخ وتمنح نفسها كما لا يمكن أن ترغب أو تقدر أية امرأة عاقلة. تقدر. تمددي إذن ساكنة سكون هذا اليوم الغائم. مجنونة تعرف الوقت دائماً. لكنها لا تعرفه أبداً.

حتى توغل في ثمالتها وتبالغ في ألاعيبها لحد يجعل أدنى الناس يهز كتفيه سخرية منها. وأنا يُفترض بي أن أكون عارفاً بهذا؛ أنا؟ لا، إن لدي خدعة تعادل اثنتين من هذه الشاكلة.

«إنها مغرمة بك، ظمآنة إليك. حاول معها مرة أخرى».

أقول لك إنها لا تحب أحداً أياً كان. لن أجد القدرة في نفسي على لمسها، لن ألمسها إلا كما يلمس الإعصار تلك الشجرة فيكسرها. هل تقولين إني كسرتها؟ لا. تلك كانت لعبة الحب الضارية. أما الآن فقد حان الوقت.

لن تضحك في الشمس مرة أخرى، لن ترتدي ملابسها وتبتسم لنفسها في تلك المرآة اللعينة بسرور غامر وفيض من الرضا. كائن مغرور، تافه. هل خُلقت من أجل الحب؟ نعم، لكنها لن تجد عاشقاً، فأنا لن أسمح لها، لن ترى عاشقاً آخر.

الأشجار ترتعش. ترتعش وتستجمع كل قوتها. وتنتظر.

(ها هي ذي ريح باردة تهب الآن؛ ريح باردة. هل تحمل الوليد الذي يتقدم واسع الخطى في لفح الأعاصير؟)

قالت إنها أحبت هذا المكان. لكنها آخر مرة تراه فيها. وسوف أرصدها بانتظار دمعة تذرفها، دمعة واحدة من دموع البشر، بدلاً من ذلك الوجه الأصم المجنون المحتقن بالكراهية. سأصغي إليها... هل تنطق بكلمة وداع، هل تهتف وداعاً... وداعاً كما في تلك الأغاني القديمة التي ظلت ترددها. وداعاً على الدوام (الأغاني كلها ترددها)، إن نطقت هي بها أيضاً أو بكت فسأطوقها بذراعيّ؛ مجنونتي. لقد خُلقت لتكون لي فقط، لي. ما همني من الآلهة أو الشياطين أو القدر نفسه؟ إن ابتسمت أو بكت أو أتت الأمرين. لي.

أنطوانيتا؛ أستطيع أن أكون لطيفاً أيضاً. اخفي وجهك، اخفي نفسك، ولكن بين ذراعيّ. سرعان ما سترين كم أنا لطيف. أيْ مجنونتي. يا فتاتي المعتوهة.

ها هو ذا يوم غائم ليكون عوناً لك. لا شمس نحاسية.

لا شمس... لا شمس. لقد تغيّر الجو.

***

كان بابتست ينتظر والخيول مسرجة. ذلك الصبي واقف قرب شجرة القرنفل وإلى جواره السلة التي سيحملها. سلال خفيفة تصدّ الماء. قررت أن أستخدم واحدة منها لحمل بعض الملابس الضرورية؛ كان مقرراً أن تلحق بنا أثمن حاجياتنا خلال يوم أو يومين وأن تنتظرنا عربة في ماساكر أيضاً. لقد تابعت كل شيء بنفسي، رتبت كل شيء.

كانت هي هناك في الأجوبا. لاحظت أنها أبدت عناية في ارتداء ملابسها استعداداً للرحلة، لكن وجهها ظل أصم لا ينم عن شيء على الإطلاق. دموع؟ ليس ثمة دمعة واحدة. حسناً، سنرى. سألت نفسي: هل تراها تتذكر شيئاً في هذه الساعة؟ هل تشعر بأي شيء؟ (تلك الغيمة الزرقاء أو الظل هي المارتينيك. إنها واضحة الآن... أسماء الجبال. لا، ليس اسمه جبلاً. هي لا تسمّي الجبل باسمه بل تسميّه مورن «جبل كلمة قبيحة بالنسبة لهم». أو القصص عن جاك سبانياردز الشائعة منذ زمن طويل. عندما قالت «انظر، حبة زمرد! إنها تجلب الحظ السعيد»، نعم، بدا لون السماء أخضر لهنيهة، الغروب أخضر زاه، غريب. لكنه لا يكاد يعادل نصف غرابة القول بأنه يجلب الحظ السعيد).

على أية حال كنت قد هيّأت نفسي للامبالاتها الصماء. وكنت أعلم أن أحلامي محض أحلام. أما الحزن الذي شعرت به وأنا أتطلع إلى ذلك البيت الأبيض المتداعي فلم أكن قد وطنت نفسي له. إنه ملموم ومنكمش من زحف الغابة السوداء أكثر من أي وقت آخر كأنه الأفعى. كأنه ينادي بنبرات

أكثر علواً ويأساً: انقذني من الدمار والتهديم والإقفار، أنقذني من الموت البطيء الطويل الذي يحفره النمل. ولكن، ما الذي جاء بك إلى هنا أيها الأحق؟ ما الذي أقترب بك إلى هذا الحد من الغابة؟ ألا تعلم أن هذا مكان خطر؟ وأن الغابة المظلمة تنتصر دائماً؟ دائماً. إذا كنت تجهل هذا فستعرفه عما قريب. أما أنا فلا أملك ما أفعل لمساعدتك.

بدا بابتست شديد الانشغال. ليس على وجهه أثر للتأدب المنزلي. كان يرتدي قبعة قش ذات حافة عريضة جداً تشبه قبعات الصيادين إلا أن تاجها مسطح يخلو من أي ارتفاع، يتجمع في نقطة واحدة. حزامه الجلدي العريض ملمّع، كذلك مقبض سيفه المغمد. أما قميصه القطني الأزرق وبنطاله فنظيفان دون شائبة. أعلم أن قبعته منيعة ضد الماء. إنه مستعد لمواجهة المطر، والمطر وشيك دون ريب.

قلت إنني أود توديع الفتاة الصغيرة الضاحكة هلدا. أجاب بإنجليزيته المتأنقة:

– هلدا ليست هنا. لقد غادرت بالأمس.

كان يتكلم بأدب جم لكني استطعت أن أستشعر كراهيته وازدراءه. الازدراء ذاته في صوت الشيطانة وهي تقول «ذُق دم الثور الذي أعددته لك» في إشارة خفية إلى أن ذلك سوف يجعلك رجلاً. ربما. لقد بالغتُ في الاهتمام بأفكارهم عني! أما بالنسبة لها فقد نسيتها في تلك اللحظة. لكني لن أفهم أبداً السبب الذي جعلني أثق فجأة وبشكل يثير العجب أن كل ما تخيلته حقيقياً كان زائفاً. زائفاً. وحدهما السحر والحلم الحقيقيان، ما عداهما أكاذيب. دع عنكَ هذا. هنا السر. هنا.

(لكنه مفقود، ذلك السر مفقود، والذين يعرفونه لا يستطيعون البوح به)

ليس مفقوداً. لقد وجدته في مكان مخبوء، وسأحتفظ به، أتشبث به بقوة. كما يمكن أن أتشبث بها.

نظرتُ نحوها. كانت تحدق بعيداً في البحر النائي. إنها الصمت نفسه.

غنّي أنطوانيتا. أستطيع أن أسمعك الآن.

«هنا تقول الريح قد كان، قد كان

ويقول البحر لابد أن يكون، لابد أن يكون

والشمس يمكن أن يكون، يمكن أن يكون

والمطر...؟»

- يجب أن تصغي إليه. مطرنا يعرف كل الأغاني.

- وكل الدموع؟

- كلّها، كلّها، كلّها.

نعم سأصغي للمطر. سأصغي لطير الجبل. أوه، نغمة واحدة من ذلك الطير الوحيد تكفي ليذهل القلب؛ عالية، حلوة، سحرية. تضطرك إلى الإصغاء محبوس الأنفاس... لا... لقد ذهب! ماذا أردت أن أقول لها؟

لا تكوني حزينة. ولا تفكري بالوداع. لا وداع أبداً. سنرقب غروب الشمس مرة أخرى، مرات ومرات، ربما رأينا حبة الزمرد؛ ذلك الوهج الأخضر الذي يجلب الحظ السعيد. وأنتِ يجب أن تواصلي الضحك والثرثرة كما اعتدت من ذي قبل وأنت تقصّين عليّ معركة القسس أو السفرة إلى ماري كالانت؛ تلك السفرة الطويلة التي تحولت إلى معركة. أو القراصنة وما يفعلون بين سفراتهم؛ إذ أن كل سفرة منها يمكن أن تكون الأخيرة. الشمس وشراب السنجري؛ خليط عنيف. ثم الزلزال. اوه نعم، يقول الناس إن

الرب غضب من أفعالهم ذات مرة فاستيقظ من منامه ونفخ عليهم نفخة واحدة تشردوا بعدها. عاد هو لينام مرة أخرى أما هم فقد تركوا كنوزهم، فيها الذهب وما هو أغلى من الذهب. وقد عثر بعضهم على جزء منها لكنهم لا يخبرون أحداً عنه؛ فهم لم يعثروا إلا على ثلثه، ويقضي قانون الكنوز بأن على من يريد الكنز كله أن يلتزم الصمت فلا ينطق بكلمة عما وجد أبداً. إنهم يعثرون أحياناً على أشياء ثمينة وجواهر. لا حد لما يجدون ويبيعون لرجل حذر يقوّم ويقيس، يتردد ويطرح أسئلة لا يجيبون عنها، ثم يدفع المال في المقابل. يعلم الجميع أن القطع الذهبية والكنوز تظهر في المدينة الأسبانية... (هنا أيضاً). إنها تظهر في كل الجزر، تأتي من اللامكان، من حيث لا يعلم أحد. لأن الأفضل التكتم بشأن الكنوز. الأفضل أن لا تخبر أحداً.

نعم، من الأفضل عدم إخبارهم. وأنا لن أخبركِ بأنني نادراً ما كنت أصغي لقصصك. كنت أتوق إلى الليل والظلام والوقت الذي تتفتح فيه أوراد القمر.

«امحُ القمر

واسحب النجوم من عليائها.

اعشق في الظلام، لأننا ماضون إلى الظلام

بسرعة خاطفة، خاطفة.»

دعينا كالقراصنة المختالين نخلق مما نملك أقوى وأفضل وأسوأ ما نستطيع. لتمنحي، ليس الثلث فحسب. بل كل شيء. كل شيء. كل شيء. لا تبقي معك شيئاً.

لا، أود أن أقول... كنت أعرف ما أود أن أقول. «لقد اقترفت خطأ فظيعاً. سامحيني.»

وقد قلتها وأنا أنظر إليها فأرى الكراهية في عينيها، وأستشعر كراهيتي تنبثق صاعدة لملاقاتها. إنه مرة أخرى التغيّر المدوخ، التذكر، الانقلاب إلى الكراهية حد المرض. لقد اشتروني (أنا) بنقودك القذرة، وكنت أنتِ عوناً لهم على ذلك. لقد خدعتِني وخنتني وأنتِ مستعدة لأن تفعلي ما هو أسوأ إن سنحت لك الفرصة... (تلك الفتاة. إنها تنظر في عينيك وتقول كلاماً حلواً. كلاماً كله أكاذيب. أكاذيب. هكذا كانت أمها. بل يقال إنها أسوأ من أمها)

... إن كان الجحيم مقدراً عليّ فليكن الجحيم. لا أريد مزيداً من الجنائن الزائفة. لا أريد مزيداً من السحر اللعين. أنتِ تكرهينني وأنا أكرهك. سنرى إذن من يتفوق في كراهيته؟ لكني سأحطم كراهيتك بادئ ذي بدء. الآن. كراهيتي أبرد وأقوى، أما أنت فلن تجدي كراهية تبعث الدفء فيك. لن تجدي أي شيء.

وقد فعلتُ هذا أيضاً. رأيت الكراهية تخرج من عينيها. أنا أجبرتها على الخروج. ومع الكراهية خرج الجمال. لم يبق منها سوى شبح. شبح في ضوء النهار الرمادي. لم يبق إلا اليأس. قل موتي وسأموت. قل موتي وراقبني وأنا أموت.

رفعت عينيها. عينان جميلتان خاليتان من أي انفعال. عينان مجنونتان. وفتاة مجنونة. لا أعرف ما كنت سأقول أو أفعل. حالة من التعادل؛ في كل شيء. لكن الصبي الذي لا اسم له أسند رأسه في تلك اللحظة إلى شجرة القرنفل وانخرط ينشج. شهقات عالية تكسر القلب. كنت مستعداً لخنقه عن طيب خاطر. لكني تمكنت من السيطرة على نفسي واقتربت منهم قائلاً ببرود:

- ما به؟ ما الذي يدعوه إلى البكاء؟

لم يجب بابتست. نما في وجهه المتجهم ظل أكثر تجهماً، وهو كل ما فهمت منه.

كانت قد سارت في أعقابي فأجابتني. لم أكد أميّز صوتها. لا دفء ولا حلاوة. للدمية صوت دمية، صوت مقطوع الأنفاس فيه لامبالاة غريبة:

- طلب مني حين وصلنا لأول مرة أن نأخذه... أن تأخذه أنت معك حين نغادر. إنه لا يريد أي نقود. يريد فقط أن يبقى معك. والسبب... (توقفت ومررت لسانها على شفتيها) حبه الشديد لك. لهذا قلت له إنك ستوافق. خذه. لقد قال له بابتست إنك لن تأخذه وهو سبب بكائه الآن.

قلت بغضب:

- لن آخذه معي بالتأكيد.

(يا إلهي! صبي نصف متوحش، إضافة إلى...)

قالت وما زالت تتكلم دون مبالاة:

- إنه يعرف الإنجليزية. لقد عمل جاهداً ليتعلم الإنجليزية.

قلت:

- لم يتعلم إنجليزية أستطيع أن أفهمها.

وبينما أنا انظر إلى وجهها الأبيض المتشنج تزايد غضبي:

- ثم بأي حق تمنحين وعوداً باسمي؟ أو تتحدثين باسمي على الإطلاق؟

- لا، ليس لي الحق، أنا آسفة. أنا لا أفهمك. لا أعرف عنك شيئاً، ولا أستطيع أن أتحدث باسمك...

كان ذلك كل شيء. قلت وداعاً لبابتست. انحنى بحركة متشنجة دون

رغبة وهو يتمتم للتعبير عن تمنياته برحلة ممتعة كما أعتقد. كنت واثقاً من أنه تمنى أن لا تقع عيناه عليّ مرة أخرى.

كانت قد ركبت الفرس فاتجه نحوها. عندما مدت يدها أخذها وكلّمها بجدية كبيرة وهو لا يزال ممسكاً بها. لم أسمع ما قال، لكني توقعت أن تبكي عندها. ولكن لا ها هي ذي ابتسامة الدمية تعود لتتسمر على وجهها. وحتى لو بكت كالماجدولين فإن ذلك لم يكن ليغيّر شيئاً. كنت منهكاً. غادرتني كل الانفعالات المجنونة المتصارعة وتركتني مرهقاً وفارغاً. عاقلاً.

كنت قد مللت هؤلاء الناس. كرهت ضحكهم ودموعهم، مدائحم وغيرتهم، غرورهم وخديعتهم. وكرهت المكان.

كرهت الجبال والتلال، الأنهار والأمطار. كرهت ساعات الغروب من كل لون، كرهت جمالها وسحرها والسر الذي لن أعرفه أبداً فيها. كرهت لامبالاتها والقسوة التي تشكل جزءاً من فتنتها. وقبل كل شيء كرهتها، لأنها كانت تنتمي إلى السحر والفتنة أنفسهما. لقد تركتني ظمآن، وكل حياتي ستكون ظمأ وتوقاً لما فقدته قبل أن أجده.

لهذا ابتعدنا على جيادنا وتركناه؛ تركنا المكان الخفي. لا هو لي ولا هو لها. سأتولى هذا الأمر. لقد مضت بعيداً في الشوط.

سرعان ما ستلتحق بكل الآخرين الذين يعرفون السر ولا يبوحون به. أو يحاولون البوح ويفشلون لأنهم لا يعرفون عنه ما يكفي. يمكن تمييزهم. وجوه بيض، عيون مبهورة، إيماءات تائهة، ضحك صاخب. طريقة مشيهم وحديثهم وصياحهم، أو محاولتهم القتل (قتل أنفسهم أو قتلك) إذا ضحكت رداً على ضحكهم. نعم، يجب أن يبقوا تحت المراقبة، لأن الوقت الذي سيحاولون فيه القتل قادم، بعده سيختفون. لكن هنالك آخرون ينتظرون

ليحلوا محلهم؛ إنه طابور طويل، طويل. وهي واحدة منهم. أنا أيضاً أستطيع أن أنتظر؛ أنتظر اليوم الذي ستكون فيه مجرد ذكرى لا بد من تجنبها وركنها خلف قفل محكم، تكون فيه مثل كل الذكريات أسطورة، أو أكذوبة...

أتذكر أنني فكرت بينما نحن نستدير حول المنعطف ببابتست. تساءلت إن كان له اسم آخر، أمرٌ لم أسأل عنه أبداً. ثم فكرت في أنني سأبيع المكان مقابل ما يُدفع فيه. لقد قصدت أن أعيده لها. أما الآن؛ ما الفائدة؟

ذلك الفتى الغبي لحق بنا، يوازن السلّة على رأسه. كان يمسح دموعه بظهر يده. من يصدق أن بمقدور أي صبي البكاء بهذا الشكل. ومن أجل لا شيء. لا شيء...

القسم الثالث

قالت غريس بول:

- «كانوا يعلمون أنه في جامايكا حين توفي أبوه وأخوه. وقد ورث كل شيء، لكنه كان رجلاً ثرياً قبل ذلك. قالوا إن بعض الناس محظوظون وأطلقوا تلميحات عن المرأة التي عاد بها إلى إنجلترا. في اليوم التالي أبدت السيدة أيف رغبتها في رؤيتي وشكت من القيل والقال. قالت أنا لا أسمح بالثرثرة الفارغة، وقد قلت لك ذلك عندما جئتِ. قلت لها إن الخدم يتكلمون وأنتِ لن تستطيعي إيقافهم. ثم إنني لست متأكدة من أن الحالة هنا ستكون مناسبة لي أيتها السيدة. عندما أجبتُ على إعلانك في البداية قلتِ لي إن الشخص الذي سأرعاه ليس فتاة شابة. سألت إن كانت امرأة عجوزاً فقلت لا. الآن وقد رأيتها لا أدري ما أقول. إنها تجلس مرتجفة، وهي نحيفة جداً. ماذا لو ماتت بين يدي، على من سيقع اللوم؟ قالت انتظري غريس. كانت تمسك برسالة. هلّا سمعت قبل أن تتخذي قرارك ما يريد صاحب الدار قوله في هذا الأمر. قرأت: «إن اقتنعت الآنسة بول فما المانع من مضاعفة الأجر لها؟ بل يمكنك زيادته إلى ثلاثة أضعاف.» قرأتْ هذا المقطع ثم طوت الرسالة، ولكن ليس قبل أن أتمكن من رؤية الكلمات على الصفحة التالية: «ولكن بحق الرب لا أريد أن أسمع المزيد عن هذا الموضوع.» كان على الظرف طابع أجنبي. قلت «لا أخدم الشيطان دون نقود.» قالت «إذا تصورت أنك

تخدمين الشيطان بخدمتك هذا الرجل الجنتلمان فإنك لم تقعي في خطأ أفدح من هذا في حياتك. أنا أعرفه، أعرفه منذ شبابه. كان لطيفاً، كريماً، شجاعاً. لكن إقامته في الهند الغربية غيّرته إلى حد تجاوز كل التوقعات. ظهر الشيب في شعره والبؤس في عينيه. لا تطلبي مني التعاطف مع أي شخص كانت له يد في ذلك. لقد قلتُ ما فيه الكفاية وأكثر. لستُ مستعدة لإعطائك ثلاثة أضعاف أجرك، غريس. لكني سأضاعفه بشرط أن يتوقف القيل والقال. إذا أستمر فسأطردك في الحال. ولا أعتقد أن إيجاد شخص يحل محلك سيكون أمراً مستحيلاً. أنا متأكدة أنك تفهمين. قلت نعم، أفهم.

بعدها طردوا جميع الخدم وتم استخدام طباخة وخادمة معك ليا. طردوهم ولكن هل يستطيعون إيقافهم عن الكلام الآن؟ إن سألتني قلت لك إن كل المقاطعة تعلم. الإشاعات التي سمعتها بعيدة كل البعد عن الحقيقة. لكني لا أعترض، أنا أعرف الكثير لحد يمنعني من النطق بكلمة واحدة. وعلى أية حال فالدار واسعة وأمينة، إنها ملاذ من العالم الخارجي الذي يبقى مهما قيل عالماً أسود وقاسياً بالنسبة لامرأة. ربما كان ذلك سبب قراري البقاء.»

فكرتْ في الحيطان السميكة وفي رصيف الأشجار الطويل خلف بوابة المسكن وبالنار المتوهجة والغرف القرمزية والبيض في الداخل، لكنها فكرتْ قبل كل شيء في الحيطان السميكة التي تُبقي كل الأشياء التي كافحت ضدها حتى عجزت عن القتال في الخارج. نعم، ربما كان ذلك سبب بقائنا جميعاً أنا والسيدة أيف وليا. كلنا عدا تلك الفتاة التي تعيش في ظلامها الخاص. سأقول شيئاً واحداً لصالحها هو إنها لم تفقد معنوياتها. لا تزال عنيفة. وأنا لا أدير لها ظهري حين تبرق في عينيها تلك النظرة. أنا أعرفها.

***

أستيقظُ مبكرة في هذه الغرفة وأتمدد مرتجفة لأن الجو قارص البرودة هنا. أخيراً تشعل غريس بول، المرأة التي ترعاني، ناراً بالورق والعيدان وقطع الفحم. تجثو لتلهبها بالمنفاخ؛ الأوراق تذبل والعيدان تصرّ وتنز والفحم يدخّن ويحدّق. تنبثق النيران في النهاية فتبدو جميلة. أترك فراشي وأقترب منها أراقبها وأعجب لماذا جيء بي إلى هنا؟ لأي سبب؟ لابد من سبب. ما الذي يتوجب عليّ عمله؟ ظننت عندما وصلت إلى هنا في البداية أن الأمر سيدوم يوماً أو يومين، وربما أسبوعاً. ظننت أنني سأكون عندما أراه وأتكلم معه حكيمة كالأفاعي، مسالمة كالحمام. فأقول له «أعطيك كل ما أملك بمحض إرادتي وأعد بأن لا أزعجك مرة أخرى إذا سمحت لي أن أذهب.» لكنه لم يأت قط.

المرأة غريس تنام في غرفتي. أراها أحياناً في الليل تجلس وراء الطاولة تحصي نقوداً. تمسك بقطعة ذهبية وتبتسم. ثم تضع كل شيء في حقيبة صغيرة من قماش سميك لها خيط تسحبه ثم تعلّقها حول عنقها فتختفي تحت ثوبها. في البداية اعتادت أن تلقي عليّ نظرة قبل أن تفعل ذلك لكني كنت أتظاهر بالنوم دائماً، أما الآن فإنها لم تعد تكترث لي. تشرب من زجاجة على الطاولة ثم تأوي إلى الفراش أو تمد ذراعيها على الطاولة وتضع رأسها عليهما وتنام. لكنني أتمدد وأبقى أراقب النار وهي تخمد. حين يعلو شخيرها أنهض وأقترب من الشراب عديم اللون في الزجاجة. كدت في أول مرة تذوقته أن أبصقه لكني نجحت في ابتلاعه. وحين عدت إلى الفراش وجدت نفسي أتذكر المزيد وأستعيد قدرتي على التفكير. اختفى ذلك الإحساس الحاد بالبرد.

***

يوجد شباك واحد في الأعلى؛ لا سبيل إلى النظر منه. كانت لسريري أبواب لكنها رُفعت منه. ولا يوجد عدا هذا الكثير في الغرفة. ليس سوى

سريرها، خزانة سوداء، طاولة في الوسط، وكرسيان سوداوان منقوشان بالثمار والورد لهما متكآن طويلان لكنهما دون مساند. غرفة الملابس ضيقة جداً تقع مقابل هذه الغرفة. عُلقت على حيطانها بسطٌ ذات رسوم ونقوش. تمكنت بينما أنا أتفرس في النسيج المزيّن ذات يوم من التعرف على أمي في ثوب المساء ولكنها كانت حافية القدمين. ذهب بصرها بعيداً عني، خلف رأسي؛ تماماً كما كان ديدنها من قبل. لم أكن لأخبر غريس بذلك. يجب أن لا يكون اسمها غريس(*). للأسماء مغزاها، حتى حين رفض هو تسميتي أنطوانيت حتى رأيت أنطوانيت تندفع خارجة من الشباك مع عطورها وملابسها الجميلة ومرآتها.

هنا لا توجد مرايا، وأنا لا أعرف شكلي الآن. أتذكر كيف كنت أتطلع إلى نفسي وأنا أمشط شعري، وكيف كانت عيناي تتطلعان إليّ. الفتاة التي رأيتها هي أنا ومع ذلك فهي ليست أنا تماماً. كنت قد حاولت منذ زمن طويل، حين كنت طفلة وحيدة، أن أقبّلها. لكن الزجاج وقف حائلاً بيننا؛ صلباً، بارداً، مضبباً بأنفاسي. الآن أخرجوا كل شيء من الغرفة. ماذا أفعل في هذا المكان ومن أكون؟

باب غرفة البُسط المزيّنة ظل مغلقاً باستمرار. أعلم أنه يؤدي إلى ممر. هناك حيث تقف غريس وتتكلم إلى امرأة أخرى لم أرها قط من قبل. اسمها ليا. أصغي لكني لا أستطيع أن أفهم ما تقولان.

إذن فما زال الهمس الذي سمعته طوال حياتي موجوداً، لكن الأصوات مختلفة.

عندما يأتي الليل وتمارس متعة الكؤوس والغفوات يسهل أخذ المفاتيح.

---

* يعني اسم غريس Grace الرحمة أو النعمة.

أعرف الآن أين تضعها. بعدها أفتح الباب وأسير إلى عالمهن. إنه، كما كنت أعلم دائماً، عالم من الورق المقوى. لقد رأيته من قبل في مكان ما، هذا العالم الكارتوني، حيث كل شيء ملون بالبني أو الأحمر الغامق أو الأصفر الذي لا ضوء فيه. تلحّ عليّ وأنا أمشي في الممرات تتملكني أمنية التمكن من رؤية ما وراء هذا الورق المقوى. يقولون لي بأني في إنجلترا، لكني لا أصدقهم. لقد ضيّعنا طريقنا إلى إنجلترا. متى؟ أين؟ لا أتذكر، لكننا ضيعناه. هل ضيعناه في تلك الأمسية داخل القمرة عندما وجدني أتحدث مع الشاب الذي جاءني بالطعام؟ طوقت عنقه بذراعيّ وطلبت منه أن يساعدني. قال «لم أدر ما كان عليّ عمله سيدي». حطمتُ الأقداح والصحون على الكوّة، كنت آمل أن تنكسر ويدخل البحر. جاءت امرأة ثم رجل أكبر منها نظف الأرض من الأشياء المهشمة. لم ينظر نحوي وهو يفعل ذلك. قال الرجل الثالث اشربي هذا وستنامين. شربته وقلت «إنه ليس كما يبدو» قال «إنه ليس كما يبدو أبداً». بعدها نمت. عندما استيقظت وجدت بحراً آخر. أبرد. أعتقد أننا في تلك الليلة غيّرنا سبيلنا وضيعنا طريقنا إلى إنجلترا. هذه الدار الكارتونية التي أتمشى فيها ليلاً ليست إنجلترا.

***

ذات صباح استيقظت أشعر بألم في كل جسدي. لم يكن برداً، بل نوع آخر من الألم. رأيت معصميّ حمراوين منتفخين. قالت غريس:

- ستقولين لي بأنك لا تتذكرين أي شيء عن الليلة الماضية.

قلت:

- متى كانت الليلة الماضية؟

- أمس.

- لا أتذكر الأمس.

قالت:

- أمس جاء رجل جنتلمان ليراك.

- أيهم؟

كنت أعلم أن في الدار غرباء. عندما أخذتُ المفاتيح وذهبت إلى الممر سمعتهم يضحكون ويتحدثون في البعد، كالطيور، ورأيت أضواء على الأرضية في الأسفل.

حين انعطفت عند الزاوية رأيت الفتاة تخرج من غرفة نومها. كانت ترتدي ثوباً أبيض وتدندن لنفسها. التصقتُ بالحائط لأني لم أشأ لها أن تراني، لكنها توقفت ونظرت حولها. لم تر غير الظلال لأني حرصت على ذلك، لكنها لم تتقدم إلى رأس السلالم. ابتعدت تعدو. التقت الفتاة الأخرى فقالت الفتاة الثانية:

- هل رأيت شبحاً؟

- لم أر أي شيء لكني شعرت بشيء ما كما أظن.

- ذلك هو الشبح.

قالت الثانية ونزلتا السلالم معاً.

قلت:

- أي هؤلاء الناس جاء لرؤيتي غريس بول؟

لم يأت. لو جاء لعلمت بمجيئه حتى لو كنت نائمة، لكنه لم يأت حتى الآن.

قالت:

- قناعتي أنك تتذكرين أكثر بكثير مما تدعين. لماذا تصرفت بهذا الشكل في الوقت الذي وعدت فيه أن تكوني هادئة وعاقلة؟ لن أحاول أن ألعب دور المرأة الطيبة مرة أخرى أبداً. أخوك جاء لرؤيتك.

- ليس لي أخ.

- قال إنه أخوك.

عبر عقلي طريقاً طويلاً إلى الخلف.

- هل اسمه ريتشارد؟

- لم يخبرني باسمه.

- عرفته.

قلتُ وقفزتُ من فراشي:

- إن كل شيء هنا، كل شيء هنا. لكني أخفيه عن عينيك المتوحشتين كما أخفي أي شيء عزيز. ولكن أين هي؟ أين أخفيتها؟ في نعل حذائي؟ تحت الفرشة؟ فوق قمة الخزانة؟ في جيب ثوبي الأحمر؟ أين، أين تلك الرسالة؟ رسالة قصيرة، فقد تذكرت أن ريتشارد لا يحب الرسائل الطويلة. عزيزي ريتشارد، خذني بعيداً عن هذا المكان فأنا أموت فيه؛ إنه قارص البرد حالك الظلام.

قالت الآنسة بول:

- لن يجديك التخبط والبحث الآن. لقد ذهب ولن يعود، لم أكن لأعود لو كنت مكانه.

قلت:

- لا أستطيع أن أتذكر ما حدث. لا أتذكر.

قالت غريس بول:

- عندما دخل لم يتعرف عليك.

قلت:

- ألا تشعلين ناراً. أنا أشعر ببرد شديد.

- هذا الرجل المهذب وصل فجأة وأصرّ على رؤيتك، أما جزاؤه فقد كان هذا. اندفعت نحوه تهاجمينه بسكين وعندما انتزعَ منك السكين عضضت ذراعه. لن تريه مرة أخرى. ثم من أين حصلت على تلك السكين؟ قلتِ لهم إنك سرقتها مني، لكني شديدة التحوط، معتادة على أمثالك. لم تحصلي على السكين مني. لابد أنك اشتريتها في ذلك اليوم الذي أخرجتك فيه. يوم قلتُ للآنسة أيف بأنك يجب أن تخرجي.

قلت:

- عندما ذهبنا إلى إنجلترا.

قالت:

- أيتها الحمقاء، هذه إنجلترا.

قلت:

- لا أصدق ذلك. ولن أصدقه أبداً.

(في ذلك اليوم ذهبنا بعد الظهر إلى إنجلترا. هنالك حشائش وماء بخضرة الزيتون وأشجار عالية تحدّق في الماء. فكرت في أن هذه هي إنجلترا.

إن استطعت أن أبقى هنا فسأتحسن من جديد وسيسكت الصوت في رأسي. قلت دعيني أمكث وقتاً أطول قليلاً، فجلست تحت شجرة وأخذتها غفوة. هنالك على مبعدة عربة وحصان وكان في العربة امرأة. تلك المرأة هي التي اشترت لي السكين. وقد أعطيتها المدلّاة حول عنقي بدلاً عنها.)

قالت غريس بول:

- إذن فأنت لا تتذكرين أنك هاجمت الرجل المهذب بسكين؟ قلتُ له ستهدأ. قال «لا بد أن أتكلم معها.» أوه... لقد حذرناه لكنه لم يأبه بنا. وبالرغم من وجودي في الغرفة لم أسمع كل ما قال، سمعت فقط قوله «لا أستطيع أن أتدخل من ناحية القانون بينك وبين زوجك» وقد قفزت عليه حين قال «من ناحية القانون» وعندما انتزع السكين من يدك عضضته. هل تقصدين القول بأنك لا تتذكرين شيئاً من كل هذا؟

أتذكر الآن أنه لم يتعرف عليّ. رأيته ينظر نحوي وعيناه تدوران في محجريها دون أن تجدا ما تتوقعان. نظر نحوي وتكلم معي كما لو كنت غريبة. ماذا تفعل إن حدث لك شيء كهذا؟ لماذا تضحك مني؟

- هل أخفيتِ ثوبي الأحمر أيضاً؟ لو كنت أرتديه لتعرف عليّ.

قالت:

- لم يخفِ أحد ثوبك. إنه معلق في الخزانة.

نظرت إليّ وقالت:

- لا أصدق أنك تعرفين كم أمضيت هنا، أنت أيتها المخلوقة المسكينة.

قلت:

- على العكس. لا أعرف إلا فترة بقائي هنا. إنها ليالٍ وأيام، أيام

وليال، مئات الأيام والليالي تتساقط خلال أصابعي. لكن ذلك لا يهم. لا معنى للوقت. ثمة شيء يمكن أن تلمسيه وتحمليه مثل ثوبي الأحمر له معنى. أين هو؟

أشارت برأسها تجاه الخزانة ونزلت زاويتا فمها إلى الأسفل. ما أن أدرت المفتاح حتى رأيته معلقاً؛ لون النار والغروب. لون الورد المتوهج. قلت:

– إن دُفنتِ تحت شجرة اللهب فستعلو روحك إلى الأعلى عندما تزهر الشجرة. الكل يرغب في هذا.

هزت رأسها، لكنها لم تتحرك أو تلمسني.

العطر المنبعث من الثوب كان واهناً في البداية، ثم صار أقوى. رائحة نجيل الهند(*) والياسمين الأحمر، رائحة القرفة والغبار وأشجار الليمون المزهرة. رائحة الشمس، ورائحة المطر.

***

كنت ألبس ثوباً بهذا اللون عندما جاء ساندي ليراني للمرة الأخيرة. قال:

– ألا تأتين معي؟

قلت:

– لا، لا أستطيع.

– إذن فهو وداع.

– نعم، هو وداع.

---

* نجيل الهند عشب ذو جذور عطرية.

قال:

- لكني لا أستطيع أن أتركك بهذا الشكل. لستِ سعيدة.

قلت:

- أنت تضيّع الوقت وليس أمامنا إلا القليل منه.

كان ساندي غالباً ما يأتي ليراني عندما يكون ذلك الرجل غائباً. وكنت ألتقيه حين أخرج بعربتي. حينها كنت أستطيع الخروج في عربة. كان الخدم يعلمون لكن أحداً منهم لم يكن ليقول شيئاً.

الآن، لا وقت لدينا، لذا تبادلنا القبلة في تلك الغرفة البليدة. هنالك مراوح مفروشة تزيّن الحيطان. سبق أن تبادلنا القبل ولكن ليس بهذا الشكل. كانت تلك قبلة الحياة والموت والمرء لا يفهم إلا بعد مضي وقت طويل ما معنى قبلة الحياة والموت. الباخرة البيضاء صفّرت ثلاث مرات؛ مرة بمرح ومرة للنداء ومرة لتقول وداعاً.

***

أنزلت الثوب الأحمر ووضعته على جسمي. قلت:

- هل يجعلني أبدو طائشة منحلّة؟

هذا ما قاله لي ذلك الرجل. لقد أكتشف أن ساندي زار الدار وأنني ذهبت لرؤيته. لا أعرف أبداً من الذي أخبره. قال لي:

- ابنة سيئة السمعة لأم سيئة السمعة.

قالت غريس بول:

- اوه... ضعيه جانباً. تعالي وكلي طعامك. ها هو ذا إزارك الرمادي.

لا أستطيع أن أفهم ما الذي يمنعهم من توفير ثوب أفضل لك؟ إنهم أغنياء بما يكفي.

لكني أمسكت الثوب بيدي متسائلة إن كانوا قد فعلوا آخر الأشياء وأسوأها. إن كانوا قد غيّروه على غفلة مني. إن كانوا قد غيّروه وإنه ليس ثوبي على الإطلاق؛ ولكن كيف يتأتى لهم الحصول على العطر ذاته؟

- حسناً لا تقفي مرتجفة هكذا.

قالت لي بلطف غامر.

تركت الثوب يسقط على الأرض ونظرت من النار إلى الثوب ومن الثوب إلى النار.

وضعتْ الإزار الرمادي حول كتفي لكني قلت لها بأني لست جائعة. وهي لم تحاول إجباري على الأكل كما تفعل أحياناً.

قالت:

- حسناً تفعلين إذ لا تتذكرين شيئاً مما حدث ليلة أمس. لقد أغمي على الجنتلمان وحدثت هنا، فوق، جلبة صاخبة. لطخ الدم المكان، ووقع اللوم عليّ لكوني تركتك تهجمين عليه. نحن نتوقع وصول السيد خلال أيام قليلة. لن أحاول مساعدتك مرة أخرى أبداً. لقد بلغتِ حداً لا تجدي معه المساعدة.

قلت:

- لو كنت أرتدي ثوبي الأحمر لكان ريتشارد قد تعرف عليّ.

- ثوبك الأحمر.

قالت وضحكت.

لكني نظرت إلى الثوب على الأرض، بدا وكأن ناراً تنتشر في الغرفة. كان جميلاً، وقد ذكّرني بشيء عليّ القيام به. فكرت أني سأتذكر. سرعان ما سأتذكر.

***

كانت تلك ثالث مرة أحلم بها، وقد انتهى الحلم. أعلم الآن أن السلّم يؤدي إلى هذه الغرفة التي أتمدد فيها وأراقب المرأة نائمة ورأسها فوق ذراعيها. في حلمي انتظرت حتى علا شخيرها، بعدها نهضت، أخذت المفاتيح وسمحت لنفسي بالخروج حاملة الشمعة في يدي. إنه أسهل الآن من أي وقت مضى، مشيت كما لو كنت أطير.

كل من أقاموا في الدار من قبل ذهبوا، فأبواب غرف النوم مغلقة. ولكن بدا لي أن أحداً يتبعني، يلاحقني ضاحكاً. كنت أتلفت أحياناً إلى اليمين أو إلى اليسار ولكني لم أنظر إلى الخلف قط لأني لم أكن أرغب في رؤية شبح المرأة الذي يقال إنه يسكن هذا المكان يلاحقني. نزلت السلم. وتماديت بالوصول إلى حيث لم أصل في أي وقت آخر. هنالك شخص يتكلم في إحدى الغرف. مررت به دون صوت، على مهل.

أخيراً وجدت نفسي في الصالة حيث يوجد قنديل مشتعل. أتذكر هذا عندما جئت. القنديل والسلّم المظلم والوشاح فوق وجهي. يظنون أني لا أتذكر، لكني أتذكر. ثمة باب على الجانب الأيمن. فتحته ودخلت؛ وجدت غرفة واسعة فيها سجادة حمراء وستائر حمر. كل ما عداها كان أبيض. جلست على أريكة أتطلع إليها، بدت لي حزينة وباردة وفارغة: كنيسة دون مذبح. أردت أن أراها بوضوح، لذلك أضأت كل الشموع وهي كثيرة. أضأتها بحرص من الشمعة التي كنت أحملها، لكني لم أستطع الوصول إلى الثريا. بعدها تلفتُ باحثة عن المذبح، لقد ذكرتني الغرفة بكل شموعها وحمرتها

السائدة بالكنيسة. بعدها سمعت ساعة تتكتك، وكانت ساعة من الذهب. الذهب هو الوثن الذي يعبدونه.

فجأة تلبستني تعاسة ثقيلة في الغرفة على الرغم من أن الأريكة التي جلست عليها كانت ناعمة جداً حتى أنني غصت فيها. بدا لي أني أوشك على النوم. ثم تخيلت أني أسمع وقع خطى وفكرت ماذا سيقولون، ماذا سيقولون إن وجدوني هنا؟ أمسكت معصمي الأيمن بقبضتي اليسرى وانتظرت. ولكن لا شيء. بعدها شعرت بإرهاق شديد. مرهقة جداً. أردت أن أخرج من الغرفة لكن شمعتي كانت قد احترقت فأخذت واحدة من الأخريات. فجأة وجدت نفسي في غرفة الخالة كورا. رأيت ضوء الشمس يدخل من الشباك، الشجرة في الخارج وظلال الأوراق على الأرض، لكني رأيت الشموع أيضاً وكرهتها. لذلك أطحت بها جميعاً. انطفأت كلها تقريباً، إلا واحدة وصلت نارها إلى الستائر السميكة التي تبطّن الستائر الحمر. ضحكت وأنا أرى اللون الحبيب ينتشر بتلك السرعة، لكني لم أبق لأراقبه. عدت إلى الصالة حاملة الشمعة الطويلة. وفي تلك اللحظة رأيته: الشبح. المرأة ذات الشعر الدافق. كان يحيط بها إطار مذهب لكني أعرفها. أسقطت الشمعة التي كنت أحملها فوصلت نارها إلى حافة غطاء المائدة ورأيت النيران تتصاعد منبثقة إلى الأعلى. وبينما أنا أعدو، أو ربما أطفو أو أتدفق، ناديتُ ساعديني يا كريستوفين ساعديني، ونظرت خلفي فرأيت أن يداً تمتد لمساعدتي. هنالك حائط من نار يحميني لكنه ساخن جداً؛ كان يسفعني وأنا أبتعد عنه.

مزيد من الشموع على الطاولة، التقطتُ واحدة منها وعدوت أصعد أول مجموعة من الدرجات ثم المجموعة الثانية. في الطابق الثاني قذفت الشمعة بعيداً لكني لم أبق لأراقب. عدوت لأصعد آخر مجموعة درجات، على طول الممر. مررت بالغرفة حيث جاءوا بي بالأمس أو اليوم السابق له، لا أتذكر.

وربما منذ زمن طويل جداً فأنا أشعر كمن يعرف المكان جيداً. كنت أعرف كيف أتخلص من الحرارة ومن الصياح؛ لأن صياحاً بدأ يتصاعد الآن. حين صرت في الخارج على الشرفات المشرعة وجدت الجو بارداً وصرت لا أكاد أسمعهم. عندها جلست بهدوء. لا أدري كم بقيت جالسة. بعدها استدرت ورأيت السماء؛ سماء حمراء تلتم كل حياتي فيها. رأيت ساعة الجد والغطاء المرقّع الزاهي للخالة كورا؛ كل الألوان، رأيت السحلبيات والستيفانوتس والياسمين وشجرة الحياة تلتهمها النيران. رأيت الثريا والسجادة الحمراء في الطابق الأسفل والخيزران وأشجار السرخس؛ السرخس الذهبي والنحاسي، والمخمل الأخضر الناعم من الطحالب على حائط الحديقة. رأيت دار دميتي والكتب وصورة ابنة الطحّان. وسمعت الببغاء ينادي بالفرنسية كما أعتاد كلما رأى غريباً «مَن هناك؟» وسمعت الرجل الذي يكرهني ينادي أيضاً «برثا! برثا!». الريح طالت شعري فتدفق إلى الخارج كالأجنحة. فكرت ربما حملني إلى الأعلى إن قفزت نحو تلك الصخور الصلبة. لكني رأيت حين نظرت عبر الحافة بحيرة كوليبري. كانت تيا هناك، تومئ لي وعندما ترددتُ ضحكتْ مني. سمعتها تقول: أتخافين؟ وسمعت صوت الرجل يردد «برثا! برثا!» كل ذلك رأيته وسمعته في جزءٍ من ثانية. والسماء فاقعة الحمرة. صاح شخص ما، وفكرتُ «لماذا صرختُ؟» ناديت «تيا!» وقفزت فصحوت.

كانت غريس بول تجلس وراء الطاولة وقد سمعت الصيحة أيضاً لأنها قالت:

- ما هذا؟

نهضتْ من مكانها واقتربت مني وهي تنظر إليّ. تمددتُ ملتزمة السكون، أتنفس بانتظام وعيناي مغمضتان. قالت «لا بد أني كنت أحلم». ثم عادت لا إلى الطاولة بل إلى فراشها. انتظرتُ وقتاً طويلاً بعد أن ارتفع شخيرها،

ثم قمت. أخذت المفاتيح وفتحت الباب. صرت في الخارج أحمل شمعتي. الآن، أخيراً عرفت لماذا جيء بي إلى هنا وماذا يتحتم عليّ أن أفعل. لابد أن تياراً هوائياً قد هبّ لأني رأيت النار تومض ثم تخبو، لكني غطيتها بيدي فاشتعلت من جديد لتضيء لي الممر المظلم.

«تمت»


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

تقع رواية "بحر ساركاسو الواسع" لجين ريس بين نخبة نادرة من الأعمال الأدبية التي يزيدها التقادم أهمية وعمقاً. أما أهميتها فلا أدلّ عليها من كثرة الدراسات النقدية المخصصة لها ودخولها المعتمد الغربي والعالمي والأكاديمي على نطاق واسع، وأما عمقها فتكشفه حقيقة أن موضوعاتها المتنوعة المدهشة تعود لتفرض حضورها في يومنا هذا إلى الواجهة وأهمها الهجنة الثقافية والسياسية والعاطفية التي تعيشها الإنسانية في حقبة العولمة والتثاقف. لقد عادت الدراسات النسوية وما بعد الكولونيالية وما بعد الحداثية للتعمق في قراءة هذا النص المدهش لتكتشف فيه أعماقاً متجددة على الدوام .


ISBN 978-9938-880-55-7